حركة التاريخ

عند الإمام علي عليه السلام

بنياد

محمد مهدي شمس الدين

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

Shams al-Dīn

حركة التاريخ

عند الإمام علي عليه السلام

بنياد

محمد مهدي شمس الدين

2264
.1067
.924
1984

2264
.8758
.924
1984

• اسم الكتاب	حركة التاريخ عند الامام علي(ع)
• الكاتب	محمد مهدي شمس الدين
• الناشر	بنياد نهج البلاغه (روشنگر)
• الطبعة	الاولى
• طبع على مطابع	مكتب الاعلام الاسلامي
• تاريخ النشر	شوال ١٤٠٥
• طبع منه	٣٠٠٠/نسخة

حقوق النشر محفوظة للناشر

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR
32101 014295677

بسم الله الرحمن الرحيم

«أيْ بُنـيَّ. إنِّـي وَإنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْنَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِـي آثَارِهِمْ، حَتَّىٰ عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَىٰ إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْعُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذٰلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ...».

مِنْ وصيّةِ الإمامِ عليّ(ع) إلىٰ وَلَدِهِ الإمام الحَسنِ(ع)

رقم النّصّ(٣١) ـ باب الكتب

الفهرست

كلمة المؤسسة ٩
مقدّمة ١٣
التاريخ وحركة التقدم البشري ونظرة الإسلام ٢١
الإمام في مواجهة التّاريخ ٣١
التاريخ عندالإمام(ع) في المجال الوعظي، وفي المجال السياسي الفكري ٤١
التاريخ في مجال الوعظ ٤٧
التاريخ في مجال السياسة والفكر ٥٥
التاريخ في مجال الفكر ٦١

١ . النبوّات ٧١
أ ـ بداية العصر التّاريخي للإنسان ٧١
ب ـ وظيفة النّبوّة ٧٥
٢ . وعي التّاريخ ٨٧
٣ . التّاريخ يعيد نفسه ٩٥
٤ . مصارع القرون عوامل انحطاط الأمم ١٠١
١ ـ الصّراع القبلي ١٠٣
٢ ـ الصّراع العنصري ١٠٥
٥ . المعروف والمنكر والأكثرية الصّامة ١١٣

التاريخ في مجال السياسة ١٣٧
١ ـ حركة التاريخ في مظهر التفاعل الإجتماعي الثوري ١٤١
٢ ـ الفتنة ١٥٣
أ ـ الفتنة الشاملة ١٥٥
ب ـ الفتنة العارضة ١٥٧
ج ـ الفتنة الغالبة ١٦٥
أ ـ كيف تبدأ الفتنة ١٦٧
ب ـ كيف تتحرّك الفتنة وتنمو؟ ١٦٨
ج ـ ماموقف المسلم من الفتنة حين تبدأ؟ ١٧٢
د ـ موقف الإمام علّي من فتنة عصره ١٧٤
٣ ـ إنتصار حركة الرّدّة ١٧٩
٤ ـ المعاناة ١٨٣
٥ ـ الثورة ١٩١
٦ ـ الأمل ١٩٧

كلمة المؤسسة

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين..

وبعد..

فإنه إذا كان الهدف من دراسة التاريخ هو مجرد اجترار الأحداث، أو لتكون محض ترف فكري، ونشوة خاوية.. فإن قصارى جهد دراسة كهذه سيكون: هو أن يتمطى الفكر في قيوده وأغلاله - في بسمة حلم عارضة.. ثم لايلبث أن يعود ليدفن نفسه تحت ركام من الأحلام في مطاوي الفراغ، والخنوع.. ثم النسيان..

وإنما تصبح دراسة التاريخ، وفلسفته، وآثاره، ذات قيمة، وفاعلية، وجدوى.. حينما يراد لها أن تتحول؛ لتكون عبء مسؤولية، وبداية حركة، ونبضات حياة..

وبديهي.. أنه من أجل أن تكون كذلك.. لابد من أن تصبح قادرة على أن تعكس الواقع التاريخي، كما هو، ومن دون أي زيادة أو نقصان.. وكذلك من دون أي تزوير أو تحرير..

ومعنى ذلك: هو أن على هذه الدراسة لكي تكون على مستوى من الدقة والأمانة.. أن تتحرى أسلوب المحاكمة النزيهة والموضوعية للأحداث، والوقائع، أو فقل لما يدعى أنه منها.. وأن تعتمد الأصولية العلمية الصحيحة في بحوثها، وكذلك في مجال التحليل، والإستنتاج، والتقييم..

وإذا كنا نعلم: أن أوثق من يمكن الإعتماد عليهم في إعطاء صورة واقعية وواضحة عن أي حدث كان، وعن علله وأسبابه.. هم أولئك الذين عاصروه وعايشوه، وعاينوه عن قرب..

فإننا نجد: أنه حتى هؤلاء.. بل وحتى كثير من الذين شاركوا في صنع ذلك الحدث لايستطيعون: أن يقدموا صورة واضحة المعالم عن ذلك الحديث المفترض، ولاعن علله وأسبابه، وآثاره ونتائجه.. بل قدنجدهم يعطون تفسيرات مختلفة.. بل وحتى متباينة أحياناً.. رغم افتراضنا مسبقاً: أنهم جميعاً صادقون في رغبتهم بإعطاء الحقيقة، كل الحقيقة في هذا المجال..

وماذلك.. إلاّ لأن الناس يختلفون في مستويات إدراكهم ووعيهم، وفي نسبة اطلاعهم على جزئيات وظروف ذلك الحدث. الأمر الذي يؤثر على قدرتهم على فهمه واستيعابه أحياناً، ثم على ربطه بغيره، فضلاً عن ادراك علله وأسبابه.. ثم آثاره ونتائجه على النحو الأفضل والأتم..

كل ذلك.. فيما لوكان الحدث عادياً، لايوجد من يهتم بالتلاعب فيه، أو بالتعتيم عليه.. فكيف إذن.. تكون الحال بالنسبة لتلك الأحداث، التي تشارك في صنعها أيد خفية، وتعمل على تزييف التعتيم أوعلى كثير من الحقائق.. ثم على التحوير والتزوير فيها، وفي خصوصياتها وملامحها..

وإذا كانت الأحداث التي دونت ووصلت إلينا أكثرها أو كثير منها ولاسيما أكثرها حساسية، وأعظمها أهمية هي من هذا النوع بالذات.. فإننا ندرك: مدى حاجتنا إلى الناقل الخبير، والناقد البصير في هذا المجال.. كما أننا ندرك مدى أهمية وتأثير الوسائل التي لابد لنا من الإستفادة منها في الوصول إلى الحقائق، التي أُريد لسبب أو لآخر إحاطتها بستار من الكتمان، أو بقاؤهارهن الإبهام والغموض..

وبعد كل ماتقدم.. فإننا إذا كنا نعلم: أننا كلما قربنا من مصدر الوحي والرسالة، والإمامة والعصمة، فإننا نكون أبعد عن المغالاة والتجني، وعن الوقوع فريسة للخداع والتضليل.. لأن هذا هو المصدر الوحيد، الذي لايعتريه خلل في الرؤية للواقع الموضوعي، ولانقص في إدراكاته، لحقيقة مايجري، ولامجال للحيلولة بينه وبين الواقع، واطلاعه عليه كما هو، ومن دون أي تحوير أو تزوير..

- إذا كنا نعلم ذلك- فإن التهل من هذا النمير العذب، والاستقاء من هذا المنبع الصافي، والإعتماد عليه في التعرف على الأحداث والوقائع، وكل مايرتبط بها أو يعود إليها، يصبح أكثر أهميةً وخطراً، وأعظم بركةً وأثراً..

حتى إذا تعذر علينا التعرف على نفس الحدث عن هذا الطريق.. فلا أقل من امتلاك الرؤية، ثم اعتماد المعايير والأسس، وبعد ذلك الوسائل والأساليب الصحيحة

التي يرى أهل بيت العصمة، والإمامة، ومعدن الوحي والرسالة، أنها تنفع في الوصول إلى ذلك الهدف المنشود، في مجال التقييم الصحيح والسليم للأحداث، ومحاكمتها، ثم قبولها أو رفضها، إذا اقتضى الأمر أياً من الرفض، أو القبول..

أو على الأقل.. تقل معها احتمالات الخطأ والزيغ، والوقوع في متاهات التفسيرات، والتكهنات الخاطئة والناقصة، التي يتعرض لها الباحثون في التراث بصورة عامة..

ومؤسسة نهج البلاغة.. قدوجدت في هذا الكتاب: «حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام» الذي هو من تأليف سماحة العلامة الجليل البحّاثة الشيخ محمد مهدي شمس الدين خطوة واسعة وموفقة في هذا الإتجاه..

ولأجل ذلك.. فقدبادرت لتقديمه إلى القراء الكرام، على أمل أن يجدوا فيه ماينقع الغلة، و يبل الصدى..

ونسأل الله أن ينفع به.. ويجعله خالصاً لوجهه الكريم.. وهو الموفق والمسدد، وهو المعين والهادي..

مؤسسة نهج البلاغة

مقـــدّمة

التاريخ هو حركةُ الشيء في محيطه خلال الزّمان، و بعبارةٍ أخرى: التاريخ هو عمليةُ التحوّل والتغيّر والإنتقال (الصيرورة) من حالةٍ الى حالة، الّتي تعتري الشيء أو يُنجزها الشّيء من خلال علاقته بعناصر محيطة عبرَ الزّمان.

وقد كان الشّيءُ في النّظرة السّائدة قديماً يعني الإنسان فقط، و يعني -بصورة محدّدة- الفعاليات الإنسانية: المجتمع والمؤسسات السّياسيّة والعسكرية والإجتماعية والثقافية.

لقد كان التّاريخ علم حركة الإنسان من خلال محيطه في الزّمان، ولكن العصر الحديث شهد تطوراً في مدلول هذا المصطلح فاتّسع ليشمل كلّ شيء في الطّبيعة والحضارة: الأرض، والمعادن، والنّباتات، والحيوان، والأفكار، والعلوم.. وغير ذلك إلى جانب الفعاليات الإنسانية، وغدا في وسع المؤرخ ذي النظرة الشاملة أن يدّعي أن التّاريخ كالفلسفة ذو موضوع شامل لكلّ مايمكن أن يدخل في الوعي البشري.

ولعلّ بعض المؤرخين المسلمين العظام كانوا قدانتهوا في تفكيرهم إلى حافة هذه النّظرة الّتي تُعطي التّاريخ مفهوماً شاملاً يتجاوز الفعالياتِ الانسانية، فنلاحظ أنّهم أدخلوا في كتاباتهم التّاريخيّة معلوماتٍ جغرافية أو فلسفيّة، والمسعوديُّ في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» مثالٌ بارز على ذلك.

ولكن هذه النّظرة الشّمولية لا تعنينا هنا. إنَّ عِنايتنا موجهةٌ نحو تاريخ الإنسان. وربّما أمكن ردّ كلّ فروع التّاريخ الأخرى -في النّظرة الشّموليّة الحديثة- إلى تاريخ الإنسان، من حيث أنها تؤرّخ لبعض نشاطاته (تاريخ العلوم، الفنون والآداب، الفلسفة) أو تؤرّخ لبيئته (النّبات، الحيوان، طبقات الأرض).

وإذن، فالتّاريخ هو حركة الإنسان في محيطه خلال الزّمان، وقد يعالج التّاريخ حركة الإنسان في مجتمع معين أو في إطار ثقافة معيّنة، وقد يتسع ليعالج حركة الإنسان على صعيدٍ عالمي.

ولا شكَّ في أن فكرة «العالميّة» لدى المؤرّخين المسلمين قد جاءتهم من القرآن الكريم حيث صوّر حركة الإنسانية من خلال عرضه لحركة النّبوات في الأمم والشعوب، كما أنّهم استفادوا في تعزيز نظرتهم العالميّة من «علم الأنساب» الّذي تحدّر إليهم من التّقليد الجاهلي القديم، ثمّ دخل ـ كغيره من المعارف العربية والإسلامية ـ عصر التّدوين. وليس المهمُّ هنا جانب الصّدق التّاريخي في علم الأنساب، وهو أمر مشكوك فيه، وإنّما المهمّ ما تُعطيه المعرفة النّسبيّة من إدراكٍ لترابط الشّعوب والقبائل وعلاقاتها الدّاخلية، هذا الإدراكُ الّذي يتجاوز بالمؤرخ حدود الجغرافيا والقبلية أو القومية ليفتح بصيرته على مدى أرحب.

*

على هذا المدى الرّحب كان الإمامُ عليُّ بنُ أبي طالب عليه السّلام يتعامل مع التّاريخ، لا كمؤرّخ وإنّما باعتباره رجل عقيدة ورسالة، ورجل دولة وحاكماً، ولم يكن يستخدم التّاريخ كمادّة وعظيّة فقط وإنّما كان يستهدف أيضاً منه النّقد السّياسي والتّربية السّياسية لمجتمعه والتوجيه الحضاري لهذا المجتمع.

ونحاول في هذا الكتاب أن نجلوَ نظرةَ الإمامِ عليّ(ع) إلى حركة التاريخ، ونكتشف أساليب تعامله مع التّاريخ في حياته العامة الفكريّة والسّياسيّة.

والمصدر الأساس لهذه الدّراسات هو كتاب نهج البلاغة، وربّما استعنا بنصوص أخرى لم يضمّنْها الشّريفُ الرّضي في كتاب نهج البلاغة للتّعرّف على مزيد من التّفاصيل بالنّسبة إلى نظرة الإمام التّاريخيّة أو لإكمال نصوص أوردها الشّريف الرّضي في نهج البلاغة مبتورة.

ونحن نرى أنّ كتاب نهج البلاغة وثيقة عظيمة القيمة في الحضارة الإسلاميّة من النّاحية الفكريّة والسّياسية. ولا ينقضي أسفنا على أنّ الشّريف الرّضي رحِمه اللّهُ قد جمع النّصوص لغاية جمالية تحكمت في اختياره فجعلته يؤثر النّصوص الممتازة من النّواحي البلاغيّة الفنيّة ويهمل ما عداها وقد يجزّئ ـ لهذا السّبب ـ من النّصّ بعضه الّذي تتوفّر فيه هذه الخاصّة ويهمل سائره، وهذا ما دعاه إلى أن يُعطي كتابه اسماً

يلخص الغاية من جمعه له و المنهاج الّذي آتّبعه في عمليّة الجمع فضاع على الحضارة الإسلامية بذلك علم كثير و فكر عظيم.

و لعلّ اللّه تعالى يقيض من العلماء والباحثين من يتقصّى في كتب السّيرة والتاريخ والحديث والأدب جميع ما رُوِيَ عن أميرالمؤمنين عليه السّلام و يخضعه لدراسة نقدية صارمة تميّز الأصيل فيه من المنحول الموضوع و يصنف ما يثبت للنّقد منه مع ما ورد في نهج البلاغة للشّريف الرّضي رحِمهُ اللّهُ تعالى تصنيفاً علمياً حسب موضوعات النّصوص (في السّياسة، والفكر، والوعظ، والحرب، والفقه، والإلهيات وسائر العقائد... و غير ذلك من الموضوعات) فذلك يجعل نهج البلاغة و مستدركه مصدراً ميسّراً للدّراسات العلميّة عظيم القيمة جليل الفائدة.

و قد قام المرحوم الشيخ هادي كاشف الغطاء بتأليف كتاب (مستدرك نهج البلاغة) و رتّبه على نحو ما رتّب الشّريف الرّضي كتاب نهج البلاغة (الخطب، والكتب، والحكم) ولكن هذا العمل دون ما نطمح إليه لسببين: الأوّل ـ ما نقدّر من أنّ هذا الكتاب لم يستوعب كلّ ما أهمله الشّريف أو شذّ عنه، و لذا فإن الحاجة إلى عمل أكثر شمولاً لا تزال قائمة. الثّاني ـ ما يبدو لنا من أن كاشف الغطاء أثبت في كتابه كلّ ما وجده منسوباً إلى الإمام و لم يخضع النّصوص للنّقد، و هذا ما جعله يثبت في كتابه نصوصاً منسوبة إلى الإمام نقدر أنها موضوعة.

و هنا نجد من المناسب الإشارة إلى أنّ اللّغط الّذي أثير حول صحة نسبة ما جمعه السّيد الشّريف في نهج البلاغة إلى الإمام علي(ع) بوجه عام منذ آبن خلدون إلى زكي مبارك و أحمد أمين، من التّشكيك في صحة النّسبة أو الجزم بعدم صحة النّسبة ـ هذا اللّغط الّذي أثاره التّعصب في بعض الأحيان والجهل في أحيان كثيرة قد آنتهى أو يجب أن ينتهي إلى التّسليم بصحة النّسبة التّاريخيّة لما ورد في نهج البلاغة بوجه عام إلى الإمام عليه السّلام، فإنّ الدّراسات والأبحاث التوثيقيّة الّتي عقدت حول نهج البلاغة منذ شارح نهج البلاغة عزّالدين آبن أبي الحديد (٥٨٦ ـ ٦٥٥هـ) إلى أيّامنا قدّمت أجوبة مقنعة على جميع التّساؤلات الّتي أثيرت و أغلقت منافذ الشّك في صحة نسبة ما آشتمل عليه نهج البلاغة إلى أميرالمومنين علي بن أبي طالب(ع) بالقدر الّذي يكفي لتصحيح النّسبة التّاريخيّة لأيّ نصّ من نصوص الفكر الإسلامي.

وهذه الأبحاث والدّراسات على قسمين:

منها ما اتّبع منهاج النقد الدّاخلي حيث أخضعت النّصوص لدراسة تكو ين الجمل فيها والعلاقات بين جملة وأخرى، وأنواع المفردات والمجازات وماإلى ذلك من مكوّنات النّصّ. وهذا ماصنعه ابن أبي الحديد في عدة مواضع من شرحه، و بعض من تأخّر عنه من الشّراح والباحثين. وهذا النّوع من الأبحاث قليل ومقصور على بعض نصوص النّهج ،ولذا فإنّ الحاجة ماسّة إلى دراسة شاملة لجميع نصوص نهج البلاغة تتبع هذا المنهاج.

ومنها ماتّبع منهاج النّقد الخارجي حيث بحث عن مصادر متقدّمة في الزّمن على الشّريف الرّضي تضمّنت نصوصاً من نهج البلاغة.

وقد كانت نتائج هذه الدّراسات وتلك في مصلحة صحة نسبة نهج البلاغة بوجه عام إلى الامام عليه السّلام.

ولعلّ آخر دراسة توثيقيّة هامّة وشاملة اتّبع فيها منهاج النّقد الخارجي هي دراسة الأستاذ السّيد عبدالزّهراء الخطيب الّتي نشرها في كتابهِ (مصادر نهج البلاغة وأسانيده ـ ٤ مجلدات/ دار الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت).

ومن المؤكّد أنّ هذه الدّراسة لن تكون الأخيرة، فإنّ دراسات أخرى ستضاف إلى ماتمّ إنجازه في هذا الحقل كلّما تنامت حركة نشر كتب الفكر الإسلامي الّتي لا تزال مخطوطة وموزّعة في مكتبات العالم.

*

بقي عليّ أن أشير الى أنّ هذه الدّراسة عن حركة التّاريخ عند الإمام علي(ع) حلقة في سلسلة من الدّراسات في نهج البلاغة سبقها كتابنا (دراسات في نهج البلاغة) وقد اشتمل على أربع دراسات هي:

١ ـ المجتمع والطبقات الإجتماعية.

٢ ـ الحكم والحاكم.

٣ ـ المغيبات.

٤ ـ الوعظ، وأضيفت إليها في الطّبعة الثّالثة دراسة خامسة بعنوان الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والأكثرية الصامتة.

*

. دراسات في نهج البلاغة: الطّبعة الأولى ـ النّجف العراق ـ ١٩٥٦ ـ الطّبعة الثّانية ـ بيروت ـ دارالزّهراء ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م الطّبعة الثّالثة. بيروت.

لقد انتفعت بكتاب (الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه) لمؤلفه: السيّد جواد المصطفوي الخراساني. وهو عمل جليل القدر، عظيم الفائدة للباحثين. نأمل أن يطوِّره مؤلفه بحيث يكون أكثر شمولاً للشروح في طبعاتها الجديدة المتداولة، وللنصوص الواردة في مستدركات نهج البلاغة.

والحمد لله رب العالمين.

محمد مهدي شمس الدّين

التاريخ
وحركة التقدم البشرى
ونظرة الاسلام

التّاريخ وحركة التقدّم البشري ونظرة الإسلام

التّاريخ حركة الكائن في الزّمان والمكان.

والكائن جماد، ونبات، وحيوان، وإنسان.

وتاريخ كلّ من الجماد والنّبات والحيوان يسير وفق قوانين ثابتة، وموضوعة خارج هذه العوالم.

إنّ الجماد لم يضع قوانين حركته، ومن ثمّ فإنّه لم يضع قوانين تاريخه، وكذلك النّبات والحيوان.

إنّ هذه العوالم الثّلاثة خاضعة في جميع حالات وجودها لمبدأ الضّرورة، ومن ثمّ فتاريخها من جميع وجوهه خاضع لمبدأ الضّرورة، إنّه حصيلة حركتها الضّرورية في الزّمان والمكان، ومن ثمّ فـ(الخطأ) غير وارد في تاريخ هذه العوالم، إنّها لا تصنع تاريخها ولذا فهي لا تقع في أخطاء العمل.

أمّا تاريخ الإنسان فشيء آخر.

إنّ الإنسان يتعامل مع الكون على أساس مبدأ الإختيار لأنّه كائن حرّ لا يخضع لمبدأ الضّرورة إلّا في نطاق العمليات البيولوجية في جسمه، ومن ثمّ فإنّه يشارك في وضع قوانين حركته في الزّمان والمكان، فإنّ الإنسان يكيّف نفسه لتنسجم مع الطّبيعة حين يعجز عن تكيّف الطّبيعة لتنسجم معه.

والإنسان يحب و يبغض ، و يأمل و ييأس، و يتألم ويحلم، والإنسان يخاف...

يخاف من المجهول، ويخاف من المستقبل... والإنسان، قبل كلّ شيء و بعد كلّ شيء، يفكّر: يحلّل المواقف والمشكلات الّتي تواجهه، و يركّبها، و يوازن بين احتمالاتها، و يرجّح ويختار، و يتحرّك وفقاً لاختياره، فهو إذن يستجيب في حركته لعالمه الخارجي ولعالمه الدّاخلي من موقع الإختيار باعتباره كائناً حراً لا من موقع الضّرورة.

و من هنا فإنّ الخطأ في التّحليل و التّركيب و الإختيار، والرّجوع إلى الوراء في حركته، و ما يؤدّي إليه ذلك من خيبات الأمل في خططه و مشاريعه ـ أمور حدثت للإنسان دائماً في حركته التّاريخيّة.

ولذا فإنّ تاريخ الإنسان كما هو سجل مشرق و مشرّف لانتصاراته وإنجازاته في الطّبيعة والمجتمع هو كذلك سجل كئيب حافل بأخطائه، وانتكاسات حركته نحو المستقبل، و خيبات أمله.

*

و من أسوأ ما يمكن أن يقع فيه الإنسان من أخطاء: حسبانه في كثير من الحالات أنّه كان دائماً على صواب، و أنّ تاريخه يمثل خطاً صاعداً باستمرار، و أنّ حركته نحو المستقبل ـ لذلك ـ تقدميّة دائماً، خيرة دائماً، صائبة دائماً، لايتخللها خطأ ولا انحراف.

و مثل ذلك في السوء حسبانه أنّ كلّ ماضيه خطأ و تخلف، و من ثمّ فهذا الماضي لايستحقّ منه الإلتفات والمراجعة، و أنّه اهتدى إلى النّظرة الصّائبة في حاضره، و أنه في حركته نحو المستقبل حليف الصّواب والتّوفيق باستمرار.

إنّ هذا الحسبان وذلك يحملان الإنسان على ارتكاب مزيد من الأخطاء، والوقوع في كثير من المآسي وخيبات الأمل.

ذلك بأنّ الإنسان حين يخال حركة التّاريخ دائماً على صواب فإنّه يلغي جميع المؤثّرات الإنسانية، و يسلم نفسه لحركة التّاريخ الإنساني كما لو كان هذا التّاريخ خاضعاً لمنطق الضّرورة كتاريخ الجماد والنّبات والحيوان. و من ثمّ فإنّه يرتكب الأخطاء الكبرى و هو يحسب أنّه على صواب، و يصحّح أخطاءه بأخطاء أخرى

تسبّب للإنسانية مزيداً من التخلف على كلّ صعيد، و مزيداً من المآسي الفرديّة والجماعيّة.

وكذلك الحال حين يحكم الإنسان على ماضيه بأنّه مجموعة أخطاء قاد أسلافَه إليها الجهلُ وسوء الفهم و سوء التوجيه، ولذا فلا شيء من هذا الماضي يصلح للحاضر وللمستقبل. و أنّه كان ضالاًّ فاهتدى، و أنّه امتلك الحقيقة التّاريخيّة و كانت ضائعة منه بسبب هذا الّذي غلّه و شلّ قواه.

إن الإنسان باتخاذه لهذا الموقف يحكم على جميع تجارب الماضي بالفشل والبطلان، و هو حكم لا شكّ في أنّه جائر عن قصد السّبيل، لأنّ الحقيقة هي أنّ في تجارب هذا الماضي الكثير الكثير من الصّواب الّذي تكبّدت الإنسانيّة أنواعاً شتّى من الآلام والتّضحيات و تحمّلت كثيراً من المصاعب في سبيل الوصول إليه والإهتداء إلى معالمه.

كِلا هذين الموقفين يؤدّي بالإنسان إلى أن ينظر إلى نفسه و عقله في حاضره و مؤسساته السياسيّة و غيرها و سائر نظمه بثقة مطلقة لا مبرّر لها. و لنقل إنّه في هذه الحالة الّتي يرفض فيها جميع الماضي أو في تلك الحالة الّتي يخال فيها حركة التّاريخ دائماً على صواب ـ ينظر إلى نفسه و موقفه بغرور أجوف و لعل هؤلاء و أُولئك ممّن عناهم اللّهُ تعالى بقوله:

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي اَلْحَيَاةِ اَلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً. أُولَئِكَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ وَزْناً. ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوا» .

إنّ هذا الغرور الأجوف، وتلك الثّقة المطلقة الّتي لامبرّر لها تؤدّيان بالإنسان إلى الوقوع في أخطاء كبرى تعرض المجتمعات بل وجانباً كبيراً من الإنسانيّة لكوارث عظمى ومتنوّعة لم يعرف لها التّاريخ مثيلاً.

١ . سورة الكهف (رقم ١٨ مكّية) الآيات: ١٠٣ ـ ١٠٦. والآيات تومىء إلى النّظرة الّتي تعتبر حركة التّاريخ خاضعة للإعتبارات المادّيّة وحدها، والنّظرة الّتي تقيس التّقدم البشري بالمقياس المادّي وحده.

وهذا ماوقع فيه إنسان الحضارة الحديثة، والويل له مما صنعت يداه في المقبلات من الأيام.

*

وقد ولّدت هاتان النّظرتان المتطرفتان إلى التّاريخ وإلى المستقبل مفهوماً للتّقدّم البشري غير متكامل ومن ثمّ دافع بالإنسان إلى ارتكاب المزيد من الأخطاء الكبرى في شأن نفسه وفي شأن عالمه.

لقد اعتبر التّقدّم في الحضارة الحديثة بالمقياس المادّي وحده. فيقاس التّقدّم في أيّ مجتمع وفي ظل أيّ نظام سياسي بحجم الإنتاج والإستهلاك بالنّسبة إلى أشياء الحياة المادّية: الطّعام، والملابس والمساكن وأدوات الزّينة، ووسائل النّقل والطّاقة والطّرق، ووسائل اللّهو ووسائل تيسير الحياة اليومية المنزلية وغيرها، والمصانع والأسلحة وما إلى ذلك من أشياء، يضاف إلى ذلك المؤسسات الحكومية والأهلية الّتي تنظّم كلّ هذه العمليات..

ولايقيم هذا المفهوم عن التّقدّم البشري وزناً لوضعية الإنسان الأخلاقيّة وللقيم الّتي ينبغي أن توجّه سلوكه مع الطّبيعة المادّية، والعالم، والمجتمع والأسرة.

وهذا المفهوم هو الدّليل الّذي يوجّه أفكار وخطط وعمليات المؤسسات الوطنية والدّولية المعنية بقضايا التّنمية، فالوكالات المتخصّصة للأمم المتّحدة، والجامعات، ومراكز الأبحاث الدّولية والوطنية تعتبر حركة التّقدم والنموّ بهذا المقياس.

وكانت عاقبة ذلك تقدّماً مذهلاً في مجال المادّيات... تقدّماً تجاوز أكثر الأحلام جموحاً في بداية النّهضة الصّناعية الحديثة. ولكنه تقدّم ترافق مع تأخر مأساوي في مجال المعنويات بدأت بعض البصائر المستقبلية في العالم الغربي و(الشرقي؟؟) تكتشفه وتعي خطورته، وتحذر من عواقبه الوخيمة.

وعلى ضوء هذا المفهوم للتّقدّم قُسِّم الجنس البشري في الخمسينات من هذا القرن الميلادي إلى عوالم ثلاثة:

العالَم الأوّل: (أمريكا الشّماليّة، وأوربّا العربيّة، واليابان) بلغ أعلى مستوى

عرفه الإنسانُ في التّقدّم المادي والتّنظيم.

العالَم الثّاني - (الإتّحاد السّوفياتي وأوربّا الشّرقيّة، والصّين «أخيراً») يلي العالم الأوّل في الرّتبة من هذه الحيثيّة ويجهد لِلّحاق به في شتّى الميادين.

العالَم الثّالث - (آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللّاتينيّة)، و يسمّى هذا القسم من البشريّة (العالم المتخلّف أو العالم النّامي).

وهكذا يحمل العالَم الثالث وصمة التخلّف وفقاً لهذا المفهوم،

وفقاً لمقاييس التقدّم المبنية على هذا المفهوم -هذه المقاييس الّتي فرضها فكر الحضارة الحديثة وسطوتها- اندفعت شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللّاتينيّة في تيّار هذه النّظرة إلى معنى التّقدّم البشري لتحقّق لنفسها اللّحاق بالعالَم الأوّل الّذي يحول بينها و بين ذلك مستغلاً تفوّقه الهائل وضعفها الكبير في نهب ثرواتها و بلبلة حياتها السّياسية، ولكنّها في سبيل التخلّص من وصمة التخلّف العالقة بها وفقاً لهذا المفهوم تمضي قدماً في ما تحسب أنّه يضعها على طريق التّقدّم مضحّية في سبيل ذلك بالكثير من قيمها وأخلاقها متخلّية عن اصالتها، طامحة إلى أنْ يكون إنسانُها نسخةً دقيقةً من إنسان العالَم الأوّل.

*

ولكنّ هذا المفهوم عن التّقدّم البشري ناقص ومبتور لأنّه يمثّل جا نباً واحداً من الوضعيّة الإنسانية، وقد كان من أكبر الأخطاء الفكريّة الّتي وقع فيها إنسان الحضارة الحديثة نتيجة لخطأ نظرته إلى التاريخ وإلى المستبقل، فإنّ الوضعية الأخلاقيّة للإنسان ذات صلة وثيقة وأساسيّة بكونه متقدّماً أو متخلّفاً. وهذه حقيقة وجدت سبيلها أخيراً إلى الإدراك في داخل الحضارة الحديثة، وهذا، على الرّغم من أنّه لايزال في نطاق ضيّقٍ نسبيّاً، باعث على الأمل.

لقد بدأت ترتفع، هنا وهناك ، داخل الحضارة الحديثة، أصوات بعض ذوي العقول النيّرة والبصائر النّافذة من النخبة في العالم الغربي من علماء وشعراء ومفكرين محذرة من الإنسياق وراء هذه النظرة الخاطئة، محذّرة من عواقبها المهلكة، داعية إلى

اعتماد نظرة أخرى تقيم التوازن في السّعي نحو التقدّم بين حاجات الإنسان الرّوحية ووضعيّته الأخلاقية من جهة وبين حاجاته وطموحاته المادّية من جهة أخرى، منذرين بأنّ استمرار الحضارة في مادّيتها الخالصة سيؤدّي إلى خرابها ودمار الإنسانيّة أو جانب كبير منها.

إنّ نظرة هؤلاء المستقبليين من ذوي العقول النّيّرة في العالم الغربي (والشّرقي؟) قريبة من نظرة الإسلام إلى مسألة التقدّم والتخلّف مع تأكيدنا على وجود اختلافات جمّة تعود إلى تفاصيل النّظرة وإلى الوسائل والأساليب.

فالإسلام ـ ممثلاً بالقرآن الكريم، والسّنّة الشّريفة، والفقه ـ إذ يدفع بالإنسان نحو المستبقل الأفضل من حاضره وماضيه، يركّز على أنّ هذه الأفضليّة تقوم على مقياس مركّب يُعطي لكلّ واحد من المادّة والمعنى دوراً حاسماً وأساساً في إنجاز التّقدّم المتكامل المعافي، فلابدّ أنْ تحقق حركة الإنسان في الزّمان والمكان تقدّماً وتكاملاً على صعيد المادّة وعلى صعيد الوضعيّة الأخلاقيّة والصّفات الإنسانيّة لتكون حركته تقدّميّة.

قالَ اللّهُ تعالىٰ:

«وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّهُ إِلَيْكَ، وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنّ اللهَ لاَيُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ»[١].

وقالَ تعالىٰ:

«يَابَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَيُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ: هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. قُلْ: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَالإِثْمَ، وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحقِ، وَأَنْ تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً، وَأَنْ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَالا تَعْلَمُونَ»[٢].

١. سورة القصص (رقم ٢٨ مكيّة) الآية: ٧٧

٢. سورة الأعراف (رقم ٧ مكيّة) الآيات: ٣١ ـ ٣٣.

أمّا تحقيق التّقدّم المادّي وحده مع إهمال العناية بالوضعيّة الأخلاقيّة والمعنويّة للإنسانيّة أو مع التّضحية بها فإنّه كقصر العناية على الوضعيّة الأخلاقيّة والرّوحية مع إهمال شؤون التّقدّم المادّي ـ كلاهما لايمثّلان النّظرة المتوازنة الّتي يجب أن تقوم عليها حركة الإنسان التّاريخيّة وتبنى على هديها مؤسّسات الحضارة. إنّ كلّ واحد من الإتجاهين يمثّل انحرافاً معيّناً لايخدم الإنسانيّة ولايبني الحضارة.

إننا ـ وفقاً لهذه النّظرة المتوازنة ـ كما نعتبر النقص في إنتاج السّلع والخدمات المادّيّة بدرجة تكفي أكبر عدد من الناس وتحقّق لهم الرّفاهيّة واللّذة ـ كما نعتبر هذا النقص وما يتصل به تخلفاً، كذلك نعتبر من أسوأ مظاهر التّخلّف: تزايد الجرائم في المجتمع بشتّى أنواعها، وتصدّع الأسرة، وجفاف العلاقات الإنسانية النّظيفة، ونموّ روح الحرب والعدوان داخل المجتمعات و بين الجماعات القوميّة والوطنيّة، وهو أنّ الحياة البشرية عندما تكون خارج الإطارالقومي والعنصري للمعتدي... وغير ذلك من مظاهر فساد الوضعيّة الأخلاقية للإنسان فرداً وجماعة ومجتمعاً ودولةً.

ووفقاً لهذه النّظرة المتوازنة يكون من الخطأ تقسيم عالم اليوم إلى عالم متقدّم وعالم متخلّف. إنّ عالم اليوم كلّه ـ وفقاً لهذه النّظرة ـ متخلّف، فإنّه إذا كان العالم الثالث متخلّفاً على مستوى المادّة وأساليب التّنظيم والإدارة، فإنّ العالم الآخر متخلّف من حيث الوضعيّة الأخلاقية والعلاقات الإنسانية والصّفات الإنسانية في أفراده وجماعاته ومجتمعاته.

وسنرى، خلال هذا البحث، أنّ منطلق أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام في فهمه للتّاريخ وحركة الإنسان في الحاضر نحو المستقبل هو هذه النّظرة المتوازنة الّتي اشتمل عليها الإسلام، وعبّر عنها القرآن الكريم، والسّنّة الشّريفة، والفقه المستمدّ منهما المبني عليهما.

الإمام في مواجهة التاريخ

الإمام في مواجهة التاريخ

كان أميرُ المؤمنين عليّ عليه السّلام، كما يخبرنا هو. وكما سنرى خلال هذه الدراسة يوجّه عناية فائقة إلى التاريخ، عناية جعلت من التاريخ عنصراً بارزاً في وصل إلينا من كلامه في مختلف الموضوعات الّتي كانت تثير اهتمامه.

وعناية الإمام بالتاريخ ليست عناية القاصّ والباحث عن القصص. كما أنها ليست عناية السياسي الباحث عن الحيل السياسيّة وأساليب التمويه الّتي يعالج بها تذمّر الشعب. وإنّما هي عناية رجل الرسالة والعقيدة، والقائد الحضاري والمفكر المستقبلي.

إنّ القاصّ يبحث ليجد في تاريخ الماضين وآثارهم مادّة للتّسلية والإثارة. والسياسي يبحث ليجد في التاريخ أساليب يستعين بها في عمله السياسي اليومي في مواجهة المآزق، أو يستعين بها في وضع الخطط الآنية المحدودة[1].

والمؤرّخ يقدم لهذا وذاك المادّة التاريخيّة الّتي يجدان فيها حاجتهما.

أمّا الرائد الحضاري، رجل الرسالة والعقيدة ورجل الدولة فهو يبحث ليجد في

١ . قال المسعودي في تقريره عن النشاط اليومي لمعاوية بن أبي سفيان «...و يستمرّ إلى ثلث اللّيل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها، وسير ملوك الأمم وحروبها ومكايدها. وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة... ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكايد. فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتّبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمرّ بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السّياسات...» «مروج الذهب» (بتحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد) ـ مطبعة السّعادة ـ الطّبعة الثّانية (١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م) الجزء الثّالث ـ ص [illegible]

التاريخ جذور المشكل الإنساني، و يتقصّى جهود الإنسانيّة الدائبة في سبيل حلّ هذا المشكل بنحو يعزّز قدرة الإنسان على التكامل الروحي ـ المادّي، كما يعزّز، قدرته على تأمين قدر ما من السعادة مع الحفاظ على الطهارة الإنسانية.

وقد كان الإمامُ عليٌّ يتعامل مع التاريخ بهذه الروح ومن خلال هذه النظرة، ومن ثم فلم يتوقّف عند جزئيّات الوقائع إلّا بمقدار ماتكون شواهداً ورموزاً، وإنّما تناول المسألة التاريخيّة بنظرة كلّيّة شاملة، ومن هنا فقلّما نرى الإمام في خطبه وكتبه يتحدّث عن وقائع وحوادث جزئيّة، و إنّما يغلب على تناوله للمسألة التاريخيّة طابع الشمول والعموميّة.

والإمام ليس مؤرخاً، ولذا فليس من المتوقع أن نجد عنده نظرة المؤرخ وأسلوب في سرد الوقائع وتحليلها والحكم عليها، وإنّما هو رجل دولة حاكم، ورجل عقيدة ورسالة سها كل حياته، فهو يتعامل مع التاريخ باعتباره حركة تكوّن شخصية الإنسان الحاضرة والمستقبلة، ولذا فهي تشغل حيّزاً هاماً وعلى درجة كبيرة من الخطورة في عمليّة التربية والتحرك السياسي، وهذا مايجعل رجل رسالة وحاكماً كالإمام علي عليه السلام حريصاً على أن يدخل في وعي أمّته الّتي يحمل مسؤولية قيادتها ومصيرها نظرة الى التاريخ سليمة تجعله قوة بانية لامخرّبة ولامحرّفة.

*

ونحن نعرف عناية الإمام عليّ (ع) الفائقة بالتاريخ واهتمامه البالغ بشأنه من نص ورد في وصيته الّتي وجهها إلى ابنه الإمام الحسن عليه السّلام كتبها إليه بحاضرين[1] عند انصرافه من صفّين، قال فيه:

١ قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ٥٢/١٦ ـ أمّا قوله «كتبها إليه بحاضرين» فالّذي كنّا نقرؤه قديماً، «كتبها إليه بالحاضرَين،» على صيغة التّثنية، يعني حاضر حلب وحاضر قنسرين، وهي الأرباض والضواحي المحيطة بهذه البلاد، ثم رأيناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لام، ولم يفسّروه، ومنهم من يذكره بصيغة الجمع لابصيغة التّثنية، ومنهم من يقول: حناصرين يظنونه تثنية خناصرة أو جمعها. وقدطلبتُ هذه الكلمة في الكتب المصنفة سيّما في البلاد والأرضين فلم أجدها، لعلّي أظفر بها فيما بعد فألحقها في هذا الموضع.
وقال الشيخ محمد عبده في شرحه: حاضرين: اسم بلدة بنواحي صفّين.

«أيْ بُنَيَّ إنِّي وَإنْ لَمْ أكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّىٰ عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَىٰ إلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ، قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أوَّلِهِمْ إلَىٰ آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ».

وكان قبل ذلك قد وجّه الإمام الحسن(ع) في هذه الوصية إلى تعرّف التاريخ الماضي للعبرة والموعظة، قال:

«أحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوعِظَةِ ... وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أخْبَارَ الْماضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا، وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا. فَإنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ».

وهذا النص يحملنا على الإعتقاد بأنّ الإمام عليه السّلام تحدّث كثيراً عن المسألة التاريخية في توجيهاته السياسيّة وتربيته الفكرية لمجتمعه، ولرجال إدارته، ولخواصّ أصحابه.

ولكنّ النّصوص السياسيّة والفكريّة الّتي اشتمل عليها نهج البلاغة مِمّا يدخل فيه العنصر التاريخي قليلةٌ جدّاً، وإنْ كانت النصوص الوعظيّة الّتي بنيت على الملاحظة التاريخية كثيرة نسبياً.

ولانستطيع أن نفسّر نقص النصوص السياسيّة والفكريّة ـ التاريخيّة إلّابضياع هذه النصوص لنسيان الرّواة أو لإهمال الشّريف الرضي لما وصل إليه منها، لأنّه جعل منهجه في تأليف كتاب نهج البلاغة: «اختيار محاسن الخطب، ثم محاسن الكتب، ثم محاسن الحِكم والأدب»[1]. وقدأدّى هذا المنهج بطبيعة الحال إلى إهمال الكثير من النّصوص السياسيّة والفكريّة لأنّه لم يكن في الذّروة من الفصاحة والبلاغة.

ومن المؤكّد أنّ الكثير من كلام أميرالمؤمنين في هذا الباب وغيره لم يصل إلى الشّريف الرضي كما اعترف هو بذلك في قوله:

«... ولاأدّعي ـ مع ذلك ـ أنّي أحيط بأقطار جميع كلامه عليه السّلام حتّى لايشذّ عنّي منه شاذّ، ولايندّ نادّ، بل لاأبعد أن يكون القاصر عنّي فوق الواقع إليّ،

١. من مقدمة الشريف الرضي نهج البلاغة.

والحاصل في ربقتي دون الخارج من يدي»[١].

*

وعلى أيّة حال فإنّ سُؤالاً هاماً يواجهنا هنا، وهو:

مِنْ أين آستقى الإمام معرفته التاريخيّة؟

إنّه يقول عن نفسه: «... نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ...».

فما الوسيلة الّتي توصّل بِها إلى معرفة أعمالهم لينظر فيها هو كيف تسنّى له أن آطّلع على أخبارهم ليفكّر فيها؟

نقدّر أنّ الإمام عليه السّلام قداً عتمد في معرفته التاريخية على عدّة مصادر:

١ ـ القرآن الكريم:

يأتي القرآن الكريم في مقدّمة هذه المصادر الّتي آستقى منها الإمام معرفته التاريخيّة. وقدآشتمل القرآن على نصوص تاريخيّة كثيرة منبثة في تضاعيف السّور تضمنت أخبار الأمم القديمة وارتفاع شأنها، وآنحطاطها، وآندثار كثير منها، وذلك من خلال عرض القرآن الكريم لحركة النّبوات في تاريخ البشرية، وحكايته لكيفية آستجابات الناس في كلّ أمة وجيل لرسالات الله تعالى الّتي بشّر بها الأنبياء وسلام الله عليه أجمعين..

وقد كان أميرُالمؤمنين عليٌّ عليه السّلام أفضل الناس ـ بعد رسول الله(ص)ـ معرفة بالقرآن من حيث الظاهر والباطن، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والأهداف والمقاصد، والأبعاد الحاضرة والمستقبلة، وغير ذلك من شؤون القرآن. كانت معرفته بالقرآن شاملة مستوعبة لكلّ مايتعلق بالقرآن من قريب أو بعيد. والتأثير القرآني شديد الوضوح في تفكير الإمام التاريخي من حيث المنهج ومن حيث المضمون، كما هو شديد الوضوح في كلّ جوانب تفكيره الأخرى.

وقد حدّث الإمام عن نفسه في هذا الشأن كاشفاً عن أنّه كان يلحّ في مسائله

١: من مقدّمة الشّريف الرّضي لنهج البلاغة.

لرسول الله(ص) في شأن القرآن من جميع وجوهه. قال: «وَٱللهِ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ إِلّا وَقَدْ عَلِمْتُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَأَيْنَ أُنْزِلَتْ. أنَّ رَبّي وَهَبَ لِي قَلْباً عَقُولاً وَلِسَاناً سَؤُولاً»[١].

و شهاداتُ معاصريه له في هذا الشأن كثيرة جداً. منها ما رُوي عن عبدالله بن مسعود، قال: «إنّ القرآنَ أُنْزِل على سبعةِ أحرُفٍ، مَا منها حرفُ إلّا له ظهرٌ وبطنٌ، وإنّ عليَّ بنَ أبي طالبِ عليه السّلام عنده علم الظاهر والباطن».[٢]

٢ ـ التعليم الخاص:

التعليم الخاص الّذي آثر به رسول اللّه(ص) عليّاً مصدر آخر من مصادر معرفته التاريخيّة وغيرها.

فقد استفاضت الروايات الّتي نقلها المحدثون، و كتّاب السيرة، والمؤرخون من المسلمين على اختلاف مذاهبهم و أهوائهم ـ استفاضت هذه الروايات ـ بل تواترت إجمالاً ـ بأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قد خص أميرَالمؤمنين عليّاً بجانبٍ من العلم لم يرَغيره من أهل بيته و أصحابه أهلاً له.

فمن ذلك ما قاله عبدالله بن عباس: «وَاللّهِ لَقدْ أُعطِيَ عَلَيُّ بن أَبِي طَالِبٍ(ع) تِسْعَةَ أعْشَارِ العلمِ، وَآيمُ اللّهِ لَقدْ شَارَكَكُمْ في ا لعُشرِ العَاشِرِ».[٣]

و ما رُوي عن رسول اللّه(ص): «عَلِيٌّ عَيبَةُ عِلْمِي».[٤]

وما رواه أنس بن مالك، قَالَ: «قِيلَ يَا رَسُولَ ٱللهِ عَمَّنْ نَكْتُبُ ٱلْعِلْمَ؟ قالَ: عَنْ عَلِيّ وَسَلْمَانَ».[٥]

و قال الإمام عليه السّلام: «عَلَّمَني رَسُولُ ٱللّهِ(ص) ألْفَ بَابٍ مِنَ ٱلعِلمِ كُلُّ بَابٍ يَفتَحُ

١ . ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢ قسم٢ ص١٠١، والمتقي الهندي: كنز العمال ٣٩٦/٦ ـ وقال: أخرجه ابن سعد وابن عساكر، وقالوا (لِسَاناً طَلِقاً سَؤولاً) وأبو نعيم: حُلية الأولياء ٦٧/١.

٢ . أبو نعيم: حلية الأولياء: ٦٥/١.

٣ . أسد الغابة ٢٢/٤ والإستيعاب: ٤٦٢/٢.

٤ . كنز العمال ١٥٣/٦ وفتح القدير: ٤٥٦/٤.

٥ . تاريخ بغداد: ١٥٨/٤.

ألف بابٍ».[١]

وقد صرّح فيما وصل إلينا من نصوصٍ كلامه في نهج البلاغة بذلك في عدّة مناسبات، فقال:

١ - «... بَلِ ٱندَمَجْتُ[٢] عَلَىٰ مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْبُحْتُ بِهِ لَٱضْطَرَبْتُمُ ٱضْطِرَابَ ٱلْأَرْشِيَةِ في الطَّوِيِّ[٣] ٱلْبَعِيدَةِ»[٤]

٢ - «وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهٰذَا ٱلْمَقَامِ وَهٰذَا ٱلْيَوْمِ...».[٥]

٣ ــ «... لَوْتَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مِمَّا طُوِيَ[٦] عَنْكُمْ غَيْبُهُ إِذاً لَخَرَجْتُمْ إِلَى ٱلصُّعُدَاتِ[٧] تَبْكُونَ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ»[٨]

٤ - «يَا أَخَا كَلْبٍ، لَيْسَ هُوَبِعِلْمِ غَيْبٍ، وَإِنَّمَا هُوَتَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ».[٩]

وإذا كانت بعضُ هذه النصوص ظاهرة في العلم بالغيبات (علم المستقبل)، فإنَّ غيرها مطلق يشمل الماضي، وإذا كان الإمام قد اطّلع من رسول الله(ص) على بعض المعلومات المتعلقة بالمستقبل فمن المرجّح أنه قد اطلع منه على علم الماضي.

٣ ــ السّنة النبويّة:

إشتملت السّنّة النبويّة على الكثير المتنوع من المادة التاريخيّة.

منه ما ورد في تفسير وشرح القرآن الكريم، ومن ما اشتمل إجمالاً أو تفصيلاً على حكاية أحداث تاريخيّة لم ترد في القرآن إشارة إليها.

١ . كنز العمال: ٣٩٢/٦.

٢ . اندمجتُ: انطويتُ، كناية عن معرفته بأمور خاصة جداً.

٣ . الأرْشية: جمع رشاء، الحبل. والطويّ جمع طوية وهي البئر.

٤ . نهج البلاغة ـ الخطبة رقم: ٥.

٥ . نهج البلاغة ـ الخطبة رقم: ١٦.

٦ . طُوي: حُجب عِلمُه عَنكُمْ.

٧ . الصُّعُدات: جمع صَعيد. يُرِيدُ: لَذهبتْ عنكم الدّعةُ والإستقرارُ في منازلكم وخرجتُم مِنها قلقينَ على مَصيرِكم.

٨ . نهج البلاغة ـ رقم الخطبة: ١١٦.

٩ . نهج البلاغة ـ رقم الخطبة: ١٢٨.

و قد كان أمير المؤمنين علي(ع) أعلم أهل البيت(ع) والصحابة قاطبة بما قاله رسول اللّه(ص) أو فعله و أقرّه، فقد عاش علي(ع) في بيت رسول اللّه(ص) منذ طفولته، و بعث الرسول(ص) و علي عنده، و كان أوّل من آمن به، ولم يفارقه منذ بعثته(ص) إلى حين وفاته إلّا في تنفيذ المهمات الّتي كان يكلّفه بها خارج المدينة وهي لم تستغرق الكثير من وقته، ومن هنا، من تفرغه الكامل لتلقي التوجيه النبوي، ووعيه الكامل لما كان يتلقّاه كان الإمام أعلم الناس بسنّة رسول اللّه و كتاب اللّه.

٤ ـ القراءة:

فقدّر أنّ الإمام عليّاً قد قرأ مدونات تاريخية باللّغة العربيّة أو بغيرها من اللغات الّتي كانت متداولة في المنطقة الّتي شهدت نشاطه، و خاصة بعد أن انتقل من الحجاز إلى العراق واضطرّته مشكلات الحكم والفتن إلى التنقل بين العراق و سوريا، و إن كنّا لانعلم ما إذا كانت هذه المدوّنات قددفعت إليه صدفة أو أنّه بحث عن كتب كهذه و قرأها أو قرئت له بلغاتها الأصلية مع ترجيحنا أنّه عليه السّلام كان يعرف اللّغة الأدبيّة الّتي كانت سائدة في المنطقة العراقيّة السّوريّة.

٥ ـ الآثار القديمة:

و ربما كانت الآثار العمرانية للأمم القديمة من جملة مصادر المعرفة التاريخيّة عند الإمام عليه السّلام، و يعزّز هذا الظن بدرجة كبيرة قوله في النص الآنف الذكر: «وَ سِرْتُ فِي آثَارِهِمْ» ممّا يحمل دلالة واضحة على أنّ مراده الآثار العمرانية.

و قدخبر الإمام في حياته أربعة من أقطار الإسلام، هي: شبه الجزيرة العربية، واليمن، والعراق، وسوريا.

ونقدّر أنه قد زار الآثار الباقية من الحضارات القديمة في هذه البلاد، وإذا كان هذا قد حدث ـ و نحن نرجّح حدوثه ـ فمن المؤكّد أنّ الإمام لم يزر هذه الآثار زيارة سائح ينشد التسلية إلى جانب الثقافة، أو زيارة عالم آثار يتوقف عند الجزئيات، وإنّما زارها زيارة معتبر مفكر يكمل معرفته النظرية بمصائر الشعوب والجماعات بمشاهدة بقايا وأطلال مدنها و مؤسّساتها الّتي حلّ بها الخراب بعد أنِ انحطّ بناتها و فقدوا

قدرتهم على الإستمرار فاندثروا.

هذه هي، فيما نقدّر، المصادر المعلومة والمظنونة والمحتملة الّتي استقى منها الإمام علي(ع) معرفته التاريخيّة.

التاريخ عند الامام "ع"

التاريخ عند الإمام(ع)

في المجال الوعظي، وفي المجال السّياسي الفكري

إستخدم الإمام عنصر التّاريخ في مجالين،أحدهما مجال السّياسة والفكر، وثانيهما مجال الوعظ.

وهنا يواجهنا سؤال هام:

لماذا يدخل الإمام عنصر التاريخ في أحاديثة الوعظية، أو في أحاديثه وخطبه و كتبه السياسيّة والفكريّة، أوفي غير ذلك من مجالات توجيهِهِ كرجل رسالة وعقيدة و حاكم دولة؟ لماذا التاريخ؟

و نقول في الجواب على هذه المسألة ا لّتي تثير الشك حول جدوى التاريخ باعتباره مادة أساسية في البنية الثقافية للإنسان والمجتمع أو باعتباره عاملاً مساعداً في الأعمال الفكريّة الّتي تتناسب مع مادّة التاريخ... نقول في الجواب:

إنّ الحياة الإنسانية لدى جميع الناس في جميع الأزمان والأوطان واحدة في أصولها العميقة، ومكوّناتها الأساسية، و حوافزها، فهي نهر متدفق من التجارب والآمال والإنجازات وخيبات الأمل، و هذا ما يجعل الأسئلة الّتي تثيرها مشكلات الحاضر حافزاً نحو آسترجاع الماضي باعتباره عملاً مكمّلاً و ضرورياً في البحث الصحيح الموضوعي عن أجوبة أكثر سداداً و حكمة تؤدّي إلى حلول صائبة أو مقاربة للصواب للمشكلات الّتي تواجه الإنسان في حاضره، أجوبة معجونة بالتّجارب الإنسانيّة

السّابقة.

وقديثير هذا التحليل حفيظة فريق من أهل الفكر المشتغلين بالسياسة، أو فريق من أهل السياسة يدعون لأنفسهم صلة بالفكر يرون ـ أولئك وهؤلاء ـ أنّ النزعة التاريخيّة، أو العقلية التاريخية (السلفية) تعيق نموّنا في الحاضر وتقدّمنا في المستقبل، لأنّها تشدّنا دائماً إلى الماضي، إلى قيمه وتصوّراته. إنّ التاريخ عند هؤلاء مرض يشوّه الحاضر و يقضي على المستبقل.

ولكن هذا الرأي بعيد عن الصّواب.

بطبيعة الحال نحن ـ في فهمنا لدور التاريخ كعامل مكوّن في البنية الثقافية للإنسان والمجتمع ومساعد في عمليات الفكر ـ لاندّعي أنّ من الحكمة أنْ يجعل الإنسان نفسه سجين التاريخ، لسنا في فهمنا لدور التاريخ مع غلاة النزعة التاريخية الّذين يرون أنّ التاريخ هو الحقيقة كلّها، لامرحلة من مراحل نمو الحقيقة التجريبية فقط. فهذا الموقف الفكري يتّسم بالغلو والشطط.

ولكن ليس من الحكمة أيضاً أنْ يواجه الإنسان حاضره و يتجه نحو مستقبله وهو بلا جذور، إنّه حين لايستشعر تاريخه الخاص بأمته أو تاريخ الإنسانيّة يفقد القدرة على الرؤية الصحيحة، و يفقد القدرة على تقويم المواقف الّتي تواجهه في خاطره تقويماً سليماً سواء في ذلك مايتعلق منها بالحاضر نفسه أو مايتعلق منها بالمستقبل، إنّه في هذه الحالة يتحرّك في الفراغ.

لهذا وذاك نرى أنَّ الإستخدام المتّزن للتاريخ، الإستخدام المتّسم بالحكمة والإعتدال يجعلنا أقدر على التحرّك في حاضرنا وأكثر شعوراًبخطورة قراراتنا فيما يتعلق بشؤون المستقبل، لأن التارخ في هذه الحالة يعمّق حِسَّنا الأخلاقي حين اتّخاذنا قرارات مستقبلية تمسّ نتائجها حياة أجيال، نصنع بهذه القرارات ـ المستقبليّة بالنسبة إلينا ـ حاضرها هي الّذي هو مستقبلنا المظنون الّذي قدلانشاركها فيه لاننا نكون حينئذٍ قدغادرنا الحياة، ومن ثمّ فلا نواجه نتائج قراراتنا الماضية.

بدون آسترجاع الماضي وما يمنحنا ذلك من عمق في الرّؤية، وغنى في التجربة

الإنسانيّة ووعي لاستمرار الحضارة الإنسانيّة فينا وفيمن يأتي بعدنا من الأجيال ـ بدون ذلك لن يكون في وسعنا تفادي أخطاء وقعت في الماضي كما لن يكون من حقنا التمتع بنتائج تجارب ناجحة أنجزت فيه، كما أننا في هذه الحالة قد نتّخذ بالنسبة إلى المستبقل الّذي لانملكه وحدنا قرارات متهوّرة شديدة الخطورة بالنسبة إلينا وإلى وضعية ومصير الأجيال الآتية.

إنّ الغلوّ في آسترجاع التّاريخ، فكراً وعملاً، قديجعل من التّاريخ مقبرة للحاضر والمستقبل، ويجعل الإنسان غريباً في العالم الّذي يعاصره ويحيط به و يتدفّق بالحياة نحو المستبقل من حوله.

كما إنّ الغلوّ في رفض التاريخ، والإنقطاع عنه والإنصراف عن تجاربه ومآثره قديجعل الإنسان «ريشة في مهبّ الريح» عاجزاً عن التماسك في الحاضر، و يفقده القدرة على ممارسة دوره الأصيل في بناء الحضارة ويجعل منه مجرّد ممثّل لأدوار يضعها الآخرون يعكس هو بتمثيله إراداتهم وأفكارهم وموجاتهم.

إذنْ لابدّ للإنسان من أن يتعامل مع التاريخ بآعتدال يجعله دليلاً في حركته وتربة ينمو فيها الحاضر الأصيل والمستقبل الأكثر يمناً وأصالة.

واستجابة لهذه الضّرورة تعامل أميرُالمؤمنين عليُّ بن أبي طالب(ع) مع التّاريخ في مجال الوعظ وفي مجال السّياسة والفكر.

وأكبر همنا في هذه الدراسة هو التّعرف على النظرة التاريخية للإمام في مجالي السّياسة والفكر، مكتفين بالنسبة إلى المجال الوعظي ذي المحتوى التاريخي بتقديم نموذج واحد من النصوص الوعظية في كتاب نهج البلاغة، وتحليله مع تسليط الأضواء على الجانب التاريخي فيه.

التاريخ في مجال الوعظ

التّاريخ في مجال الوعظ

حلّلنا في فصل (الوعظ) من كتابنا «دراسات في نهج البلاغة»[1]، مواعظ أميرالمؤمنين علي(ع) في نهج البلاغة على ضوء الظروف السياسية والإجتماعية والنفسية الّتي كانت تسيطر وتوجه مجتمع العراق بوجه خاص في أيام خلافة الإمام عليه السّلام.

وكشفنا النّقاب هناك عن أنّ الإمام لم يكن في مواعظه داعياً إلى مذهب زهدي يقف موقفاً سلبياً من الحياة الدنيا والعمل لها والإستمتاع بها، وإنّما كان، في مواعظه وتوجيهه الفكري بوجه عام، يدعو إلى مواجهة الحياة بواقعية وصدق، محذّراً من اللّهاث المجنون وراء الآمال الخادعة والأحلام الكاذبة الّتي ليس لها في واقع الحياة سند ولاأساس.

وكشفنا النّقاب أيضاً عن أن النّظرة الشّائعة إلى مواعظ الإمام في نهج البلاغة قدتأثرت بالتّيار الزهدي السّلبي الّذي طبع المجتمع الإسلامي بطابعه في عصور الإنحطاط، وهودخيل على الفكر الإسلامي وعلى أخلاقيات الإسلام وتشريعه، ولذا فإنّ هذه النظرة خاطئة لا تمثل مقاصد الإمام وأهدافه من المواعظ الّتي كان يوجّهها إلى مجتمعه.

١ . محمّد مهدي شمس الدّين: دراسات في نهج البلاغة (الطّبعة الثّالثة) بيروت ص. ٢٤٧.

والمواعظ الّتي آستخدم الإمام فيها عنصر التّاريخ كغيرها من مواعظه في أنه لايدعو فيها إلى مذهب زهدي سلبي من الحياة الدنيا، وإنّما يعالج بها حالة خاصة في مجتمعه الّذي بدا غافلاً عن مصيره التعس، مهملاً لواجباته في جهاد النفس وجهاد العدو، متلهفاً على المتع والثراء اللّذين لايستحقهما الّا مجتمع مستقر أحكم وضعه الأمني والسّياسي والإجتماعي، وقطع دابر الطامعين فيه المتآمرين عليه، وهذا مالم يكنه مجتمع العراق في عهد الإمام عليه السلام، بل كان مجتمعاً قلقاً يعاني من آضطراب أمنه الخارجي وتدهور أمنه الداخلي، كما يعاني من التمزق السياسي، وكان ـ نتيجة لذلك ـ يؤجّج مطامع الحكم الأموي في الشام و يدفع به نحو التآمر عليه.

ونقدّم فيما يلي نموذجاً من النّصوص الوعظية الّتي يكون التاريخ عنصراً بارزاً وأساسيّاً فيها.

قال عليه السّلام:

«أمّا بَعْدُ، فَإنّي أُحَذِّرُكُمُ الدُّنْيا، فَإنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، وَتَحَبَّبَتْ بِالْعَاجِلَةِ، وَرَاقَتْ بِالْقَلِيلِ، وَتَحَلَّتْ بِالْآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالغُرُور، لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا[١]، وَلاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا، غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ[٢] زَائِلَةٌ نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ[٣]، أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ[٤]، لاَ تَعْدُو ـ إذَا تَنَاهَتْ إلَىٰ أُمْنِيَّةِ أهْلِ الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالرِّضَاءِ بِهَا أنْ تَكُونَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ سُبْحَانَهُ «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً[٥] تَذْرُوهُ الرِّيَاح وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ مُقْتَدِراً»[٦]. لَمْ يَكُنِ امْرُؤٌ مِنْهَا فِي حَبْرَةٍ إلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةً، وَلَمْ يَلْقَ فِي سَرَّائِهَا بَطْناً إلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ ضَرَّائِهَا ظَهْراً[٧]، وَلَمْ تَطُلَّهُ فِيهَا دِيمَةُ[٨] رَخَاءٍ إلَّا هَتَنَتْ[٩] عَلَيْهِ مُزْنَةُ بَلاَءٍ. وَحَرِيٌّ إذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةً

١ . الحَبرة: ـ بالفتح ـ النّعمة.

٢ . حائلة: متغيرة.

٣ . نافدة: فانية.

٤ . غوّالة: مهلكة.

٥ . المشيم: النبت اليابس

٦ . سورة الكهف (رقم ١٨ مكيّة) الآية: ٤٥.

٧ . البطن كناية عن إقبال الدنيا، والظّهر كناية عن الإدبار

٨ . الطلّ: المطر الخفيف. والدّيمة: مطر يدوم في سكون لايرافقه رعد و برق.

٩ . هتنت: إنصبّت.

أَنْ تُمْسِيَ لَهُ مُتَنَكِّرَةً، وَإِنْ جَانِبٌ مِنهَا آعْذَوْذَبَ وَآحْلَوْلَى أَمَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ فَأَوْبَى[١] لاَيَنَالُ آمْرُوءٌ مِنْ غَضَارَتِهَا رَغَباً[٢] إِلَّا أَرْهَقَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَباً، وَلاَ يُمْسِي مِنْهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ إِلَّا أَصْبَحَ عَلَى قَوَادِمِ خَوْفٍ[٣]. غَرَّارَةٌ مَافِيهَا، فَانِيَةٌ، فَانٍ مَنْ عَلَيْهَا، لاَخَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَزْوَادِها إِلَّا آلتَّقْوَى.

«مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا آسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ، وَمَنِ آسْتَكْثَرَ مِنْهَا آسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ[٤]، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ».

«كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْفَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْصَرَعَتْهُ، وَذِي أُبَّهَةٍ قَدْجَعَلَتْهُ حَقِيراً[٥]، وَذِي نَخْوَةٍ قَدْرَدَّتْهُ ذَلِيلاً[٦].

«سُلْطَانُهَا دُوَّلٌ[٧] وَعَيْشُهَا رَنِقٌ[٨]، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ[٩]، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ[١٠]، وَغِذَاؤُهَا سِمَامٌ[١١] وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ[١٢]!

«حَيُّهَا بِعَرَضِ مَوْتٍ، وَصَحِيحُهَا بِعَرَضِ سُقْمٍ، وَمَوْفُورُهَا مَنْكُوبٌ[١٣] وَجَارُهَا مَحْرُوبٌ[١٤].

«أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ أَعْمَاراً وَأَبْقَى آثَاراً، وَأَبْعَدَ آمَالاً، وَأَعَدَّ عَدِيداً. وَأَكْثَفَ جُنُوداً؟ تَعَبَّدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعَبُّدٍ، وَآثَرُوهَا أَيَّ إِيثَارٍ، ثُمَّ ظَعَنُوا عَنْهَا بِغَيْرِ زَادٍ مُبَلِّغٍ، وَلاَظَهْرٍ قَاطِعٍ[١٥]!

١ . أوبى: صار كثير الوباء.

٢ . الغضارة: النّعمة، والرّغَب: الرغبة، والمرغوب فيه.

٣ . القوادِم: جمع قادِمة، ريش في مقدم جناح الطائر.

٤ . يُوبِقهُ: يُهلكهُ.

٥ . أبّهة: عظمة.

٦ . النّخوة: الإفتخار.

٧ . دُوَّل ـ بضم الدّال ـ المنحول.

٨ . الرّنِق: الكدر.

٩ . أجاج: شديد الملوحة.

١٠ . الصّبر: عصارة الشّجر المرّ.

١١ . سمام: جمع سم، وهو مثلث السين.

١٢ . الرّمام: جمع رمّة ـ بالضم ، القطعة البالية من الحبل، ومنه (ذُو الرّمّة).

١٣ . موفورها..: من كان عنده وفر (كثرة) من الدنيا معرض للمصائب والنّكبات.

١٤ . محروب: المحروب من سلب مالُه.

١٥ . ظهر قاطع: وسيلة تقطع براكبها الطريق بأمان وتبلغه غايته.

«فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ ٱلدُّنْيَا سَخَتْ لَهُمْ نَفْساً بِفِدْيَةٍ[١] أَوْ أَعَانَتْهُمْ بِمَعُونَةٍ، أَوْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِمْ صُحْبَةً..؟ بَلْ أَرْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَادِحِ[٢] وَأَوْهَقَتْهُمْ بِالْقَوَارِعِ[٣] وَضَعْضَعَتْهُمْ بِالنَّوائِبِ[٤]، وَعَفَّرَتْهُمْ لِلْمَنَاخِرِ[٥]، وَوَطِئَتْهُمْ بِالْمَنَاسِمِ[٦]، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ.

«فَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنَكُّرَهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا[٧] وَآثَرَهَا وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا[٨] حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ ٱلأَبَدِ... أَفَهٰذِهِ تُؤْثِرُونَ؟ أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ؟ أَمْ عَلَيْهَا تَحْرِصُونَ؟ فَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهِمْهَا، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا.

«فَاعْلَمُوا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ - بِأَنَّكُمْ تَارِكُوهَا وَظَاعِنُونَ عَنْهَا، وَٱتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً..)[٩] حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلاَ يُدْعَوْنَ رُكْبَاناً[١٠]! وَأُنْزِلُوا ٱلأَجْدَاثَ فَلاَ يُدْعَوْنَ ضِيفَاناً[١١]، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ[١٢] أَجْنَانٌ[١٣] وَمِنَ التُّرَابِ أَكْفَانٌ..

ٱسْتُبْدِلُوا بِظَهْرِ ٱلأَرْضِ بَطْناً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً...»[١٤].

*

ركّز الإمام عليه السّلام في هذه الخطبة الوعظية - كما هو شأنه في معظم مواعظه - على عاملين ثابتين في طبيعة الحياة على هذه الأرض:

١. لم تدفع عنهم الدّنيا بلاء الموت.

٢. أرهقتهم: أتعبتهم. والقوادح: جمع قادح، مرض يصيب الأسنان والشجر. أراد به هنا المصائب والنكبات.

٣. الوهق: حبل تصطاد به الفريسة، والقوارع: المحن. أراد أنهم أسرى مشاكلهم المادية و الإجتماعية.

٤. ضعضعتهم: جعلتهم قلقين، وحرمتهم الإستقرار وطنب العيش.

٥. عفرتهم: العفر التراب، مرغت آنافهم بالتراب، كناية عن إذلالهم.

٦. المنسم: خف البعير، كناية عن إذلالهم.

٧. دان: خضع.

٨. أخلد: إطمأنّ.

٩. سورة فُصّلت (رقم ٤١ مكّيّة) الآية: ١٥.

١٠. لايُدعَوْنَ رُكْباناً لأنّهم مقهُورُونَ وَلم يُحملوا مختارين. ولايُدعَوْن ضيفاناً لأنّهم يُقيمون في قبورهم.

١١. الاجداث: القبور.

١٢. الصفيح: الوجه من كل شيء له مساحة، والمراد هنا الارض.

١٣. أجنان: جمع جنن - بالفتح - القبر.

١٤. نهج البلاغة - رقم الخطبة: ١١١.

١ ـ عامل التغيّر والتقلّب في الحياة.

الحياة بما هي حركة، وبما هي تفاعل، وبما هي طاقات وقوى تتفاعل فتتكامل أو تتقاتل في داخل كل شيء ومن حول كل شيء في الكون المادي كلّه ـ الحياة بماهي كل هذا متقلّبة متغيّرة متحوّلة بآستمرار ـ هي في حالة صيرورة دائمة لا تستقر على حال ولا تثبت على وتيرة واحدة.

٢ ـ عامل الزّمن:

أثر الزمن في الأشياء والأعمار ظاهر لكلّ ذي بصيرة، فالزّمن يفتت الحياة بآستمرار، فما أن يبدأ وجود الحياة في شيء، بل ماأن يبدأ وجود شيء حيّاً كان أو غير حيّ حتّى يبدأ هذا الوجود بالذّوبان والتفتّت والضّياع. إنّ الحياة تولد في الزّمن. ولكنّ الزّمن يغتالها بآستمرار.

وهذان العاملان ـ التغيّر والزمن ـ لايختصان بعالم الإنسان وحده، إنّهما يعملان في كلّ شيء و يحُولانِ دون ثبات كل شيء: الجماد، والنّبات، والحيوان، والإنسان. و يتميّز الإنسان ـ بالنسبة إليها ـ عن العوالم الأخرى بأنّه ـ لما أوتي من عقل وإدراك ـ يستطيع أنْ يعي الوجه المأساوي لعمل هذين العاملين، وأثرهما في حياته وفي الوجود من حوله.

ووعيُ الإنسان لهذين العاملين وأثرهما في الحياة والأشياء يجعله قادِراً على مواجهة الحياة ومباهجها الموقتة، ووعودها السّخيّة، وآمالها اللاّمعة. بعقل صافٍ خالٍ من الأوهام، و يعزّز فيه النّزعة الواقعية في أخذ الحياة والتعامل مع الدّنيا ـ هذه النّزعةً الّتي من شأنها أن تجعل الآمال أقل بريقاً وجذباً وآستهواءً، والإنتصارات أقل مدعاة للغرور والصلف، والمآسي أقل إيلاماً. و يعزّز مناعة الإنسان أمام تكالب صروف الدهر، وخيبات الأمل وضياع الجهود، ونوازل المرض والموت... فلاينهار بسبب ذلك ولاييأس ولايستسلم، ولايستكين ولايهرب من العمل، وإنّما ينبعث للعمل والكفاح في سبيل نفسه وأهله ومجتمعه وعالمه من جديد لأنّه لم يفاجأ بالخيبة والإخفاق، بل كان مهيء النفس لتقبلّها ومن ثم فقدكان مهيء النفس لتجاوزهما، وآستئناف

العمل مرة أخرى بأملٍ واقعي جديد.

بالإجمال: إنّ وعيَ الإنسان لهذين العاملين، وإدراكهُ لأثرهما العميق والمصيري في حياته وفي الوجود من حوله يجعله قادِراً على مواجهة الحياة بكلّ وجوهها وما فيها من حسن وقبح، وألم ولذّة، وواقع وخيال، ونجاح وإخفاق... يواجهها بروح واقعية.

وحين يدخل الإمام عليه السّلام في وعظه عنصر التاريخ فيتحدّث عن الماضين وماحلّ بهم من كوارث وآلام وماآنتهت إليه حياتهم على عظمة توهجها من آنطفاء فإنه يقدّم لتحليله النظري الّذي تناول واقع حياة معاصريه الّذين يخاطبهم ـ يقدّم نماذج تطبيقيّة من حياة أقوام آخرين.. إنّه يقدّم لمعاصريه تجربة الآخرين الّتي يعرفونها، و يبعثون حياتهم في ساحاتها، و يرون آثارها الباقية من الماضي في هذه الساحات.

فهذه المدن والمساكن، وهذه الضياع والمزارع، وهذه القلاع والحصون عمرها في عصورسابقة أناس تقلبت بهم صروف الحياة وأفراحها وأحزانها، والآمال الّتي سعدوا بإنجازها وخيبات الأمل، ثم ماتوا وانقطعوا عن كل ماكان يملأ عليهم حياتهم من أحلام وأماني. ومطامح ومطامع، وحب و بغضاء، وصداقات وعداوات...

وكان هؤلاء أطول أعماراً، وأكثرُ قوةً.. «وأعد عديداً»، وقدوجّهوا كل ماأوتوا من قدرة وذكاء ومعرفة لدنياهم، فأعدوا لها وآستعدوا، ولم يشغلهم عنها تفكير بالآخرة أو عمل لها، ولكن كلّ ذلك لم ينفعهم ولم يعد عليهم بطائل، لأنَّ عامل التغيّر والتقلّب من جهة وعامل الزمن من جهة أخرى؛ عملا دائماً ــ كما لايزالان يعملان، وكما سيعملان في المستقبل ــ على تفتيت حياة أولئك الناس، وكانت حياتهم ـ كما هي الحياة الآن، وكما ستبقى الحياة ـ تحمل في جوهرها وفي أعماقها أثناء ولادتها ونموها وآزدهارها بذور تقلصها وذو بولها وأنطفائها في آخر المطاف.

*

هذا نموذج من وعظ الإمام عليّ الّذي يدخل فيه عنصر التاريخ بآعتباره يُضيء الحاضر لأنه يضيف إليه تجربة الماضي ويجعله ـ بذلك أكثر غنى، ويجعل الإنسان أكثر قدرة على مواجهته بروح واقعية و بعقل خالٍ مِنَ الأوهام، فلايهن ولايستسلم تحت وطأة الكارثة، ولايطغى ولايطوّح به الغرور وهو في ذرى النجاح.

التاريخ في مجال

السياسة والفكر

التّاريخ في مجال السّياسة والفكر

تمهيد

إستخدام الإمام التّاريخ في مجال الفكر كما آستخدمه في مجال السّياسة.

كان رجل رسالة هي الإسلام، رسالة آستوعبت الحياة كلّها: تنظيماً وتشريعاً ومناهجَ. وهي رسالة ذات طابع عالمي، ممتدة في الزّمان إلى آخر الزمان، أراد الله تعالى لها أن تكون ديناً للإنسان كلّ إنسان، تقوده نحو التكامل الّذي يحقّق له التّوازن والتّسامي.

وهي رسالة تقوم على العلم والمعرفة، وترفض الجهل لأنه يتيح لأعدائها أن يتسلّلوا في ظلماته إلى قلوب أتباعها المؤمنين بها وعقولهم فيشوهون ويحرفون عقائدها وشرائعها ومناهجها، و يضلّلون بعد ذلك أتباعها المؤمنين بها وذلك حين يلبسون لهم الحق بالباطل والصواب بالخطأ.

ومن هنا كان من أكبر هموم رجل الرسالة الإستعداد الدائم في هذا المجال، لأجل أن يجعل المسلمين على معرفة كاملة بالإسلام، وفي حالة وعي متجدّد ونام لحقيقة الإسلام وجوهره ومناهجه وغاياته ليكون المسلم المستنير بالمعرفة في حصانة من الحيرة والتضليل، على بيّنة من أمره، وليكون الإسلام بمنجاة من التشو يه والتحريف، و يكون كل مسلم مستنير ديدباناً على دينه الّذي هو معنى وجوده وشرف وجوده.

ومن هنا كان عليّ عليه السلام في حركة تعليمية دائمة لمجتمعه وخواصّ أصحابه

الّذين كانوا علماء ينشرون علمهم ووعيهم بين الناس بالحديث والخطابة وحلقات الدرس والتعليم.

وكان الإمام عليه السلام يختار ولاته وعمّاله على البلدان من ذوي المعرفة ومن أهل البصائر[١] الّذين يتمتعون بالمعرفة والوعي والصلابة في العقيدة ليكونوا - الى جانب عملهم الإداري - معلّمين ورجال رسالة، وكان يوجههم نحو هذه المهمة التعليمية والتوجيهية. من ذلك ماكتب به إلى قثم بن العباس عامله على مكة:

«أمّا بَعدُ، فأقِمْ لِلنّاسِ الحَجَّ، وَذَكِّرهُم بِأيامِ اللهِ[٢]، وَاجلِسْ لَهُم العَصرَينِ[٣]، فَأفْتِ المُستَفْتِيَ، وَعَلِّمِ الْجاهِلَ، وَذاكِرِ العالِمَ»[٤].

*

وفي عمله الفكري على صعيد التعليم والتوعية استعان الإمام عليه السلام بعنصر التاريخ ليعطي للفكر حرارة وحياة وحركة، وعمقاً في الزمان وفي الإنسان، وليجعل، بهذا، من القضية الفكرية بضعة من الحياة المعاشة تحمل في ثناياها رائحة المعاناة الإنسانية.

*

١ . «أهل البصائر» تعبير إسلامي يعود إلى صدر الإسلام، يعني به المؤمنون الواعون الّذين يتخذون مواقفهم السّياسيّة وغيرها نتيجة لقناعات مستوحاة من المبدأ الإسلامي، ولا تتصل بالإعتبارات النفعية.
ومن المؤكد أنّ هذا التعبير غدا في وقت مبكر جداً مصطلحاً ثقافياً إسلامياً يعني: الفئة المؤمنة الواعية للإسلام على الوجه الصحيح، والملتزمة بالإسلام في حياتها بشكل دقيق، بحيث أنّها تتخذ مواقف مبدئية من المشاكل الاجتماعية والسّياسيّة الّتي تواجهها في الحياة والمجتمع، فلا تصغي إلى الإعتبارات الشخصية والقبليّة كما أنها لا تقف على الحياد أمام هذه المشكلات، وإنّما تعبّر عن التزامها النظري بالممارسة اليومية للنضال ضد الإنحرافات.
راجع بحثاً مفصلاً عن هذا الموضوع في كتابنا «أنصار الحسين: الرّجال والدلالات» - الطّبعة الأولى - دار الفكر - سنة ١٩٧٥/ فصل «النخبة» ص١٦٥ - ١٧٠.

٢ . «أيام الله» مصطلح ثقافي إسلامي، يغلب استعمالُه للدّلالة على الكوارث الكبرى الّتي أصابت الشعوب والجماعات نتيجة لانحرافها في العقيدة والشريعة والأخلاق. وقديستعمل للدّلالة على الإنتصارات الكبرى التي أحرزها المؤمنون فغيّرت مجرى التاريخ أو مجرى تاريخ جماعة مؤمنة أو شعب مؤمن.

٣ . العصران: هما الغداة والعشي.

٤ . نهج البلاغة - باب الكتب/ الكتاب رقم ٦٧.

وكان الإمام رجل سياسة.

كان سياسياً على مستوى رجل الدولة ورجل العقيدة والرسالة طيلة حياته. ملأ العمل السياسي حياته في عهد النبي(ص) بتكليف منه، وفي عهود الخلفاء الذين تقدّموه لحاجتهم إليه أو لحاجة الناس إليه. وكان ـ بالإضافة إلى ذلك ـ حاكماً ورئيس دولة في السّنين الأخيرة من حياته.

وكان الإمام بهذين الإعتبارين في حاجة دائمة إلى أن يُعطي لأمته ولأعوانه التوجيهات السّياسيّة اللّازمة. وكان في بعض هذه التّوجيهات يستعين بعنصر التاريخ لُيضيء الفكرة السّياسيّة الّتي يقدّمها، وليُعطي توجيهه السياسي صدقاً واقعياً إضافة الى الصدق النظري... صدقاً واقعياً يوفّر للتوجيه السياسي حرارة ووهجاً. إنه بهذا العمل «يؤنسن» التوجيه السياسي، ويجعله بحيث يخالط القلب كما يوجّه العقل.

التاريخ في مجال الفكر

التّاريخ في مجال الفكر

تمهيد

التّفكر هو التّأمّل، والفكر ـ بالكسر ـ اسم منه، وهو يستعمل ـ حسب ماذكره علماء اللّغة ـ للدّلالة على معنيين:

أحدهما: القوّة المودّعة في الدّماغ، الّذي هو مركز، التفكير وإنْ كان علينا أن نعترف بأنّ لوضعية أعضاء أخرى في الجسم من حيث الصحة والمرض دخلاً في عملية التفكير. والفكر ـ بهذا المعنى ـ اسم لآلة التفكير.

ثانيها: أثر التّفكّر، وهو ترتيب أمور في الذهن تتولّد منها معرفة جديدة، أو تؤدّي إلى تعميق وتوسيع معرفة قديمة. والفكر ـ بهذا المعنى ـ اسم لفعل التّفكير أو لعملية التّفكير.

هذا هو المعنى اللّغوي لكلمة تفكّر وفكر مع شرح وتوضيح.

وثمّة معنى ثالث لهذه الكلمة غلب آستعمال اللّفظ فيه في العصور الأخيرة، ولعلّه دخل العربية من الإستعمالات الأوربّيّة، وهو نفس الأفكار والمعلومات الّتي يجعلها الفكر ـ بالمعنى الأوّل ـ موضوعاً لعمله ـ الفكر بالمعنى اللّغوي الثاني ـ، فيقال، مثلاً، الفكر الإسلامي، والفكر المسيحي، والفكر الماركسي، والفكر الدّيني، فالفكر المادي... يراد من ذلك الأفكار والمناهج والمعلومات الّتي يتشكل منها و يتقوّم بها مذهب أو فلسفة أو دين.

والمقصود ببحثنا هنا هو هذا المعنى لكلمة فكر.

*

والفكر في الثّقافة الّتي تقوّم شخصية كلّ أمة على قسمين: فكر حيّ، وفكر ميّت، والأوّل هو مايطلق عليه لفظ (فكر) في عصرنا الحاضر، والثاني هو مايطلق عليه في عصرنا الحاضر مصطلح (تراث).

*

والتّراث في أصل اللّغة: الميراث. وقد وردت كلمة (تراث) في القرآن الكريم مرّة واحدة في قوله تعالى في خطاب المشركين:

«...وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً...»[1]

وقد آستعملت كلمة «ميراث» في اللّغة العربية في المادّيات والمعنويّات. أمّا آستعمالها في المادّيات فأمثلته كثيرة ظاهرة. وأمّا آستعمالها في المعنويّات فقد ورد في القرآن الكريم في عدة مواضع، هي الآيات التالية:

١ - «..فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذا ٱلأدنَىٰ وَ يَقُولُون سَيُغْفَرُ لَنا...»[2].

٢ - «...ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِن عِبادِنَا: فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيرَاتِ بِإِذْنِ ٱللهِ...»[3].

٣ - «...وإنَّ ٱلّذِينَ أُورِثُوا ٱلكِتابَ مِنْ بَعدِهِم لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ»[4].

وقد آستعملت هذه الكلمة في السّنّة في المعنويّات أيضاً كما فيما رُوي عن الإمام الصادق(ع) أنه رواه عن رسول اللهِ(ص):

١ . سورة الفجر (مكيّة) رقم ٨٩ - الآية ١٩.

٢ . سورة الأعراف (مكيّة) رقم ٧ - الآية ١٦٩.

٣ . سورة فاطر (مكيّة) - رقم ٣٥ - الآية ٣٢.

٤ . سورة الشورى (مكيّة - رقم ٤٢) الآية: ١٤.

«...إنّ العُلَماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ. إنّ الأنبياء لَمْ يُوَرِّثوا دِيناراً وَلادِرْهَماً، وَلَكِن وَرَّثوا ٱلْعِلمَ، فَمَنْ أَخَذَ مِنْهُ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ»[١].

وقدوردت مادة (و. ر. ث) في نهج البلاغة في مواضع كثيرة بصيغة الفعل الماضي والفعل المضارع، و بصيغة الإسم (ميراث، تراث) وغيرهما، وٱستعملت في المادّيات والمعنويّات، فمن ٱستعمالها في المعنويّات قوله: **«لَامِيرَاثَ كَالأَدَبِ..»**[٢] و**«...العِلمُ وِراثَةٌ كَرِيمَةٌ...»**[٣]. وٱستعملها في المعنويّات في السلطة السياسيّة في قوله: **«إنّ بَنِي أُمَيّةَ لَيُفَوّقُونَني تُرَاثَ مُحَمّدٍ صلّى الله عليه وآله تَفْوِيقاً...»**[٤] وقوله: **«فَصَبَرْتُ وَفِي ٱلعينِ قَذىً... أرَىٰ تُراثِي نَهْباً...»**[٥]

*

وعلى ضوء هذه الإستعمالات يمكن أنْ يقال أنّ التراث أو الميراث ـ بمعناه العام، لابمعناه الإصطلاحي الفقهي ـ هو كلّ مايخلفه سابق في الحياة لِلاحق له في الزّمان، مهما بعد الزّمان بالمورّث، سواء في ذلك المادّيات والمعنويات.

وإذن، فما يقع عليه ٱسم التراث أو الميراث شيء لم يكن في حوزة الوراث وإنّما ٱنتقل إليه من غيره. وهو قديكون في حاجة اليه وقدلايكون في حاجة إليه. ومع كونه في حاجة إليه فقديعي حاجته إليه و يستعمله و ينتفع به، وقديعي حاجته إليه ولكنه ينصرف عنه لسبب أو لآخر، وقدلايعي حاجته إليه فيهمله ولايعني به إلا بٱعتباره أثراً من الآثار الّتي تتّصل بأحبّته وأهله الماضين ربّما تكون له قيمة عاطفية ولكن ليس له قيمة عملية في حياة الوارث.

وهذايعني أنّ التراث أو الميراث ليس ـ بالضرورة ـ جزءاً مقوّماً للحياة الحاضرة تفسد بدونه لأنّه يشغل فيها حيزاً مهماً وأساساً، و يسدّ فيها حاجات ملحّة لاغنى عنها، وإنّما

١. محمد بن يعقوب الكليني: الكافي ج١ ص٣٤.
٢. نهج البلاغة، باب الحكم، رقم ٥٤ و١١٣.
٣. نهج البلاغة، باب الحكم، رقم٥.
٤. نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ٧٧.
٥. نهج البلاغة ـ الخطبة رقم٣.

قد يكون الأمر فيه هكذا، وقد يكون ـ في نظر الوارث ـ شيئاً يحسن أنْ يقتنى و يستعمل ولكن فقده لا يغير شيئاً من وضع الحياة الحاضرة ولا يدخل نقصاً هاماً فيها. وقد يكون في نظر الوارث ذا قيمة عاطفيّةٍ محضة لا يؤثّر فقده أبداً. وقد يكون في نظر الوارث عباً على الحياة ومعوقاً لنموها ومانعاً من ازدهارها، ولذا فهو يسعى إلى نبذه والتخلص منه والبراءة من آثاره.

هذا تحليل لمفهوم التراث أو الميراث في اللّغة العربية ـ بمعناه العام لا بمعناه الإصطلاحي الفقهي الخاص.

وقد استعملت كلمة التراث في اللّغة العربية في العصور الأخيرة على ألسنة الباحثين والأدباء والمفكرين للدّلالة على آثار الفكر الإسلامي في السّنّة وعلومها، والفقه وأصول الفقه، والتاريخ، والأدب، والفلسفة: وما إلى ذلك من الآثار الفكرية الّتي خلّفها المسلمون باللّغة العربية.

ذاك هو الفكر، وهذا هو التراث.

*

والفكر، في المفهوم الحضاري ـ إذن هو المعلومات والشرائع والمناهج والقيم الّتي تقوّم شخصيّة الأمة الثقافية والحضارية، وتُعطيها سمتها المميّزة لها عن الأمم الأخرى، و يرسم لها دورها في حركة التاريخ.

إنّ هذه المعلومات والشرائع والمناهج والقيم تشكّل عقل الأمّة وروحها وضميرها. وهي تنظر إلى الكون والحياة والإنسان والأمم الأخرى من خلال هذه المعلومات والشرائع والمناهج والقيم، وتواجه مشاكلها ومسائل حياتها على ضوء الحلول والمواقف الّتي يحميها هذا الفكر. وإنتاجها العقلي النظري كلّه يكون مطبوعاً بطابع هذا الفكر، محتوياً روحه، ومستهدياً بالنور الّذي يشعّه...

مثلاً: الماركسيّة هي فكر العالم الشيوعي. فهي تشكّل عقل شعوبه وروحها وضميرها، وهي تميّز هذه الشعوب عن العالم الرّأسمالي بالسّمات الّتي تطبع بها طريقة الحياة لدى هذه الشّعوب. كما إنّ النتاج الثقافي النظري لهذه الشّعوب مرسوم

بالطّابع الخاص للماركسية، بل لقد طمح المنظرون السوفيات إلى طبع النظريات العلميّة الّتي تفسّر بها المادّة بالطابع الخاصّ للماركسيّة: هذا في العصر الحديث.

وقد كانت المسيحيّة في القرون الوسطى وماقبلها بالنّسبة إلى أوربا على هذه الشاكلة.. كما كانت الكونغوشيوعية بالنّسبة إلى الصين.. والهندوسية بالنّسبة إلى الهند، والزّردشتية بالنّسبة إلى إيران، والإسلام بالنسبة إلى العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام وإلى يومنا هذا..

ولكلّ فكر بؤرة يرتدّ اليها كل شيء باعتبارها مقياساً للصدى والأصالة والإستقامة، و ينطلق منها كلُّ شيء باعتبارها الذّخر الأكبر للأصول الأساس في التكوين الثقافي للأمة.

مثلاً: كتاب رأس المال للماركسيّة والشيوعيّة، والإنجيل والتوراة للمسيحيّة، والبهاجافاد ـ جيتا للهندوسية، والقرآن للإسلام. والآوستا للزردشية.. وهكذا يكون لكل فكر مركز أساس يتضمّن الخطوط الكبرى والمبادىء المركزية لذلك الفكر.

هذا هو الفكر في المفهوم الحضاري.

*

أمّا التّراث في المفهوم الحضاري فهو مجرد ثقافة ومعرفة نظرية لا تبلغ في أكثر الأحيان ومعظم الحالات أن تبلغ مستوى كونها فكراً بالمعنى الّذي شرحناه آنفاً، ولنقل: التّراث فكر ميّت.

إنّ التراث لايدخل في صلب ثقافة الأمّة الّتي تغذي عقلها العملي وفعاليّتها وحركيّتها في مجرى التاريخ: ولايقوّم وجودها، ولاينير طريق حياتها، ولايميّزها عن غيرها من الأمم، و بالإجمال: كلّ ماهو دور إيجابي للفكر في الأمة منفي عن التّراث. إنّ التّراث شيء من بقايا الآباء والأجداد، كان صالحاً لحياتهم فهو يمثّل هذه الحياة الماضية وأساليبها وألوانها، ولكنّه لايصلح للحياة الحاضرة، أو لايصلح أكثره للحياة الحاضرة، وإذا احتفظنا به ودرسناه وأقمنا له المؤسسات فليس لأجل أنْ نُقيم عليه حياتنا ونقوّم به شخصيتنا كأمّة، وإنما ذلك لما تربطنا به من صلات عاطفية، أو لأنه

يمثّل حلقة هامّة في تاريخ نموّنا، إنّ له قيمة عاطفية وقيمة أكاديميّة (نظرّية)، وليست له قيمة عملية، أو إنّ أكثره كذلك. ونحن ندرسه، ونحققه وننشره، ونحفظه لنعرف كيف كنا لالنعرف كيف نكون؟ ولنرى صورتنا القديمة لا لنرسم صورتنا الحاضرة أو لنرى كيف تكون صورتنا المستقبلة. إن التراث، في أحسن الحالات، شيء من أشياء القلب والعاطفة، وليس من أشياء العقل والعمل.

هذه هو التراث في المفهوم الحضاري.

*

وهنا أودّ أنْ اُثير مسألة شديدة الخطورة وذات أهمّيّة بالغة جدّاً بالنّسبة إلينا نحن المسلمين في هذا العصر، وهي أنّ الكثرة الساحقة من المسلمين المتعلمين والمثقّفين على مناهج الغرب وأساليبه ينظرون إلى الإسلام ـ بما هو ثقافة ونظام وحضارة ـ و يتعاملون معه على أنه تراث، أي فكر ميت، لاعلى أنّه فكر.

أمّا الكثرة الساحقة من المسلمين فهُم بحمدِ الله ونعمته لايزالون يتعاملون مع الإسلام على أنّه فكرهم (لا تراثهم) وهم يحرصون ماوسعهم الحرص على أنْ يقيموا حياتهم على هدى أحكامه وقيمه، وإنْ كان علينا أنْ نعترف أنّ الحياة الحديثة كثيراً ماتضطرّ الكثير منهم إلى تجاوز أحكام الإسلام، أوتغريهم بتجاوزها، لأنها حياة قائمة على غير الإسلام، وتستمدّ مفاهيمها الفكرية، وقيمها الأخلاقية، ومقاييسها الجمالية، وأفكارها العمليّة من غير الإسلام. ولكن هذه الكثرة الساحقة من المسلمين لا تزال تعتبر الإسلام ـ كما قلنا ـ (فكرها) وإنْ تجاوزته اضطراراً أو تهاوناً في الكثير أو القليل من شؤون حياتها. إنّه عقيدتها، وشريعتها، وقيمها.

ونعود، بعد هذا الإستطراد، إلى شرح موقف المسلمين الّذين يتعاملون مع الإسلام على أنّه تراث لافكر.

هم يرون أنّ الإسلام ـ لابما هو عقيدة ـ وإنّما بما هو شريعة وقيم، فكر عصر مضى، وأنّه بالنسبة إلى عصرنا هذا ـ حيث تشكّل حياتنا الحضارة الحديثة، ومناهجها في التشريع، وقيمها ـ مجرّد تراث، يمثّل مرحلة سابقة في نموّنا تجاوزها تطوّر التاريخ، فليس

لنا والحال هذه أنْ نعتبره (فكرنا) أنّه (تراثنا) مبعث فخر لنا، موضوع حبنا وتقديرنا، ولكنّه لايصلح لأن يشكّل حياتنا، و يكون موضوع عملنا الّذي نبني عليه مناهجنا ونستمدّ منه قيمنا.

والمفكرون العرب المحدثون المعنيون بقضايا النهضة العربية كثيراً مايستعملون في التعبير عن الإسلام أو عن هذا الجانب أو ذاك من جوانب الفكر الإسلامي كلمة (تراث)[1] ذاهبين إلى أنّ هذا (التراث الإسلامي) ليس شأن عصرنا وليس شأن الإنسان العربي في هذا العصر، وإنّما هو شأن السلف وقد ورثناه عنهم، ومن المؤكّد أنّه ليس من الصالح ولا من الراجح أنْ نأخذه كلّه لنتمثّله في حياتنا مناهج وتشريعات وقيماً لأنّه معطّل معوّق لنموّ هذه الحياة المعاصرة وازدهارها، ولكن هل ننبذه كلّه فلانعني بشيء منه، ونحفظه كأثر من آثار تاريخنا، أونخضعه لمقياس انتقائي نأخذ بموجبه من هذا (التراث) مايتفق مع حياتنا الحاضرة «والفكر المعاصر» وننبذ من هذا (التراث) مالايتوافق مع هذا (الفكر المعاصر) أويخالفه.

ولكنّ هؤلاء المفكرين على خطأ فادح في هذه المسألة الهامة، بل المصيريّة لابالنسبة إلى العرب وحدهم، بل بالنسبة إلى المسلمين جميعاً.

إنّ الإسلام لايزال حتى الآن «فكر» المسلمين، والعرب منهم، وسيبقى فكر المسلمين جميعاً. ولم يبلغ الإسلام في قلوب وعقول المسلمين درجة من الضّمور والتقلص أو الإندثار والنّسيان بحيث يكون «تراثا» يحتاج إلى «إحياء» كالّذي حدث في أوروبا في عصر النّهضة بالنّسبة إلى التراث اليوناني ـ الروماني.

إنّ الإسلام لايزال «حياً» مملوءاً بالحياة في قلوب وعقول المسلمين، ولايزال قادراً على «تحريك» مئات الملايين من المسلمين في جميع أنحاء العالم نحو أهدافه العظيمة

١ . نشير هنا إلى أنّ بعض دُور النشر الكبرى في بعض البلاد العربية، ومنها ماهو تابع لمؤسسات ثقافية رسميّة، نشر كتباً في الفكر الإسلامي تحت عنوان (تراثنا) أو(سلسلة التراث) وغير ذلك من العناوين. هذا وعلينا أن ننبّه هنا إلى أنّه ليس كلّ من استعمل كلمة (تراث) في الدّلالة على الفكر الإسلامي يحمل على الفكر الإسلامي هذه النظرة، فثمة مفكرون وباحثون مسلمون مخلصون استعملوا كلمة (تراث) في الدّلالة على الفكر الاسلامي دون أنْ يقصدوا بها موقفاً فكرياً من (الفكر الإسلامي) يضعه في (التراث) بالمعنى الحضاري، وإنّما قصدوا بالتعبير مجرّد الدّلالة اللّغوية.

النبيلة، وإذن فهو لايزال «فكر» هذه المئات من الملايين من البشر، وإنّما لا «يحركها» أو «لا تتحرك» وفقاً لمناهجه بسبب وجود الموانع الخارجية القاهرة والمعوّقات الشالّة لحركة المسلمين من خلال إسلامهم، وهي قوى الحضارة المادّية الّتي آستعمرت بلاد المسلمين وأقصت الإسلام عن مركز القيادة وحلّت محله في هذا المركز.

وإذن، فالإسلام ليس «تراثاً» ميتاً نختلف على «إحيائه» «وعدم» «إحيائه» أو «إحياء» بعضه ممّا يتلاءم مع عصرنا كما يقولون... إنّه «فكر حيّ» ومايدعوننا إليه هو «إماتة هذا الفكر الحيّ» لإحلال فكر آخر غريب محله هو فكر الحضارة المادّية.

وقد أفلحت قوى الحضارة المادّية لافي «إماتة الإسلام» فهو لايزال حيّاً كما قلنا، ولكن في فرض نفسها على حياة المسلمين الّذين يحملون في قلوبهم وعقولهم إسلاماً حيّاً قادراً على التحريك ولكنه «ممنوع عن التحريك» وليس «عاجزاً» عنه.

وآستمرار مفكرينا المتأثرين بهذه الحضارة المادّية في جهودهم لفرضها على واقع حياة المسلمين وعزل الإسلام عن هذه الحياة لن يؤدّي إلى (إماتة الإسلام) كما لن يؤدّي إلى «تحرير» المسلم أو«العربي»، وإنّما يؤدّي إلى مزيدٍ من التمزق الدّاخلي والأزمات الحضارية لإنسان ينقسم على نفسه، موزع الذّات بين ضرورات حياته اليومية و بين قناعاته العقلية والنفسية والأخلاقية والعاطفية. وهذا مايؤدّي ـ كما أدّى بالفعل في العالم الإسلامي كلّه ومنه العالم العربي ـ إلى فقدان الفعالية والإيجابية في مواجهة تحدّيات الحياة، و يؤدي من ثَمّ إلى مزيد من التّخلف والعجز عن مجاراة حركة التقدم لدى الأمم الأخرى وهكذا يسيء هؤلاء المفكرون من حيث يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، فبدلاً من إتاحة الفرصة أمام الإنسان العربي للتغلّب على مصاعبه وعوامل تخلّصه يضيف هؤلاء المفكرون سبباً آخر للتخلف يزيد الأمر سوءاً لأنّه يقدم تحت شعار التقدم، وهكذا يكون حال الإنسان العربي في هذه الحالة حالة القطّ الّذي يلحس المبرد الذي يغري لسانه و ينزف دمه وهو يحسب أنّه يغذي نفسه بالمبرد الّذي يغريه في حقيقة الحال.

*

رأينا أن نقدّم للبحث عن التّاريخ في مجال الفكر عند الإمام علي(ع) بهذا التمهيد لشعورنا العميق بخطورة هذه المسألة، وموقفنا من الفكر الإسلامي، وضرورة تصحيح النظرة السائدة إلى هذا الفكر الذي ملاك وجودنا كلّه.

١ ـ النّبوّات

أ ـ بداية العصر التّاريخي للإنسان:

يبدو لنا من كلمات أميرالمؤمنين علي(ع) أنّ العهد التاريخي للإنسانية بدأ بظاهرة وجود النبوّات في المجتمع البشري. هذه النبوّات الّتي تقود مجتمعاتها نحو حياة أفضل، ووجود إنساني أكمل.

ماقبل التاريخ، إذن، بالنسبة إلى الإنسانيّة، هو ماقبل النبوّات، حيث كانت الإنسانية تعيش في حالة البراءة الفطرية، وكانت النفس الإنسانيّة لا تزال عذراء ساذجة، بدائية، خالية من أيّ تعليم... ولذا فلم تكن لدى الإنسانية في فترة ماقبل التاريخ هذه تجارب ومعاناة يعود عرضها بالفائدة التعليميّة والتربويّة لمجتمع متحضر، تامّ التكوين، على درجة عالية من التعقيد، يفترض فيه أنّه يبنى على هدى خاتمة الرّسالات، وخلاصة النبوّات، وهو مجتمع الأمة الإسلامية.

ولذا لانجد في جميع الكلام الصادر عن أميرالمؤمنين حديثا عمّا قبل عهد النبوّات، ومن هنا أستنتاجنا أنّه يعتبر إشراق النبوّة وظهور الأنبياء في المجتمعات البشريّة بداية العصر التاريخي للبشرية.

وقد بيّن الله تعالى في القرآن الكريم تاريخ بداية عهد النّبوّات في المجتمع البشري فقال سبحانه وتعالى:

«كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً، فَبَعثَ اللهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتابَ بِالحقِّ

لِيَحكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ، وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعدِ مَاجَاءتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ، فَهَدَى ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[١].

«كَانَ النَّاسُ أمةً واحِدةً»... كان إنسان ماقبل التّاريخ، ماقبل النّبوّات يحيا في وحدة فطرية قائمة على أساس وحدة المصالح ووحدة الدّم من جهة، وعلى عامل سلبي من جهة أخرى هوعدم وجود مايهدد حالة السكون والخمود الّتي تميّز هذه الحياة نظراً لبساطة الحاجات وتوفّر مايلبيها و يشبعها في الطبيعة دون حاجة إلى مغالبة وصراع.

ولكن حركة الحياة النامية المتصاعدة، وتزايد عدد أفراد النوع، وتفاوت القدرات العقلية والجسمية... كل ذلك ومايشبهه من عوامل الإنقسام والتعقيد أدّى إلى نشوء خلافات داخل الجماعة البشرية النامية، ومغالبة وصراع بين أفرادها وفئاتها... وربّما كان من مظاهر ذلك أو أوّل مظهر من مظاهر ذلك خلفيّات الجريمة الأولى بين ابنَيْ آدام حيث قتل أحدهما أخاه، وقدقصّ الله تعالى نبأهما في القرآن الكريم[٢]، وتردّدنا في أنّ هذه الجريمة هي من مظاهر ذلك أو أنّها أوّل مظهر من مظاهر ذلك ناشئ من وجود احتمال أنّ «آدم» القرآني لايمثّل بداية الجنس البشري على الأرض، وإنّما يمثّل بداية النسل البشري الموجود الآن، و يكون، على هذا، قدوجد نسل سابق على النسل الموجود الآن من بداية يمثّلها آدم سابق على آدم القرآني، والله تعالى أعلم وعلى هذا تكون آية سورة البقرة(٢١٣) موضوع البحث تؤرخ لفترة من عمر البشريّة سابقة على الفترة الّتي بدأت بآدم القرآني.

وعلى أيّ حال، ففي هذه المرحلة من نموّ الإنسان لم تعد وحدة الدم كافية لتكوين وحدة المجتمع، ولم تعد ثمّة مصالح واحدة أو متّفقة، ولم تعد النفس الإنسانيّة عذراء، ساذجة، بدائية... و يستحيل على النوع الإنساني في أنْ ينمو- كما أراد الله في أوضاع كهذه تقوده فيها غرائزه فقط، ولامرجح له في خصوماته ومراعاته إلّا غرائزه... في هذه

١. سورة البقرة (مدنيّة - ٢) الآية: ٢١٣.

٢. سورة المائدة (مدنيّة - ٥) الآيات: ٢٧ - ٣١.

المرحلة من نمو الإنسان قضت حكمة الله ورحمته بإرسال الأنبياء حاملين إلى الإنسانية منهاج هدايتها الّذي يخرجها من عهد الغريزة إلى عهد العقل ومن منطق الصراع الّذي مرجعه الغريزة والقوة إلى منطق النظام ومرجعية القانون.

وقد حقّق الإنسان، بإشراق عهد النبوّات، قفزة نوعية عظيمة وحاسمة في تطوّره نحو الأعلى وتكامله، فقد خرج المجتمع البشري بالنبوّات عن كونه تكويناً حيوانياً ـ بيولوجياً إلى كونه ظاهرة عقلية ـ روحية.. لقد عقلنت النبوّات المجتمع الإنساني وروحنته.

وحقّقت النّبوّات للإنسان مشروع وحدة أرقى من وحدته الدّموية البيولوجية الّتي كانت سائدة قبل عهد الخلافات والإنقسامات والصراع... وهي الوحدة القائمة على أساس المعتقد، وبذلك تطوّرت العلاقات الإنسانية مرتفعة من علاقات المادّة إلى علاقات المعاني... بعهد النبوّات بدأ عهد الإنسان...

وتمضي الآية الكريمة، بعد التأريخ لهذه المرحلة، في بيان أنّ الإختلافات الّتي نشأت في النوع الإنساني، بعد إشراق عهد النّبوّات، غدت آختلافات في المعنى، آختلافات في الدّين والمعتقد، إذ أنّ أسباب الصّراع والبغي من بعض الناس على بعض، وآستغلال الأقوياء للضعفاء لم تلغ بالدين الّذي جاءت به النبوات، بل آستمرّت وتنوّعت، ولكن المرجع لم يعد الغريزة وإنما غدا القانون هو المرجع، وإذا كان من المستحيل على الإنسانية أنْ تجد قاعدة لوحدتها وتعاونها عن طريق الغرائز، وعلاقات المادة، فإنّ من الممكن لها أنْ تجد قاعدة ثابتة لوحدتها وتعاونها وتكاملها عن طريق القانون الذي يتضمّنه الدّين وغير القانون من تربية الدّين وإغنائه لروحية الإنسان وأخلاقيّته، وذلك حين يستبدل الإنسان علاقات المادة بعلاقات المعنى. وعدم بلوغ الإنسانية إلى هذا المرتقى ليس ناشئاً، في عهد النّبوّات، من فقدان الوسائل، وإنما هو ناشئ من سوء الإختيار البشري، ومن سوء آستخدام الحرية المعطاة.

لقد أفضنا في الحديث عن بعض جوانب الآية الكريمة لنضيء بها الفكرة التي عبّر عنها الإمام عليه السّلام في شأن النبوات وبداية العصر التاريخي للإنسان إذْ قال:

«...وَاصْطَفَى سُبْحانَهُ... أنبياء أَخَذَ عَلَى الْوَحيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْليغِ الرِّسالَةِ أمانَتَهُم، لَمّا بَدَّلَ أكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إليهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّه، وَاتَّخَذُوا الأنْدادَ مَعَهُ، وَاجْتالَتْهُمُ[1] الشياطِينُ عَنْ مَعرِفته، واقْتَطَعَتهُم عَنْ عِبادَتِهِ، فَبَعثَ فِيهِمْ رُسُلَه، وَوَاتَرَ[2] إليهِمْ أنْبياءه،... وَلَمْ يُخلِ اللهُ سُبحانهُ خلقَهُ مِنْ نَبيٍ مُرسَلٍ أو كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أو حُجَّةٍ لازِمَةٍ أو مَحَجَّةٍ[3] قائمة: رُسُلٌ لا تُقَصِّرْ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَلا كَثْرَةُ المُكَذِّبينَ لَهُم مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أوْ غابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ، عَلَى ذٰلِكَ نَسَلَتِ القُرونُ، وَمَضَتِ الدُّهُورُ، وَسَلَفَتِ الآبَاء، وَخَلَفَتِ الأبْناء»[4].

وهكذا يعبّر الإمام عن جوانب من أفق الآية الكريمة، فحين تعقّدت الحياة البشرية نتيجة لنمو المجتمع وتشابك العلاقات فيه، وحين أدّى ذلك إلى تصادم بين ماتقضي به الحياة الإجتماعية من تعاون وماتدفع إليه الغريزة والروح الفردية من أستئثار. وحين ترافق هذا مع الإنحراف عن مقتضيات الفطرة المستقيمة العذراء ـ وإنْ تكن في ذلك الحين ساذجة ـ في إدراك الخالق سبحانه وتعالى... حين حدث في حياة الإنسانية كل هذا أقتضى لطف الله ورحمته إرسال الأنبياء ليضيئوا عقول الناس، و يرتفعوا بالمجتمع من علاقات المادة ـ البيولوجيا ـ إلى علاقات المعنى والقانون.

*

وقد تواترت حركة النبوّات في تاريخ البشرية: تضيء عقولها، وتصوغ مفاهيمها، تغني حياتها، وتضعها رويداً رويداً على طريق التكامل... تواترت هذه الحركة في خطّ تصاعدي نحو الأكمل والأفضل والأجمل، مستجيبة في كل مرحلة من مراحل التاريخ البشري لحاجات تلك المرحلة، باذرة فيها بذور نموّ آخر في المستقبل يهيء لمرحلة من التقدم والتكامل جديدة... إلى أن بلغت حركة النبوات ذروتها في الرسالة الخاتمة الجامعة: رسالة الإسلام على لسان خاتم النبيّين محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

١ . اجتالتهم: صرفتهم عن الله.
٢ . واتر: تابع.. أرسل الأنبياء يتبع أحدهم الآخر.
٣ . المحجة: الطريق المستقيمة الواضحة، يريد هنا الشّريعة الّتي تتبع.
٤ . نهج البلاغة ـ الخطبة الأولى.

قال عليه السّلام:

«... إلىٰ أنْ بَعثَ الله سُبحانَهُ مُحمّداً رَسُولَ الله صَلَّى الله عَليهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لإنْجازِ عِدَتِهِ، وَإتْمامِ نُبوَّتِهِ، مَأخُوذاً عَلَى ٱلنَّبيِّينَ مِثاقُهُ، مَشْهورَةً سِمَاتُهُ[1]، كَريماً مِيلادُهُ»[2].

وقال في خطبة أخرى:

«... بَلْ تَعاهَدَهُمْ - ٱلنّاسَ - بِٱلْحُجَجِ عَلَىٰ ٱلْسُنِ ٱلْخِيَرَةِ مِنْ أنْبيائِهِ وَمُتَحَمِّلِي وَدَائِعِ رِسالاَتِهِ قَرْناً فَقَرْناً، حَتَّىٰ تَمّتْ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ ٱلْمَقْطَعَ[3] عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ..»[4].

ب - وظيفة النّبوّة

ماوظيفة النبوّة في المجتمع البشري؟

إنّها فيما نفهم من كلمات أميرالمؤمنين تتلخص في هدفين كبيرين:

الأول:

وهو أهمهما، إحياء الفطرة الإنسانية الصافية المستقيمة، هذه الفطرة الّتي يهتدي بها الإنسان إلى الإيمان الصحيح بالله سبحانه وتعالى، و يدرك بها كونه مخلوقاً لله، ومن ثمّ يدرك موقعه في الكون. و يترتب على هذا الإيمان الواعي تصحيح المسار الإنساني في طريق التكامل بجعل حركة الإنسان التاريخية وثيقة الصّلة بعقيدة التوحيد ومتفرعاتها.

الثاني:

وهو، من بعض الوجوه نتيجة للأوّل، تكوين الحوافز الروحية والنّفسية

١. السّمة: العلامة، والمراد علامات النّبيّ محمّدٍ الّتي بشّر بها الأنبياء السابقون.

٢. نهج البلاغة - الخطبة الأولى.

٣. المقطع: النّهاية الّتي ليس عليها مزيد. أي أنّ أعذار الله وأنذاره تلقيا نهايتها برسالة محمد(ص).

٤. نهج البلاغة - خطبة الأشباح، رقم: ٩١.

والإجتماعية لإنجاز عملية التقدّم العقلي والمادّي والإجتماعي في الحياة في صيغة تضمن التوازن بين النموّ الرّوحي ـ الأخلاقي والنموّ المادّي. وهذه الصّيغة الّتي توازن بين اتّجاهي النموّ والنّشاط الإنساني هي الدّين.

وهذه هي وظيفة النبوّة كما تفهم من القرآن الكريم والسّنّة الشّريفة،

فالنّبيّ يخرج النّاس من الظلمات إلى النّور في عقائدهم وعلاقاتهم الإجتماعية والسياسية، و يصحّح نظرتهم إلى موقعهم في الكون، ومن ثمّ يوجد الإنسان الصّالح الّذي يسعى نحو التكامل. فيحقّق لنفسه التقدّم المتوازن في الشكل والمضمون، في الرّوح والمادّة.

وليس النّبيّ مخترعاً كبيراً ومخططاً عظيماً يبدع الآلات والمؤسسات، وليست النبوّة مركزاً للإبحاث والدّراسات وما إلى ذلك.

إنّ الّذي يخترع الآلات و يُنشئ المؤسسات و يبتكر الخطط هو عقل الإنسان بعد أن تتوفّر له دواعي النموّ والإنطلاق. فاذا تآخت معها قيم الروح والأخلاق حقق الإنسان إنجازات مادّيّة وتنظيمية تتّفق مع مُقتضيات الإيمان، وتوفّر للإنسان حياة سعيدة طيّبة، ورضوان الله والنجاة في الآخرة. وإذا لم تتآخ قيم الروح والأخلاق مع دواعي النموّ والإنطلاق في التعامل مع الكون المادّي حقّق الإنسان إنجازات مادّيّة وتنظيمية توفّرُ له القوة واللّذّة والرّخاء دون أن توفّر له السّعادة وطيب بالحياة.

*

وفهمنا لوظيفة النبوّة ـ كما تعكسها نصوص نهج البلاغة ـ مستفاد من النصوص الّتي تحدّث فيها الإمام عن حالة العالم عشية بعثة النبي محمّد(ص)، ذلك لأنّ النصوص الّتي تؤرخ للنّبوات السابقة لنبوّة محمد(ص) نادرة من جهة، وتشبه، من جهة أخرى، أنْ تكون في معظمها مجرد إشارات يغلب عليها طابع الإجمال.

ولكن هذا لايؤثر شيئاً على سلامة فهمنا لوظيفة النّبوّة، فإنها وظيفة واحدة منذ بداية حركة النبوّات في فجر التاريخ الإنساني إلى ختام النبوّات بنبوّة محمّد(ص) ورسالة الإسلام. ولا توجد اختلافات جوهرية بين النبوّات من حيث وظيفتها

الأساسيّة، والإختلاف الأساسي الوحيد فيما بينها هو في درجة الشّمول والإتساع من حيث مساحة شمول التشريع للنشاط البشري من جهة، ومن حيث عُموم الرسالات بالنسبة إلى الشّعوب من جهة أخرى.

*

قال عليه السّلام:

«...فَبعثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَواتَرَ إلَيْهِمْ أنبياءهُ لِيَسْتادُوهُمْ مِيثاقَ فِطْرتهِ، وَيُذَكِّروهُمْ مَنْسِيَّ نِعمَتِهِ، وَيَحتجُّوا عَليهِمْ بِالتّبليغ، وَيُثيروا لَهُم دَفائنَ العُقولِ، ويُرُوهُمْ آياتِ ٱلمَقْدِرةِ: مِنْ سَقْفٍ فَوقَهُمْ مَرفُوعٍ، وَمِهادٍ تَحْتَهُم مَوضُوعٍ، وَمَعايِشَ تُحْييهِمْ، وآجالٍ تُفْنِيهِمْ وَأوْصَابٍ[1] تُهرِمُهمْ، وأحْداثٍ تَتابَعُ عَليْهِم..»[2].

إحتوى هذا النّص الّذي يؤرخ للنّبوّات السّابقة على القضايا التّالية في معرض بيان الغاية من إرسال الأنبياء:

١ ـ ميثاق الفطرة:

وهذه القضية تعني مسألة الإيمان بالله تعالى، ومايتفرع عن هذا الإيمان من قضايا أساسية تنبع منه وتتصل بكافة شؤون الحياة.

وما عبّر عنه الإمام هنا وفي مواضع أخرى من خطب وتوجيهات هو تعبير عن حقيقة كبرى من الحقائق القرآنية، ورد النّبي عليها أو الإشارة إليها في عدّة آيات منها قوله تعالى:

«وَإذْ أخذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأشْهدَهُمْ عَلَى أنْفُسِهِمْ: ألَستُ بِربِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا، أنْ تَقُولُوا يَومَ ٱلْقِيامَةِ إنَّا كُنّا عَنْ هَذا غافِلِينَ. أوْ تَقُولُوا إنَّما أشْركَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ، وَكُنّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ، أفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ»[3].

١ . الأوصاب: المَتاعِب.

٢ . نهج البلاغة: الخطبة الأولى.

٣ . سورة الأعراف (مكية ـ ٧) الآية: ١٧٢ ـ ١٧٣.

وقد تكرّر ذكر هذه القضية الإيمانية الكبرى في جميع النصوص التي أرّخ فيها الإمام للنبوّات.

٢ ـ إثارة دفائن العقول:

وهذه القضية تعني بعث القوى العقلية والنفسية في الإنسان لإنجاز عملية التقدم الصحيح والتغيير الإيجابي في المجتمع عن طريق الحركة التاريخية المستبطنة للوعي الإيماني المستقيم.

٣ ـ جعل الطّبيعة موضوعاً للبحث والنظرة:

هذه القضية دلّ عليها قوله: «...وَ يُرُوهُمْ آيَاتِ ٱلْمَقْدِرَةِ...».

وهذه القضية تخدم القضيتين الأوليين، فإنّ مراقبة الطبيعة لفهمها، والتعامل معها واكتشافها تعزّز قضية الإيمان لأنها تقدّم مزيداً من الأدلّة التجريبية على ماأدركته الفطرة السليمة من قضايا الألوهة. كذلك يعين التعامل مع الطبيعة بصورة مباشرة على إنجاز عملية التقدم، بل شرط أساسي لإنجاز التقدم المادّي، وإذْ تتخذ قضية الإيمان في ذات الإنسان مع حركته التاريخيّة في الطّبيعة والمجتمع فيكون تقدم على هدى الإيمان وأخلاقيات الروح والعقل، و يكون إيمان يستجيب للحياة الدنيا ولايقف منها موقف الرفض والعداء.

*

في نص آخر أرّخ الإمام للعالَم حين بعثة النبي محمد(ص) فقال:

«...إِلَىٰ أَنْ بَعثَ ٱللهُ سُبْحانَهُ مُحمّداً(ص)... وَأَهْلُ ٱلأَرضِ يَوْمَئِذٍ مِلَلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَأَهْواءٌ مُنْتَشِرةٌ، وَطَرائقُ مُتَشَتِّتَةٌ، بَيْنَ مُشَبِّهٍ للهِ بِخَلْقِهِ أَوْ مُلْحِدٍ فِي ٱسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَىٰ غَيرِهِ، فَهَدَاهُمْ بِهِ مِنَ الضّلالَةِ، وَأَنْقَذَهُمْ بِمَكَانِهِ مِنَ ٱلْجَهَالَةِ...»[1].

وقال في نصّ ثانٍ:

١. نهج البلاغة ـ الخطبة الأولى.

«بَعَثَهُ وَٱلنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرةٍ، وَحَاطِبُونَ[١] فِي فِتْنَةٍ، قَدِٱسْتَهوَتْهُمُ الأهْواءُ، وَٱسْتَزَلَّتْهُمُ ٱلْكِبْرِياءُ[٢]، وَٱسْتَخَفَّتْهُمُ[٣] ٱلْجَاهِلِيَّةُ الجَهْلاَءُ. حَيارَىٰ فِي زَلْزالٍ مِنَ ٱلأمْرِ وَبَلاءٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ، فَبالَغَ(ص) في النَّصِيحَةِ، وَمَضىٰ عَلَى الطَّرِيقة، وَدَعَا إِلَى ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ»[٤].

وقال في نصّ ثالث:

«وَأَشْهَدُ أنَّ مُحَمّداً عَبدُهُ وَرَسُولُهُ، أرسَلَهُ بِالدِّينِ ٱلْمَشْهُورِ.. وَٱلنَّاسُ فِي فِتَنٍ ٱنجذَمَ[٥] فِيها حَبْلُ ٱلدِّينِ، وَتَزَعْزعَتْ سَوارِي[٦] ٱلْيَقِنِ، وَٱخْتَلف ٱلنَّجرُ[٧] وَتَشَتَّتَ الأمْرُ، وَضاقَ ٱلْمَخرجُ وَعَمِيَ ٱلْمَصْدَرُ، فالهُدَى خامِلٌ وَٱلعَمَىٰ شامِلٌ، عُصِيَ ٱلرَّحمانُ وَنُصِرَ الشَّيْطانُ، وَخُذِلَ الإِيمَانُ، فانْهارتْ دَعائمُهُ، وَتَنَكّرتْ مَعالِمُهُ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ، وَعَفَتْ شُرُكُهُ[٨] أطاعُوا ٱلشَّيْطانَ فَسَلَكُوا مَسالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَناهِلَهُ[٩]، بِهِمْ سارَتْ أعْلامُهُ، وَقامَ لِواؤُهُ، فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفافِها، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِها وَقامتْ عَلَىٰ سَنابِكِها[١٠] فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ... حَائِرُونَ... جَاهِلُونَ... مَفْتُونُونَ...»[١١].

أشار الإمام في هذه النّصوص إلى وجوه الفساد الّتي كان يعاني منها العالم عشية بعثة رسول الله(ص)، وهي وجوه الفساد الكبرى في كلّ عصر وفي كلّ أمّة، فإصلاحها هو وظيفة النّبوّة في حركتها الصاعدة منذ بدأت في مستهلّ التاريخ البشري إلى أن ختمت بمحمّد(ص).

١ . الحاطب هو الّذي يجمع الحطب، يقال لمن يأخذ بالصّواب والخطأ دون تمييز: حاطب ليلٍ، شبه للفتنة باللّيل الّذي تلتبس فيه الأشياء لظلامه حيث أنّ الحق يلتبس فيها بالباطل.

٢ . استزلّتهم: أوْقعتْهُم الكبرياءُ فِي الزّللِ والسّقوطِ، يعني بذلك فساد حياتهم الإجتماعية.

٣ . اسْتَخفَّتْهُم: جَعلتهُم طائشينَ مُندفِعينَ وراء شهواتِهم الجسدية والنفسية دون كابح ورادع.

٤ . نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٩٥.

٥ . انجذم: انقطع.

٦ . السّارية: هي العمود، يدعم بها السقف، والجمع سوارٍ.

٧ . النّجر: الأصل، ومثله: النجار.

٨ . درست واندرست بمعنى زالت وانطمست. والشّرك ـبضم الرّاءـ جمع شراك ، الطّريق. وعفت شركه بمعنى انطمست.

٩ . المناهل: جمع منهل، مورد النهر.

١٠. الأخفاف جمع خُفّ، وهوللبعير كالقدم للإنسان،والأظلاف جمع ظِلْف للبقر والشّاء. والسّنابك جمع سُنبك: طرف الحافر.

١١. نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٢.

الأوّل:

الضّلال في العقيدة، فَالنّاسُ ضُلّالٌ فِي حَيْرَةٍ... وَحاطِبُون فِي فِتْنَةٍ، وَهُمْ حائرونَ لأنّه حيث لايستقر الإنسان على عقيدة أو يؤدي به الفساد العام إلى عقيدة باطلة، فإنّه يشعر بالضياع و يشعر بانعدام الهدف... إنعدام المعنى من وجوده، يشعر بالعبث حين يواجه نفسه بسؤال: مَن أنا؟ لماذا أنا هنا؟ ماالمعنى لوجودي؟... وهكذا يمضي هذا الإنسان الضائع في ٱلتماس الجواب حيث لاجواب، لأنّه «..بين مشبّه لله بخلقه، أو ملحد في آسمه، أو مشير إلى غيره».

الثّاني:

الفساد السياسي والإجتماعي، فالناس قدأوقعتهم كبرياؤهم الّتي لامبرّر لها في الزّلل والسّقوط الحضاري، فحملت أقو ياءهم على ٱحتقار ضعفائهم وفقرائهم... وخاصّتهم إلى الإستهانة بعامّتهم، فهانت كرامة الإنسان من حيث هو إنسان، وغدا مقياس الكرامة خاضعاً لعوامل غير إنسانية: للثّروة، أو للقوة، أو للنسب، وما إليها. لقدغدا الناس ـ نتيجة لذلك مِللاً متفرقةً متناحرةً، لكلّ ملّة مذهب وطريق، ولكلّ فئة هوى وٱتجاه، ولكلّ فريق منهج وغاية، والكل مفتون برأيه، مأخوذ بهواه، يعمل على شاكلته.

والنّبوّة تعالج وجوه الفساد كلّها في الإنسان والمجتمع، في الرّوح وفي المادة، والمؤسسات لتحقق الغاية العظيمة النبيلة، وهي تكو ين الإنسان المتكامل.

وقد أعلن الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هدفهم هذا على مدى التاريخ، كلّ واحد منهم في المحيط الذي بعث إليه في الزّمان الّذي كان فيه.. إلى أن ختمت النبوّة بمحمد(ص) فكان هذا الهدف العظيم بحجم ٱمتداد الرسالة الخاتمة في الزمان والمكان على مستوى البشريّة كلّها وعلى مدى المستقبل كله... إلى نهاية الزمان: «فبالغ(ص) في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة»... «...فهداهم به من الضّلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة»

وقد أثمر جهد الأنبياء العظيم النبيل وجهادهم ومن ٱتّبعهم وجرى على سنتهم ـ

أثمر تحقيق هذا الهدف العظيم الذي هو وضع الإنسانية على طريق التكامل.

وربّما كان هذا القول مثيراً للدّهشة والتّعجب، والتّساؤل:

كيف حقّق الأنبياء الكرام هدفهم هذا ولم يؤمن بهم إلّا القليل، وأعرض عنهم أكثر الناس، بل حاربوهم ورفضوهم..؟

إنّ هدف النبوّة قد تحقق في كلّ عصر، وعلى عهد كلّ نبيّ في صورتين:

إحداهما: فيمن آمن بالنّبيّ وصدّق به واتّبع منهاجه، فالتزم في حياته العامة والخاصة بالعقيدة والشريعة اللّتين اشتملت عليهما رسالته.

والصّورة الأخرى: تتمثّل في الجو الثّقافي والرّوحي العام الّذي اشاعته الرّسالة النّبوية في المجتمع نتيجة لتبليغ النبي وأتباعه، وللصراع الفكري والإجتماعي الّذي ولّدته الرّسالة في المجتمع، فإنّ هذا المناخ الثقافي يترك آثاره بلاشكّ على المفاهيم والمؤسسات والقيم والقناعات الّتي تسود المجتمع، و يدفع بها نحو التغيير بصورة لاشعورية، فينتقل المجتمع إلى حالة أفضل في علاقاته وقيمه ومؤسساته وحوافز العمل فيه، وإنْ كان أكثر هذا المجتمع كافراً برسالة النّبيّ.

ومن هنا كان الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين هم آباء الحضارة الإنسانيّة والمدنية الإنسانيّة. وما من خير بلغته وتمتعت به البشريّة في عقولها وأذواقها وقيمها ومؤسساتها وحوافز العمل من أجل التقدم المادي عندها إلّا وللأنبياء فيه فضل كبير، لأنّهم -على مدى التاريخ- أشاعوا، بما بثّوه من الوحي الإلهي في الناس، وحدة جديدة في كلّ مجتمع تنبثّ كالنّور... كالعافية فيه فتضيء، بدرجات متفاوتة، مناطق الظلمة، وتلمس -بدرجات متفاوتة- مناطق البؤس والمرض فيه. وكان تأثير هذه الروح النبويّة متفاوتاً بنسبة مقاومة قوى الشر حين تعي درجة تأثير الخير النبوي، و بقاء هذا الخير حراً في التأثير حين تغفل قوى الشرعية أو ترى لنفسها مصلحة فيه.

وهكذا، فمن هذا المنظور نفهم أنّ كلّ نبي قد هدى الله به الناس من الضّلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة. فهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين آباء الإنسانية الكرام، وآباء الحضارة العظام.

وهذا نصّ آخر يضيء به الإمام جانباً آخر من جوانب وظيفة النبوّة في نطاق الهدفين العظيمين، قال عليه السّلام:

«فَدَصُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الأَبْرَارِ، وَثُنِيتْ إِلَيْهِ أَزِمَّةُ الأَبْصَارِ. دَفَنَ اللهُ بِهِ الضَّغَائِنَ[1] وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ[2]. أَلَّفَ بِهِ إِخْوَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً. أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّةَ، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ»[3].

في هذا النّصّ كشف الإمام عن عمل النبوّة في تغيير القيم السائدة في المجتمع، هذه القيم الّتي تحكم وتوجه العلاقات داخل المجتمع بين فئاته وأفراده، وإبدالها بقيم أخرى متّسقة في طبيعتها مع طبيعة الرّسالة النبوية لأنها مستمدة منها. ومايترتب على ذلك من تغيّر في المفاهيم والقناعات، ومن تبدل في نوع العلاقات نتيجة لتبدل القيم الجاهليّة بالقيم النبويّة.

لقد ثنيت أزمّة الأبصار نحو الرّسول الأكرم(ص) كما كانت تثنى نحو كل نبيّ في مجتمعه، لأنه قدأثار اهتمام الناس كلّهم، وأوجد هزّة راحت تنداح على المجتمع كلّه وتنفذ في أعماقه. وهذه الفكرة تضيء التحليل الّذي بيّنا فيه آنفاً أنّ أثر النبوّة الخيّرة لايقتصر على المؤمنين بالنبي ورسالته وحدهم، وإنّما يتعداهم ليشمل ببركاته المجتمع كله.

لقد أدّت القيم الجديدة الّتي جاء بها النّبيّ إلى تغيير المفاهيم، ومن ثمّ إلى تغيير عميق وجذري في العلاقات الإجتماعيّة بين الأفراد والفئات، وإلى إحداث التّبدّلات الإجتماعية.

لقد دفنت به الضغائن، لأن أسباب تولّدها قد زالت، ومن ثمّ فقدزالت أسباب تفجّرها فزالت الثوائر.

لقد نعم المجتمع كلّه بدرجة عالية من الإستقرار والطمأنينة بعد أن انخفضت إلى أدنى الدرجات مظاهر العنف والتوتر فيه نتيجة لتبدّل المفاهيم والقيم الّتي كانت

١. الضّغائن: الأحقاد المكتومة.

٢. الثّوائر: الأحقاد المتفجّرة في أعمال عدائية عنفية ومعارك.

٣. نهج البلاغة، رقم الخطبة ٩٦.

سائدة فيه بمفاهيم وقيم أخرى بثّتها النبوّة.

وقد أدّت القيم الجديدة إلى إيجاد علاقات جديدة:

فألّف الله بالنبي... بالقيم الّتي بشّر بها وأذاعها في الناس، إخواناً في الإيمان، وفرقت هذه القيم الإيمانية بين أقران آختلفت بهم الطريق حين هتف صوت النبوّة في المجتمع، فسلك بعضهم طريق الإيمان و بقي الآخر على طريقه القديمة، وقيمه القديمة، طريق الجاهلية وقيم الجاهلية.

كما أدّت هذه القيم الجديدة إلى تغيير في المراتب الإجتماعية، لأنّ القيم القديمة التي كانت تجعل أساس الترتيب في البنية الإجتماعية بين الأشخاص أو الفئات متمثلاً في المال، أو السلالة والنسب، أو القوة الحربية... هذه القيم قدزالت وحلّت محلها قيمة جديدة غدت هي الأساس الّذي يقوم عليه الترتيب الإجتماعي، وهي التقوى[١]، ومن ثم فقدأعزّ الله بالنبي... بالقيم الّتي جاء بها الذّلة الّتي كانت تفرضها القيم الجاهلية القديمة على الفقراء والمستضعفين، وأذلّ به العزّة الّتي كانت تنشأ من قيم غير إيمانية.

من تاريخنا الإسلامي تحفل السيرة النبوية بمئات من الشّواهد والنّماذج.

فالأذلّاء في الجاهلية كعمّار بن ياسر و بلال الحبشي غدوا أعزاء في المجتمع الجديد، لأنّ القيم الجاهليّة الّتي كانت تفرض عليهم أنْ يكونوا أذلاء في مرتبة آجتماعية متدنية قدزالت بالإسلام. وجاء الإسلام بقيم جديدة غيّرت موقعهم في المجتمع فجعلتهم من النخبة، والأعزاء في الجاهلية غدوا أذلّاء لأنّ القيم الّتي كانوا يتكئون عليها و يستمدون منها آعتبارهم الإجتماعي و يتبوّؤن مركز النخبة فيه... هذه القيم قدزالت بالإسلام وحلّت محلّها قيمة جديدة هي التقوى، وحيث أنهم لم يتحلّوا بهذه القيمة الجديدة فقدغدوا من الأذلّاء

*

١. في شرح مفهوم التقوى الإسلامي و بيان مكوّناته وأبعاده راجع كتابنا (دراسات في نهج البلاغة) فصل: المجتمع والطبقات الإجتماعية.

وثمة نصوص في نهج البلاغة تحدث فيها الإمام عن حالة العرب بالنسبة إلى تأثير النبوّة في أوضاعهم الحياتية والمعنوية.

ففي النص التالي صوّر أميرالمؤمنين حالة المجتمع العربي الجاهلي عشية بعثة النبي محمد(ص)، في جميع وجوه حياته الّتي كان عليها من النّواحي الرّوحية والإجتماعية والأخلاقية. قال عليه السّلام:

«إنّ اللهَ بَعَثَ مُحمّداً(ص) نَذِيراً للْعالَمِينَ، وَأَميناً عَلَى ٱلتَّنْزيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ عَلَىٰ شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دارٍ مُنِيخُونَ[1] بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ[2] تَشْرَبُونَ ٱلكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الجَشِبَ[3]، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحامَكُمْ، الأصنام فِيكُمْ مَنصوبَةٌ وَٱلآثامُ بِكُمْ مَعْصُوبةٌ[4]»[5].

إنّهم كانوا على شرّ دينٍ.

كانت الأصنام فيهم منصوبة يتوجهون إليها بالعبادة والضراعة، كانوا، إذنْ، وثنيّين، وكانت وثنيّتهم، الّتي ٱستعاروها من هنا وهناك، بدائية متخلفة خالية من الجمال الفنّي والذوق إضافة إلى خلوها، بطبيعة الحال، من كلّ مضمون روحي سليم

وكانوا في شر دارٍ.

كانت دارهم البادية القاحلة المجدبة الّتي تفرض عليهم شروط حياة صعبة قاسية جعلت من حياتهم سلسلة من الأخطار والمتاعب وألوان الحرمان.

وكانوا ـ بسبب ماهم عليه من إفلاس روحي لأنهم على شرّ دين، ومن تخلف في حياتهم المادّية لأنهم في شرّ دار ـ... بسبب هذا وذاك ـ كانوا على شرّ حال في حياتهم الإجتماعية وعلاقاتهم الإنسانية، فهم يقطعون أرحامهم، وهم يسفكون دماءهم.

١ . منيخون: مقيمون.

٢ . خشن: من الخشونة. والحيّات الصم أخبث أنواع الحيّات. كنى عن صعوبة مناخ البادية وقساوة العيش فيها.

٣ . الكَدِر: الماء الّذي يخالطه الطين وغيره، والجَشب من الطعام: الغليظ الخشن كناية عن بؤس حياتهم وفقرها، وانعدام وسائل الراحة فيها.

٤ . معصوبة: مشدودة، كناية عن استمرارهم على المعصية.

٥ . نهج البلاغة: رقم الخطبة ٢٦.

وهم -بالإجمال- يكدحون بأستمرار لتوفير حياة متخلفة، قاسية، فقيرة في الشكل والمضمون في ظل علاقات آجتماعيّة وإنسانيّة فاسدة.

*

في نصّ آخر يؤرخ الإمام للتغيير الّذي أدخلته النبوّة على حياة العرب، و يسجّل ملامح عامة للحال الّتي آنتقلوا منها وللحال الّتي صاروا إليها بعد الإسلام.

قال عليه السّلام:

«أمّا بَعْدُ فَإنَّ اللهَ سُبْحانَهُ بَعَثَ مُحَمّداً(ص) وَلَيْسَ أحَدٌ مِنَ العَرَبِ يَقْرأُ كِتاباً ولايَدّعِي نُبُوَّةً وَلاَوَحْياً، فَقاتَلَ بِمَنْ أطاعَهُ مَنْ عَصاهُ، يَسُوقُهُمْ إلَىٰ مَنْجاتِهِمْ، وَيُبادِرُ بِهِمُ السَّاعَةَ أنْ تَنْزِلَ بِهِمْ يَحْسِرُ آلْحَسِيرُ وَيَقِفُ الكَسِيرُ[١] فَيُقِيمُ عَلَيْهِ حَتّى يُلْحِقَهُ غَايَتَهُ، إلّا هالِكاً لاَخَيْرَ فِيهِ، حَتّىٰ أرأهُمْ مَنْجَاتَهُمْ[٢] وَبَوّأهُمْ مَحَلَّتَهُمْ[٣]، فَأسْتَدارَتْ رَحَاهُمْ[٤] وَآستقامَتْ قَناتَهُمْ»[٥].

كان العرب أمّيّين لايقرأون ومن ثمّ فقد كان الجهل سائداً فيهم، وكانوا بعيدي عهد بالنبوّات ورسالات السماء ومن ثم فقد كانت حياتهم الروحية فقيرة هزيلة مشوّهة. وقد جهد رسول الله في إخراجهم من الظلمات... كلّ الظلمات: ظلمات الروح والعقل والحياة، إلى كلّ النور، من التخلف إلى التقدم، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن العمى الرّوحي إلى نعمة الإيمان الكبرى.

و بذلك بلغهم ساحل النجاة في الدنيا والآخرة.

و بذلك أعطاهم دوراً عالمياً - بما هم مسلمون - يحملون فيه الهدى والنور والكرامة إلى جميع الأمم بعد أن كانوا كمية مهملة لاقيمة لها ولاقدر ولادور.

١ . الحسير هو الّذي أصابه الإعياء والتعب. والكسير المكسور الّذي لايقوى على السير، يريد أنّ النبي كان تحريضه على الإسلام وإشفاقه على المسلمين يلاحظ حال من حدثت عنده شبهة أو خالط قلبه ريب في الدّين فلا يزال يرشده برفق وحب حتى يزيل من قلبه الريب ويجلو عن عقله الشبهة.

٢ . منجاتهم: مابه نجاتهم وهو الإسلام.

٣ . محلتهم: مركزهم في المجتمع العالمي، وكونهم ذوي رسالة عالمية هي الإسلام.

٤ . استدارة الرّحى كناية عن وفرة الأرزاق. واستقامة القناة كناية عن صلاح الحال واستقرار الحياة.

٥ . نهج البلاغة: رقم الخطبة ١٠٤.

وبذلك أعطاهم لين الحياة، وكرامة الحياة، واستقرار الحياة.
ولم تعد حياتهم قاسية صعبة، بل لقد استدارت رحاهم بالأرزاق.
ولم تعد حياتهم متوجسة متوحشة، بل لقد استقرت واطمأنت.
واستقامت قناتهم لم تعد مشرعة لأجل العدوان أو لأجل رد العدوان.

*

سلام الله وتحياته على جميع الأنبياء والمرسلين.

٢ ـ وعي التّاريخ

من المؤكّد أن الإنسان العربي الجاهلي ـ قبيل الاسلام ـ كان يعوزه الوعي التاريخي بالمعنى الّذي عرفته الشعوب المتحضرة ذات الثقافة المدوّنة، وذات المؤسّسات السياسيّة والإدارية الرّاسخة العريقة. هذا فضلاً عن أن يكون الوعي التاريخي بالمعنى الّذي عرفه إنسان العصور الحديثة قدوجد لدى الإنسان العربي الجاهلي قبيل الإسلام.

وهذا الحكم ينطبق بوجه خاص على عرب الشّمال، وإنْ لم يكن عرب الجنوب ـ كما سنرى ـ أفضل حالاً منهم بكثير.

فقد كان العربي الجاهلي، قبيل الاسلام ـ يعيش حياة البدواة بما يلزمها من تنقل وارتحال طلباً للكلأ وللماء، ومن ثم لم يكن لدى العربي مؤسسات ثابتة، ونظم سياسية وإدارية.

وكانت الأمّية غالبة على هذا المجتمع، ومن ثم فلم يُنشئ ثقافة مدوّنة بأيّ نحو من الأنحاء إلّا نقوشاً نادرة لا تبلغ أن تكون ثقافة مدوّنة تسهم في تكوين الشخصية الثقافية للإنسان ـ لانستثني من ذلك عرب الجنوب الّذين كانوا قدفقدوا قبيل الإسلام ـ بأنهيار نظام الرّي عندهم ـ الكثير من سماتهم كشعب متحضر له ماضٍ عريق، وغدوا أقرب إلى البداوة والأميّة.

وكانت الحياة من البساطة والسذاجة بحيث أن أحداثها البارزة كانت نادرة جداً، ومحدودة المدى جغرافياً وبشرياً، وهذه الأحداث هي الّتي شكّلت مادة مايسمى «أيام العرب» الّتي سنعرض للحديث عنها بعد قليل.

كما لم يكن لدى العربي الجاهلي شعور بالزمن المستمر كمفهوم حضاري، كان

الزمن عنده مجرّد تعاقب للظواهر الفلكية والفصول. ومن المعلوم أنّه لم يكن لدى العربي الجاهلي تقويم.

ونتيجة لكل هذه العوامل لم تتكوّن لدى العربي أية خبرات تاريخية ماضية ذات شأن، ناشئة من وقوع الأحداث نفسها من ناحية والشعور بها من ناحية أخرى -لاأحداث مشتتة غير مترابطة- بل في نطاق نظام للتعاقب الزّمني وللعلاقات الداخلية فيما بينها.

و بعبارة أخرى: لم يكن لدى العربي الجاهلي شعوراً بأستمرار الأحداث وديمومتها، وتفاعلها الداخلي، وعلاقاتها بحاضره، وإمكانات تأثيرها في المستقبل على النحو الذي يصح أنْ يسمّى وعياً تاريخياً. لقد كان وعي الماضي على هذا النحو لدى العربي الجاهلي قبيل الإسلام معدوماً.

نعم، لقد كان ثمّة وميض من الشّعور بالماضي لدى العربي الجاهلي.

كانت الذّاكرة تحمل صوراً غامضة، هلاميّة الشّكل ومشوّهة لهذا الماضي ناشئة من القصص الّتي كانت تسمّى «الأيام»، ومن العناية بالأنساب. لقد كانت «الأيام» و الأنساب كما «البعد التّاريخي» للإنسان العربي.

إنّ هذا الوميض من الشّعور بالماضي لايرقى، بالتأكيد، إلى أنْ يكون وعياً تاريخياً بالمعنى الّذي نفهمه الآن.

فقصص الأيام نادراً ماتملئها الأحداث الكبرى ذات الشّأن السّياسي والإنساني وهو مايعطي التاريخ حقيقته ومعناه. وغالب أحداثها يتكوّن من معارك صغيرة بين مجموعات قبلية، و يعطيها الخيال الشعري والنصوص الشعرية المرافقة لها وهجاً وحجماً غير واقعيين.

كما أنّها تفقد عنصر الترابط فيما بينها، ولا تأخذ في جميع الأحوال بنظر الأعتبار عنصر السببيّة، ولا تقوم بينها علاقات داخليّة.

وهي خالية من عنصر الزمن، وخلوّها من عنصر الزمن ليس ناشئاً من إهمال، بل ناشئ من عدم إدراك العربي الجاهلي لعامل الزمن التاريخي كما أشرنا آنفاً.

وكانت قصص الأيام تتداول في حلقات السّمر الّتي تعقد أمام الأخبية والخيام للتسلية والمتعة، وللمفاخرة في بعض الحالات. ولم تكن تتداول كمادة علمية. والرأي الراجح أنها لم تدوّن على الإطلاق.

والأنساب وإنْ كانت تدلّ على شعور بالماضي من خلال وعي الإنتماء إلى الآباء الّذين تشتمل على ذكرهم شجرة النسب القبلية، إلّا أنّ علمنا بأنّ شجرات الأنساب كانت تقتصر على مجرّد ذكر الأسماء فقط دون أنْ تحتوي على أية مادة تاريخية، علمنا بهذا الوضع لشجرات الأنساب التي كانت تتداول عن طريق الرّوايات الشّفوية يجعل قيمتها كمصدر لتكوين الوعي التاريخي معدومة.

ومن المؤكّد أنّ شجرات الأنساب في العصر الجاهلي لم تعرف أيّ شكل من أشكال التدوين ليتيح فرصة إضافة مادّة تاريخيّة إليها. ولم تدوّن شجرات الأنساب في كتب إلّا في عصر إسلامي متأخّر نسبيّاً.

و يظهر لنا هذا الوميض من الشعور بالماضي لدى العربي الجاهلي في الشعور الّذي يصور مواقف أخلاقية للشاعر في مجالات الحرب، والكرم، والوفاء، وما إلى ذلك، حيث تدفع الشاعر خشيته من (أحاديث الغد) الّتي تعكس مسلكية غير نبيلة إلى أنْ يجعل سلوكه منسجماً مع قيم النبالة كما تقضي بها أخلاقيات المجتمع الجاهلي فيكون وفياً، وشجاعاً حتى الموت، وكريماً...

هذا الشعور يمكن أنْ يكون نواة للوعي التاريخي، ولكنّه لايرقى، بطبيعة الحال، إلى أنْ يكون وعياً تاريخياً بالمعنى الّذي حدّدناه آنفاً. إنّه وعي ناشئ عن قيم أخلاقية بدوية الطابع، وليس عن وجود تاريخ يستوعبه الشعور والوجدان، وهو مقصور على حالات فردية لم تبلغ أنْ تكون وعياً عاماً. وهو شعور بالخشية من تصرّف شخصي أو موقف شخصي قد يدفع الآخرين إلى إدانته، وليس شعوراً بإنجازات الآخرين وتفاعلاً معها.

*

كان هذا حال العربي الجاهلي

ولكن الحال تغيّر بعد ظهور الإسلام تغيّراً كاملاً.

إنّ القرآن الكريم والسّنّة الشريفة قد كشفا للعربي تدريجاً عن عمقه في الزمان بأعتباره مسلماً. وغدا القرآن والسّنّة يغذيان على مهل وعي المسلم بعمقه التاريخي من خلال القصص الّتي تؤرخ للأمم الماضية، وأنبيائها، ومواقفها منهم بأعتبارهم أنبياء، وحالات ازدهارها، وآنحطاطها، وفنائها.

ومن خلال هذا الوعي أدرك المسلم أنّه بإسلامه، وجهاده اليومي -بالسيف والكلمة- في داخل الجماعة الإسلامية الّتي تبني نفسها بعين الله وعلى يد رسول الله، وفي مواجهة المشركين... أدرك بوضوح كامل أنّه بعمله اليومي هذا يصنع تاريخاً موصولاً بما وعاه من تاريخ الأمم الماضية كما تعلّمه من الكتاب والسنة. وهكذا وجد الوعي التاريخي لدى الإنسان المسلم.

*

وللتّاريخ وظيفة تتعدى شعورنا بالإستمرار والديمومة. وهذه الوظيفة تربوية أخلاقية. لايعني هذا أنّ التاريخ يتحوّل إلى مادّة وعظية فقط، فإنّ البحث والنقد غرضان من أغراض التاريخ بلاشك، ولكن الوظيفة النهائية بعدهما هي، كما قلنا، تربوية أخلاقية.

وهذه الوظيفة تستمدّ معالمها وطبيعتها من طبيعة النهج الّذي تسلكه الأمة في بناء نفسها، ومن طبيعة الدور الّذي تعد نفسها للقيام به في محيطها الإقليمي أو على المستوى العالمي، ولذا نرى أنّ كلّ أمّة ذات نهج فكري مميّز لشخصيتها تجعل التاريخ مادة بانية لهذا النهج الّذي آرتضته.

وهذا لايعني - بطبيعة الحال - أنْ يحرّف التاريخ ليكون أداة دعائية وسياسيّة. إنّ الأمانة للحقيقة يجب أنْ تكون دائماً مرعيّة، وإنّما يعني أنّ التاريخ ليس مادة ترف فكري وتسلية. إنّه مادة شديدة الخطورة إذا تولّى آستعمالها في الشأن العام رجال لايقيمون للأخلاق وزناً ولاتحركهم روح رسالية، وأجهزة كذلك... رجال وأجهزة يحركهم التعصب والغرور القومي والعنصري... في هذه الحالة قديوجّه التاريخ

ليكون مبرّراً نظرياً وعاملاً نفسياً لدى الجماهير يخدم الطّغيان والإتجاهات العدوانيّة لدى السّياسيّين ورجال الحرب ضد أمة أخرى، وفي هذه الحالة يتعرض التّاريخ للتّزو ير والتّحريف.

والتّاريخ حافل بأمثلة عن تسخير التاريخ لغايات غير أخلاقية وغير رسالية في العصور القديمة وفي العصر الحديث.

وللتاريخ في الإسلام ـ آنطلاقاً من هذا الفهم ـ وظيفة تتّصل بطبيعة الإنسان المسلم وطبيعة المجتمع الإسلامي.

إنّ الإنسان المسلم إنسان أخلاقي يعتنق رسالة عالمية، والمجتمع الإسلامي مجتمع أخلاقي وذو رسالة عالمية.

وإذنْ فالتاريخ ينبغي أنْ يخدم الرّسالية والأخلاقية في علاقات المسلم الداخلية والخارجية، كماينبغي أنْ يخدم الرّسالة والرّوح الرّسالية في العالم.

وكلّما حدث في سلوك المسلم أو سلوك الجماعة الإسلامية آنحراف عن الأخلاقية أو آنحراف عن الرّوح الرّسالية في ممارسة الحياة والتعامل مع الآخرين فإنّ التاريخ يستعمل، إلى جانب الوسائل التربو ية الأخرى والتنظيمية لتصحيح النظرة الخاطئة، وتقويم مسار الفرد والمجتمع.

والقرآن الكريم حافل بالشواهد على هذه الحقيقة نذكر منها شاهداً مميّزاً لأنّه يتضمن تعبيراً غدا مصطلحاً إسلامياً في الشّأن التاريخي، هو مصطلح «أيام الله» الّذي يعني الأحداث الكبرى في تاريخ كلّ أمّة سواء أكانت نجاحات كبرى وانتصارات باهرة أو نكبات عظمى وآنهيارات مأساو ية.

وقد ورد هذا التعبير (أيام الله) في القرآن الكريم مرة واحدة فقط، وذلك في سياق الآيات الكريمة الّتي تضمنت بيان تربية وتوجيه نبيّ الله موسى بن عمران سلام الله عليه لبني إسرائيل وهدايتهم إلى الإيمان الصحيح، ورفع مستوى إدراكهم من حالة الجهالة والبدائية والماديّة إلى المستوى الإيماني ـ الحضاري. قال الله تعالى:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللهِ. إِنَّ

فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ»[١].

وورد ذكر هذا المصطلح في نهج البلاغة في موضعين:

أحدهما في كلام للإمام عند تلاوته قوله تعالى (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ...)[٢] قال في وصفهم:

«...وَمَا بَرِحَ لِلهِ.. عِبادٌ نَاجَاهُمْ[٣] فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا[٤] بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الأَبْصَارِ وَالأَسْمَاعِ وَالأَفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللهِ، وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَه...»[٥].

وثانيهما في كتاب له إلى عامله على مكّة قثم بن العبّاس[٦]، قال فيه:

«أَمَّا بَعْدُ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ»[٧]

*

من هذا المنطلق، وعلى هذا الأساس كان الإمام عليه السّلام يتعامل في توجيهه الفكري، وفي وعظه، وفي تعليمه وتوجيهه السّياسي مع التاريخ، وكان يوجّه المسلمين إلى أنْ يعُوا التاريخَ على هذا الأساس، وأنْ يتعاملوا مع التاريخ من هذا المنطلق الّذي يخدم الأخلاقية والرّسالية.

ولعلّ الخطبة القاصعة[٨] أفضل مثال على طريقة تعامل الإمام علي مع التاريخ بهدف التربية وتقويم سلوك المجتمع أخلاقياً، وتوعيته بمسؤوليته الرّسالية، وسندرس في

١. سورة إبراهيم (مكيّة - ١٤) الآية: ٥.

٢. سورة النّور (مدنيّة - ٢٤) الآية: ٣٦ و ٣٧.

٣. ناجاهم: خاطبهم بالإلهام.

٤. استصبح: أضاء مصباحه.

٥. نهج البلاغة: رقم النص ٢٢٢.

٦. قثم بن العباس بن عبد المطلب. كان من مساعدي الإمام علي(ع) في تجهيز رسول الله(ص) ودفنه، وهو آخر من خرج من القبر الشريف، ولّاهُ أميرالمؤمنين على مكة، فلم يزل والياً عليها إلى أن استشهد الإمام، واستشهد قثم بسمرقند، كان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية، وقبره في سمرقند مشهور. وقد زرناه أثناء مشاركتنا في المؤتمر الدّيني.

٧. نهج البلاغة: (باب الكتب) رقم النص ٦٧.

٨. الخطبة القاصعة رقمها في نهج البلاغة: ١٩٢.

فصل آت جوانب من هذه الخطبة.

ويمكن أنْ نكوّن فكرة مقاربة للحقيقة عن جهود الإمام الفكرية في حقل التوعية بالتاريخ إذا لاحظنا أن الكثير مما ورد في نهج البلاغة ـ وهو قليل من كثير من كلام الإمام وخطبه ـ إنْ لم يكن أكثر ماورد في كلامه في النهج من المواد التالية (و. ع. ظ/ ح. ذ. ر/ ز. ج. ر/ ع. ب. ر)... كان الإمام قدخاطب به الناس في حالات شتّى وأزمان شتّى، موجهاً تفكيرهم نحو التاريخ بهدف التربية وتقويم السّلوك الفردي والإجتماعي في شؤون الحياة عامة من روحيّة وآجتماعية وسياسيّة. ولايختصّ مارُوي عنه في هذا الشأن بالوعظ وحده كما ربما يتوهم البعض.

ومن أمثلة ماأشرنا إليه آنفاً قوله عليه السّلام في مواضع من نهج البلاغة:

«وعظتم بمن كان قبلكم...» «...فاتعظوا عباد الله بالصبر النّوافع...» «...واحذروا مانزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكّروا في الخير والشرّ أحوالهم، واحذروا ان تكونوا أمثالهم» «...وَآتّعِظُوا فِيها بِالّذِين قَالُوا (مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوَّةً)»[1].

إلى أمثال هذه العبارات الّتي ورد كثير منها في خطبه وكتبه.

فقد كان الإمام يقاتل بكل سلاح نزعه الشرّ والإنحراف وتيّار الفتنة الّتي بدأت تجتاح المجتمع الإسلامي. وكانت توعية المجتمع بالتّاريخ أحد هذه الأسلحة.

١. سورة فصّلت (مكّيّة ـ ٤١) الآية ١٥: فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً...».

٣ ـ التّاريخ يعيد نفسه

هل يعيد التاريخ نفسه؟

من البديهي أنّ التّاريخ لايعود مرة أخرى إلى ساحة الحاضر أو المستقبل، إذا أردنا من هذه القضية عودة تفاصيله وجزئيات أحداثه، فالأحداث ليست أشياء مجرّدة تقع في الفراغ دون أنْ تكون لها صلة بالبشر، وإنّما الأحداث بما هي صنع البشر تحمل السّمات الشخصية الخاصة لصانعيها: تحمل طابع مصالحهم الآنية، وأمزجتهم وعواطفهم، وأخلاقياتهم وطريقة فهمهم للحياة... وقدتنعدم هذه السمات الشخصية المميّزة مع أصحابها، ولن تعودَ على الإطلاق. وإذن، فالتاريخ بهذا المعنى لايعود ولايتكرر.

إنّ ماحدث في الماضي قد حدث مرة واحدة، ولن يحدث مرة أخرى، لن يتكرر، على الإطلاق.

أمّا إذا أردنا من هذه القضية عودة نمط الحركة التّاريخيّة ومظاهره العامة وآثارها النّفسيّة والإجتماعيّة في المجتمع فإنّ التاريخ يعود بالتأكيد حين تتوفّر في الحاضر... في نسيجه الإجتماعي وعلاقاته الإنسانية الأسباب الموضوعية الّتي أدّت إلى نشوء نمط الحركة التاريخيّة في الماضي.

إنّ الإنسان هو الإنسان في كلّ زمان.

إنّه يتحرك في الزّمان والمكان مدفوعاً ـ فرداً وجماعةً ومجتمعاً ـ بمصالحه وعلاقاته وعواطفه، والعقائد والشرائع والمثل والقيم الأخلاقية والرّوحية إذا تأصّلت فيه وتعمقت في وجدانه وكيّفت نظرته إلى الكون والحياة والإنسان فإنها تكون قادرة على

أنْ تدخل تغييراً عميقاً على عواطفه ومصالحه وعلاقاته في المجتمع والعالم، ومن ثمّ فإنّها تكون قادرة على تغيير تاريخه ونقله إلى مسار جديد، مادامت لا تواجه عقبات تشلّ فاعليتها وتأثيرها.

أمّا إذا فشلت العقائد والشرائع والمثل والقيم الأخلاقية والرّوحية في إدخال التغيير المناسب لها على تكوين الإنسان النفسي وعلى تقديره لمصالحه، لأنها لم تتأصّل في أعماقه ولم تغيّر نظرته إلى الكون والحياة والإنسان، فإنّ تاريخه في هذه الحالة سيتكرر.

إنّ هذا التاريخ الجديد لن يحمل نفس السّمات والخصائص الماضية في الغالب، ولكنّه يحمل نفس الروح، ويخلّف في المجتمع نفس الآثار الّتي كانت في الماضي تحمل أسماء جديدة وتقدم نفسها بمبرّرات جديدة لا تعدو أنْ تكون مجرّد قشرة خادعة يستطيع المؤرخ الباحث أنْ يكتشف ماوراءها فيتجاوزها إلى العمق ليجد الواقع القديم تحت الأشكال الجديدة[١].

*

في أول خطبة خطبها أميرالمؤمنين عليّ بعد أنْ بويع بالخلافة في المدينة نرى أنّه قدلاحظ عودة الأشكال القديمة للإنقسامات القبلية والفئوية داخل المجتمع العربي الجاهلي إلى المجتمع الإسلامي في عهد عثمان و بعد مقتله بكلّ ماكانت تحتويه هذه الأشكال من روح قبلية وعنصرية، وأخلاقيات جاهلية رجعيّة.

وقد كانت عودة هذه الأشكال القديمة حاملة مضمونها الرجعي نتيجة لضمور المثل العليا والقيم المؤثرة في حركة التاريخ الإسلامي، ونتيجة لضعف مؤسسة الخلافة في عهد عثمان، هذا الضعف الّذي مكّن القوى القديمة والقيم القديمة ـ الّتي لم تكن قدماتت بعد، وإنّما كانت تعاني من حالة خمود وضمور ـ مكّنها من أنْ تستعيد فاعليتها، وتعود إلى التأثير في حركة التاريخ تحت شعارات مناسبة تنسجم مع الإسلام في

١ . من الظواهر الهامة الّتي نقدّر أنّها تستحق من المفكرين والمؤرخين بحثاً معمقاً، ظاهرة الإنقسامات الإقليمية في العالم العربي، فإنّنا نقدّر أنّها تعبير جديد عن القبلية، تحت أسماء جديدة ومبرّرات تلائم المناخ الثقافي الحاضر والوعي السياسي السائد. ونقدّر أنّ فشل فكرة الوحدة العربية لايرجع فقط إلى عمل الإستعمار التخريبي وإنّما نشأ من وجود استعداد للتشرذم أعان الإستعمار على رسم سياساته وإنجاحها في هذا المجال ولولا ذلك لما وُفّق الإستعمار إلى بلوغ غايته.

الشكل الخارجي.

لقد عادت إلى الظهور والفاعلية تلك القيم والمثل الجاهليّة القديمة الّتي كانت تقود حركة التاريخ في المجتمع العربي وترسم ملامح هذا المجتمع وتوجه خطاه قبل بعثة الرّسول الأكرم وانتصار الإسلام.

وقد رأى أميرالمؤمنين عليّ هذه القيم البائدة العائدة من خلال رصده للظواهر الجديدة الّتي تبدو في حركة الجماعات داخل المجتمع الإسلامي، وحركة القيادات الّتي توجّه هذه الجماعات سراً وعلانيةً.

وقد رأى مع ذلك الأفاعيل التي ستنجم عن هذه الحركة الرجعية للتاريخ في الإسلام، والمآسي الكبرى الّتي ستنزل بالمسلم فرداً وجماعةً ومجتمعاً ودولةً ومؤسساتٍ نتيجة لانبعاث هذه الرّوح الشّريرة من جديد.

قال عليه السّلام:

«ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ[1] وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ[2]. إنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ العِبرُ عَمّا بَينَ يَدَيْهِ مِنَ المَثُلاتِ[3] حَجَزَتْهُ التَّقْوى عَنْ تَقحُّمِ الشُّبُهاتِ[4]، أَلاَ وَإنّ بَلِيَّتَكُم قَدْعَادَتْ كَهَيْئَتِها[5] يَومَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسلَّم. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ[6] بَلْبَلَةً، وَلَتُغَرْبَلُنَّ[7] غَرْبَلَةً، وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ القِدْرِ[8] حَتّىٰ يَعُودَ أَسْفَلُكُم أَعْلاكُمْ، وَأَعْلاكُمْ أَسْفَلَكُم...»[9].

١ . رهينة: من الرهن. جعل ذمته رهناً على مايقول.

٢ . زعيم: كفيل بصدق مايقول.

٣ . العبر: ماأصاب النّاس من «مثلات» عقوبات إذا دعاها الإنسان على سبيل الإعتبار، فيتعظ بتجربة الّذين أصابتهم العقوبات من قبله.

٤ . الشّبهات: الأفعال والمواقف الغامضة الّتي لم يبتّ في الشرع الرخصة في فعلها. يريد أنّ العبرة بالماضين تحجر الإنسان عن الوقوع فيا وقعوا فيه من أخطاء.

٥ . رجعت البلية كما كانت في الماضي الجاهلي.

٦ . البلبلة: الإختلاط، كناية عن الأزمات الإجتماعية والثّورات.

٧ . الغربلة: من الغربال: يريد أنّ التجارب الآتية ستميّز المواقف، وتكشف الأشخاص على حقيقتهم.

٨ . السوط: الخلط ـ سوط القدر: كما تمزج مواد الطبخ في القدر، وتختلط وتغلي سيكون المجتمع نتيجة للثّورات والأزمات الإجتماعية.

٩ . نهج البلاغة ـ رقم الخطبة ١٦.

يقول لهم: إنّ البليّة (الفساد الإجتماعي، والإنحطاط الأخلاقي والحضاري) الّتي كانت تسم الحياة العربية في الجاهلية نتيجة لسيادة قيم الجاهلية ونظرة الجاهلية إلى الكون والحياة والإنسان ـ هذه البليّة قد عادت كما كانت عشية بعثة الرسول الأكرم(ص) لأنّ القيم الّتي ولّدت هذه البليّة في الماضي الجاهلي قد دبّت فيها الحياة من جديد على حساب القيم الجديدة الّتي جاء بها الإسلام، هذه القيم الّتي تقلّص نفوذها وتأثيرها، بسبب عوامل متنوعة، على الإنسان المسلم، وأدّى ذلك إلى حدوث ثغرات نفذت منها القيم القديمة فعادت من جديد.

ثم أنذر الإمام علي مجتمعه بأنّ هذه البليّة الّتي عادت ستكون لها آثار مأساوية على المجتمع الإسلامي.

ستنجم عن هذه البليّة الأزمات الإجتماعية والثورات الّتي ستلقي بالمجتمع في غمار حروب أهلية مدمّرة، ولابدّ أنْ تكون هذه الأزمات والحروب الأهلية أضرس، وأعم شراً، وأشدّ فتكاً مِمّا كان يحدث في الجاهلية.

ستكون في المجتمع نتيجة لعودة هذه البليّة بلبلة (آختلاط وتداخل) وشد وجذب ينتج عن الأزمات والثورات و يولّدها.

وسيكون حال المجتمع ـ نتيجة لهذه البليّة العائدة ـ حال القدر التي تغلي على النار وتختلط فيها المواد، ولايستقر على حال، ولاينعم بالطمأنينة، وإنّما هو في قلق دائم، وآضطراب مستمرّ.

سيؤدّي ذلك إلى الغربلة، وتمييز مواقف الرجال والجماعات، لأنّ المحن والأزمات تفرز الفئات الإجتماعية، وتحدّد سماتها.

ولكن كلّ ماسيحدث لن يتضمّن شيئاً من الخير، بل سيعود على المجتمع بالشّرور، وسيؤدّي بالمجتمع إلى التمزق الّذي يشلّ الفاعلية، و يعطّل الطاقات الإيجابية، بل يهددها، و يعوق حركة التقدّم.

ستكون جاهلية تتغشّى بشعارات الإسلام، جاهلية بعثتها القيم الجاهلية الّتي عادت إلى الحياة، فكانت هي، بدل القيم الإسلامية الجديدة، الأسباب الموضوعية

لتحريك الإنسان المسلم في الزّمان والمكان.

هكذا يصوّر الإمام عودة التّاريخ.

*

وفي خطبة أخرى خطبها الإمام بذي قار[١] وهو في طريقه من المدينة إلى البصرة بعد أنْ خرج عليه الزبير بن العوام وطلحة بن خويلد وأمّ المؤمنين عائشة فاتحين بخروجهم أبواب الفتنة الّتي عصفت بالمسلمين، والحرب الأهلية الّتي مزّقت وحدتهم... هذه الفتنة الّتي ولّدتها القيم الجاهلية الّتي تنبّأ الإمام بها في خطبته الأولى... في هذه الخطبة بيّن الإمام عليه السّلام أنّ مسيره لمواجهة المظهر الأول للفتنة هو كمسيره مع رسول الله(ص) لمواجهة قوى الجاهلية، وأنّ الروح المحركة واحدة في الحالين رغم اختلاف المظهر الخارجي الّذي قديوحي للساذجين بخلاف ذلك ، ولكنّه لايخدع الخبير.

قال عليه السلام:

«...أمَا وَٱللهِ إنْ كُنتُ لَفِي سَاقَتِها[٢] حَتّىٰ تَوَلَّتْ بِحَذَافيرِهَا[٣] مَاعَجَزْتُ وَلاَجَبُنْتُ. وإنَّ مَسيرِي هٰذا لِمِثْلِها، فَلأَنْقُبَنَّ[٤] ٱلْبَاطِلَ حَتّىٰ يَخْرُجَ ٱلْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ. مَالِي وَلِقُرَيشٍ!! وَٱللهِ لَقَدْقَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإنّي لَصَاحِبُهُمْ بِالأَمْسِ كَمَا أنَا صَاحِبُهُمُ ٱلْيَومَ»[٥].

كان الإمام يتحدث عن شأن الجاهلية في مواجهة الإسلام، وعن كفاحه مع رسول الله(ص) ضد الجاهلية. ثم بيّن أنّ مسيره هذا إلى البصرة لمثل ما كان يكافحه من مظاهر عناد الجاهلية في حياة رسول الله(ص).

إنّ التاريخ قد عاد، ولكن تحت شعارات جديدة.

١ . ذو قار: موضع قريب من البصرة. اشتهر في التاريخ بآعتباره الميدان الّذي جرت فيه، أول ظهور الإسلام، في سنة ٦١٠م معركة بين الفرس والعرب حيث هاجم ثلاثة آلاف عربي من قبيلة بكربن وائل المنطقة الفراتية، وهزموا الفرس هزيمة حاسمة في ذي قار.

٢ . السّاقة: مؤخرة الجيش الّتي تسوقه. شبه الجاهلية بجيش مهزوم يطرده و يلاحقه.

٣ . وَلّت بحذافيرها: ذهبت وطردت بأسرها (الجاهلية).

٤ . النقب: الثقب.

٥ . نهج البلاغة: رقم الخطبة ٣٣.

قال ابن أبي الحديد في شرح هذا النص:

«وشبّه عليه السّلام أمر الجاهلية أمّا بعجاجة ثائرة، أو بكتيبة مقبلة للحرب، فقال: إنّي طَردتُها، فَولّتْ بَيْنَ يديّ، وَلَمْ أزلْ فِي سَاقِتها أنَا أطردها وَهِي تنطرد أمامِي، حَتّىٰ نَولّتْ بِأسْرِهَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْها شَيءٌ، مَاعَجَزتُ عَنْهَا، ولاَجَبُنتُ مِنها،

«ثمّ قال: وَإنّ مسيري هٰذا لِمِثْلِها، فَلأنْقُبنّ الباطِلَ، كأنّه قدجعل الباطل كشيء قداشتمل على الحق واحتوى عليه، وصار الحق في طيّه، كالشيء الكامن المستتر فيه، فأقسم لَينقُبنّ ذلك الباطل إلى أنْ يخرج الحق من جنبِهِ»[1].

وهكذا يصوّر الإمام عودة التاريخ حين تنشط الأسباب القديمة الّتي أنتجت الأحداث والمواقف القديمة، فتؤدّي إلى تكرار المواقف والإتجاهات ولكنْ تحت شعارات جديدة تتناسب مع الثقافة السائدة في المجتمع.

وثمّة نصوص أخرى، غير ماذكرنا، منثورة في نهج البلاغة، تتضمّن الدّلالة على هذه الحقيقة.

١. ابن أبي الحديد ـ شرح نهج البلاغة بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى: ١٣٧٨هـ=١٩٥٩م/ج٢. ص١٨٥ ـ ١٨٦.

٤ ـ مصارع القرون عوامل انحطاط الأمم

«مصارع القرون» تعبير استعمله الإمام في إحدى خطبه فقال «وَٱعْتَبِرُوا بِمَا قَدْرَأَيْتُم مِنْ مَصَارِعِ ٱلقُرُونِ قَبْلَكُمْ»[١]. و يريد به الأمم الماضية/أو الأجيال الماضية، فالقرن في اللغة جماعة الناس في عصر واحد[٢]. فالإمام في هذا التعبير يوجّه الأفكار نحو التأمل في مصائر الأمم والشعوب، وكيف ولماذا تضعف وتتفسخ و يصيبها الإنحطاط والتخلف؟.

و يتساءل الإمام في خطبة أخرىٰ ـ ربّما تكون آخر خطبة، أو في أواخر كلامه في حشد عام[٣] ـ عن مصير الدّول والشّعوب القديمة، فيقول مخاطباً أصحابه:

«...وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً، أَيْنَ العَمالِقَةُ وَأَبْناء ٱلعَمالِقَةِ؟ أَيْنَ ٱلفَراعِنَةُ وَأَبْناءُ الفَراعِنَةِ؟ أَيْنَ أَصْحابُ مَدائنِ الرَّسِّ الّذينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَأُوا سُنَنَ المُرْسَلِينَ[٤]، وَأَحْيَوْا

١. نهج البلاغة: رقم الخطبة ١٦١.

٢. وردت هذه الكلمة كثيراً في الكتاب الكريم في سور مكيّة ومدنية ، والمراد بها، على الظاهر، هذا المعنى. وورد له في كلام بعض أهل اللغة تفسير زماني، فقيل: القرن مدة أغلب أعمار الناس، وهو سبعون سنة، وقيل: ثمانون، وقيل: ثلاثون سنة. وقيل: القرن أهل عصر فيه نبي أو فائق في العلم، قلّ زمانه أو كثُر ـ وهذا التفسير الأخير يلحظ معنى حضارياً للكلمة.

٣. قال الشّريف في نهج البلاغة: «رُوي عن نوف البكالي، قال: خطبنا بهذه الخطبة أمير المؤمنين علي(ع) بالكوفة، وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة ابن هبيرة المخزومي، وعليه مِدرعة من صوف، وحمائل سيفه من ليف، وفي رجليه نعلان من ليف، وكأن جبينه ثَفِنَةُ بعير، فقال عليه السلام... قال: وعقد للحسين عليه السّلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد رحمه الله في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أخر، وهو يريد الرّجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتّى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله فتراجعتِ العساكر، فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذّئاب من كلّ مكان».

٤. ورد ذكر هؤلاء في الكتاب الكريم مرتين: في سورة الفرقان (مكّيّة ـ ٢٥) الآية ٣٨ «وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ ٱلرَّسِّ وَقُروناً ←

سُنَنَ ٱلْجَبَّارِينَ؟ أَيْنَ الَّذِينَ سَارُوا بِالْجُيُوشِ، وَهَزَمُوا بِالأُلُوفِ، وَعَسْكَرُوا ٱلْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا الْمَدائن؟»[1].

*

لقد كان الوضع الداخلي لمجتمع الإمام أثناء حكمه العاصف يقتضيه أن يستعين بالتاريخ ليواجه ما كان يتردّى فيه هذا المجتمع ـ في العراق بوجه خاص ـ من انقسامات قبلية، ومواقف عنصرية، وتسلط لرؤساء المجموعات القبلية على قبائلهم، وافتتان كثير من النابهين في المجتمع والقياديين في المجموعات القبلية بالسخاء الّذي كانوا يتسامعون به عن معاوية بالنّسبة إلى أنصاره السياسيين... وكان يرى ببصيرته النافذة أنّ هذه الطريق تؤدي بالمجتمع إلى الكارثة: ستنهكه النّزاعات الدّاخلية، وتخلخل بنيانه وتذهب بتماسكه، وتدفع بقياداته إلى خيانة مجتمعها والإرتماء في أحضان الحكم الأموي الإستبدادي في سوريا، وتفقد العراق دوره القيادي في دولة الخلافة، فتجعله تابعاً صغيراً للشام.

وكان الإمام علي يواجه هذا الخطر بشتى الأساليب، وعلى مختلف المستويات.

ومن الأساليب الّتي استعملها على المستوى الشعبي أسلوب التنظير بالتاريخ لحال مجتمعه، عاملاً على أنْ يكوّن لدى الناس العاديّين وعياً تاريخيّاً، ورؤية للحاضر واقعيةً تدرك مافيه من خطورة وإحساساً بمخاطر الممارسات الّتي تسود المجتمع... كلّ ذلك لأجل أنْ يبعث في نفوسهم وعقولهم الحذر والتبصّر حين تعرض عليهم خيارات سبّبت للأمم الماضية نكبات أضعفتها أو حطمتها.

ومن الأمور الهامة الّتي يجب التّنبيه عليها أنّ الإمام في تصويره لانحطاط الأمم ومصارع القرون لايردّ ذلك إلى أسباب غيبية، وإنّما يعرض أسباباً موضوعية لهذا الإنحطاط كما سنرى.

بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً» وفي سورة ق(مكية ـ ٥٠) الآية ١٢ «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ». والرّس في اللّغة: البئر المطوية بالحجارة، والرّس اسم بئر كانت لبقية من ثمود ـ أو لقوم بعد ثمود ـ أرسل الله إليهم رسولاً فكذّبوه فأهلكهم الله. وقيل أنّ الرّسّ اسم نهر كان هؤلاء على شاطئه.

١. نهج البلاغة: رقم الخطبة ١٨٢.

وأفضل الأمثلة الّتي يحتويها نهج البلاغة في موضوعنا هو الخطبة المسماة «القاصعة»[١] وهو يعرض فيها الآفات الّتي تعرّض مجتمع العراق للخطر، و يذكر النظائر التاريخيّة لذلك عارضاً أسباب الإنحطاط.

*

عالج الإمام في هذه الخطبة آفة شديدة الخطورة كانت تتعاظم وتستفحل في مجتمع العراق في ذلك الحين. تلك هي آفة الصّراع الدّاخلي الّذي كان يمزق وحدة المجتمع العراقي و يشلّ فاعليته و ينعكس بآثاره السّيئة وتفاعلاته المشؤومة على سائر دولة الخلافة.

وقد كان هذا الصّراع يبدو للمراقب بوجوه متنوعة:

١ ـ الصّراع القبلي:

فقد نشطت الرّوح القبلية والقيم القبلية، وعادت إلى الظهور فارضة منطقها في رسم خريطة العلاقات الإجتماعية والسّياسيّة داخل المجتمع، وكان ظهور الرّوح القبلية نتيجة لجملة من الأخطاء الّتي ارتكبت في عهد إدارة الخليفة الثالث عثمان بن عفان. وكانت أخطاء في السّياسة، وفي الإدارة، وفي التنظيم الإقتصادي، وفي التّوجيه الثقافي العام.

و يبدو أنّ هذه الرّوح القبلية قد سبّبت تخريباً واسع النطاق داخل المجتمع العراقي، ونرجح أنّ معاوية بن أبي سفيان كان يستغلّها للإمعان في تصديع وحدة مجتمع العراق.

و يبدا أنّ هذه الرّوح القبلية الّتي كان يذكّيها أصحاب المصالح الخاصة

١ . قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الكلمة:

«يجوز أن تسمى هذه الخطبة «القاصعة» من قولهم: قصعت الناقة بجرّتها، وهو أن تردها إلى جوفها أو تخرجها من جوفها لتملأ فاها، فلما كانت الزواجر والمواعظ في هذه الخطبة مردّدة من أوّلها إلى آخرها شبهها بالناقة الّتي تقصع الجرّة. ويجوز أن تسمى القاصعة لأنها كالقاتلة لإبليس وأتباعه من أهل العصبية، من قولهم: قصعت القملة إذا هشمتها وقتلتها. ويجوز أن تسمى القاصعة لأن المستمع لها المعتبر بها يذهب كبره ونخوته، فيكون من قولهم: قصع الماء عطشه، أي أذهبه، وسكنه». شرح نهج البلاغة ـ ج١٣/ص١٢٨.

قدأفلحت إلى حدّ بعيد في تمزيق وحدة المجتمع، وإشاعة روح الشكّ والضغينة بين فئاته السّياسيّة، وداخل كلّ فئة أيضاً. يصوّر لنا ذلك نصّ في إحدى خطب الإمام يحذّر و يؤنّب فيه مجتمعه، قال:

«قَدِ ٱصْطَلَحْتُمْ عَلَى ٱلْغِلِّ فِيمَا بَيْنَكُمْ[١] وَنَبَتَ ٱلْمَرْعَىٰ عَلَىٰ دِمَنِكُمْ[٢]. وَتَصافَيْتُم عَلَىٰ حُبِّ ٱلْآمالِ. وَتَعادَيْتُم فِي كَسْبِ ٱلْأَمْوالِ. لَقَدِٱسْتَهامَ بِكُمُ الخَبث[٣]، وَتاهَ بِكُمُ الغُرُورُ[٤]، وَاللهُ ٱلْمُسْتَعانُ عَلَىٰ نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ»[٥].

وقد روى ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة مايصور التخريب والتمزيق اللّذين كانت تحدثهما هذه الرّوح القبلية، قال:

«وقيل أنّ أصل هذه العصبية وهذه الخطبة أنّ أهل الكوفة كانوا قدفسدوا في آخر خلافة أميرالمؤمنين، وكانوا قبائل في الكوفة، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر، بمنازل قبيلة أخرى، فينادي باسم قبيلته: ياللنّخع! مثلاً، أو يالكنده نداء عالياً يقصد به الفتنة وإثارة الشّر، فيتألّب عليه فتيان القبيلة الّتي مرّ عليها، فينادون: يالتميم! و يالربيعة! و يقبلون إلى ذلك الصائح فيضربونه، فيمضي إلى قبيلته فيستصرخها، فتسلّ السّيوف وتثور الفتن، ولايكون لها أصل في الحقيقة إلّا تعرّض الفتيان بعضهم ببعض»[٦].

ومالايرى ابن أبي الحديد له أصلاً نرى له أصلاً في دسائس معاو ية أوعملائه الّذين نقدّر أنّهم يشجّعون أمثال هذه الممارسات القبليّة، ويمدّونها بمزيد من أسباب

١ . العل: الحقد، يعني: اتفقتم على تمكين الحقد في نفوسكم.

٢ . الدّفن: جمع دفنة، مايتجمد و يتلبد من الضابط وردت الماشية، ينبت عليه العشب ونبتت المرعى عليه: استتر بظواهر النفاق الإجتماعي فيبدو ظاهره سليماً أخضر وواقعه بشع منفر. شهروا أحقادهم الّتي يسترونها بالنفاق فيما بينهم بهذه القذارة الّتي يسترها العشب فتبدو جملة تخدع بظاهرها وهي في الواقع قذرة نجسة.

٣ . استهام بكم: تعلق بكم الشيطان فأغواكم.

٤ . الغرور: مايسبّب الإنخداع.

٥ . نهج البلاغة ـ رقم الخطبة ـ ١٣٣.

٦ . ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج١٣ ص١٦٧ ـ ١٦٨.

الإثارة والهياج ليزيدوا مجتمع العراق إنهاكاً وتمزّقاً. وكذلك نرى لها أصلاً في سياسات رؤساء القبائل الّذين كان نهج عليّ السّياسيّ يهدّد سلطانهم ونفوذهم، فكانوا يشجّعون العامّة والبسطاء على أمثال هذه الممارسات ليثبّتوا سلطانهم على قبائلهم.

٢ ـ الصّراع العنصري:

لقد كان مجتمع العراق، كغيره من بلاد الإسلام في ذلك الحين، يضمّ مجموعات كبرى من المسلمين غير العرب الّذين أدّى التّوسّع في الفتوح خارج شبه الجزيرة العربية إلى احتلال بلادهم في إيران ومستعمرات الإمبراطوريّة البيزنطيّة (مصر وسوريا، وغيرهما)، ومن ثم أدّى إلى دخول كثير منهم في الإسلام.

وقد كان هؤلاء ـ من الناحية النظرية ـ يتمتعون بحقوق مساو ية لحقوق المسلمين العرب كما يتحملون واجبات مساو ية. لقدضمن لهم الإسلام مركزاً حقوقياً مساو ياً تماماً للمسلمين العرب، ولكنهم كانوا من الناحية الواقعية يعانون من التميز العنصري بسبب انطلاق الرّوح القبلية والعصبية العر بية.

وقد ألغى الإمام علي فور تسلّمه السلطة جميع مظاهر التّميز العنصري والعصبية العنصرية الّتي كان يعاني منها، بشكل أو بآخر، المسلمون غير العرب.

وقد أثار ذلك ردود فعل سلبيّة عند زعماء القبائل، فاحتجوا على التسو ية في العطاء بينهم و بين الموالي (المسلمين غير العرب)، واندفعوا ينصحون الإمام عليّاً قائلين:

«يا أمير المؤمنين، أعطِ هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافه من النّاس»[١].

وكان هؤلاء ينظرون في نصيحتهم هذه و ينطلقون في نظريتهم السّياسيّة هذه من التجربة الّتي كان يقوم بها معاو ية بن أبي سفيان.

١ . ابن ابي الحديد: شرح نهج البلاغة.

ولكنّ الإمام علياً كان ينطلق في ممارسته السّياسيّة من قاعدة أخرى، فأجابهم قائلاً:

«أَتَامُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ ٱلنَّصْرَ بِٱلْجَوْرِ فِيمَنْ وَلَيْتُ عَلَيْهِ؟!! وَٱللهِ لاَ أَطُورُ[١] بِهِ مَاسَمَرَ سَمِيرٌ[٢]، وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي ٱلسَّمَاءِ نَجْماً»[٣].

*

وتشتمل الخطبة القاصعة على عدّة شواهد تدلّ على أنّ ما كان يثير في نفس الإمام قلقاً عميقاً ليس الصّراع القبلي المستفحل وحده، بل الصّراع العنصري أيضاً.

هذا الصراع بوجهيه - القبليّ والعنصريّ - كان، بالإضافة إلى أنّه آفة في ذاته. يؤدّي إلى توليد آفات أخرى:

١ - يعمّق و يرسّخ الواقع الإجتماعي القبلي والتكوين الإجتماعي القبلي للمجتمع في الثقافة العامّة، والبنية النّفسية للفرد، و بذلك يحول دون تطوّر التركيب الإجتماعي من طور القبلية الّتي تقسم المجتمع إلى وحدات تقوم على علاقة الدّم إلى طور التّوحد على أساس العقيدة والشّريعة والمؤسسات والمصالح المشتركة، وهو يؤدّي بالتّالي إلى أنْ يكون معوّقاً حضارياً أيضاً يجمّد المجتمع في حالة التخلف على صعيد المؤسسات والإنجازات التنظيمية.

٢ - يزيد و يعزّز سلطة رؤساء القبائل على قواعدهم القبلية، فيؤثر ذلك على فاعلية أجهزة السّلطة المركزية و يضعفها.

٣ - يؤثر على تلاحم المجتمع - وهو في حالة حرب مع القوى الخارجة على الشّرعية في الشام، ومع الخوارج.

١. أطور به: من طار يطور، بمعنى: حام - ول الشّيء، وقار به، يعني: لا أقارب الجور فيمن ولّيت عليه.

٢. ماسمر سمير: يعني مدى الدّهر.

٣. نهج البلاغة - رقم النص ١٢٦. ماأمّ نجم فِي السماء.. يعني مدى الدّهر. في هذا الموضوع راجع كتابنا (دراسات في نهج البلاغة) الطبعة الثانية، فصل (المجتمعات والطبقات الإجتماعيّة) وكتابنا (ثورة الحسين) ، الطبعة الخامسة - ص١٠١ - ١٧٢

٤ ـ يعزّز إمكانات تسلل معاوية بن أبي سفيان إلى داخل التكوينات السياسية في مجتمع العراق، وهي القبائل.

*

وننتقل الآن إلى عرض الشّواهد من الخطبة القاصعة[١].

بيّن الإمام أوّلاً أنّ الكبرياء من صفات الله تعالى. ومن ثمّ فليس للناس أنْ يتكبّر بعضهم على بعض.

ثم عرض، ثانياً، لكبرياء أبليس، وتعصّبه ضدّ آدم مفتخراً بأصله، وذكّر بأنّ كبرياء إبليس كانت كارثة عليه إذ قضت على منزلته العالية.

ثم قرن الإمام بين كبرياء إبليس وكبرياء البشر على بعضهم، واعتبر المتكبرين أتباعاً لإبليس في هذا الخُلق الذميم:

«صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ ٱلْحَمِيَّةِ[٢]، وإِخْوَانُ العَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ ٱلْكِبْرِ وَٱلْجَاهِلِيَّةِ، حَتَّىٰ إِذَا ٱنْقَادَتْ لَهُ ٱلْجَامِحَةُ مِنْكُمْ[٣]، وَٱسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِنهُ فِيكُم ـ فَنَجَمَتِ[٤] ٱلْحَالُ مِنَ السِّرِّ الخَفِيِّ إِلَى ٱلأَمْرِ ٱلْجَلِيِّ ـ ٱسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ[٥]. فَأَصْبَحْتُمْ أَعْظَمَ فِي دِينِكُم حَرْجاً[٦]، وأَوْرَىٰ فِي دُنْيَاكُم قَدْحاً[٧] مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحتُم لَهُمْ مُنَاصِبِينَ وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ».

وهكذا بيّن لهم الإمام أن الشرّ والفساد النّاشئين عن العصبيّة، والصّراع النّاتج منها لايقتصر تأثيرها على الجانب الديني والإيماني فقط، وإنّما يتعدى ذلك إلى التّأثير

١ . نهج البلاغة ـ رقم الخطبة: ١٩٢.

٢ . الحميّة: الأنفة والغضب.

٣ . الجامحة: من جموح الفرس. أراد أنّ الفئة الّتي لم تطع إبليس وجمحت عنه عادت فأطاعته واتّبعت سبيله في الكبرياء. أو أنّ الفئة الّتي جمحت عن الشرع انقادت إلى إبليس.

٤ . نجم: ظهر. أيْ أنّ العصبية بعدما كانت خفية في النّفوس ظهرت في ممارسات علنية.

٥ . استفحل: قوي واشتدّ وصار فحلاً.

٦ . الحرج: لغة في الحرج ـ بفتح الرّاء ـ وهو الإثم. يريد: إنّكم بطاعتكم لإبليس أصبحتم أعظم إثماً في دينكم. ورواية النّسخة المتداولة من النهج (فأصبح)، ولايستقيم المعنى عليها، ورواية ابن أبي الحديد في شرحه (فأصبحتم) وقد اعتمدناها لأنّها أوفق بالمعنى.

٧ . أورى: اشد قدحاً وتوليداً للنار. كناية عن تخريب دنياهم بالفتن والقلاقل.

على الوضع الحياتي الدّنيوي، لهذه العصبيّة (أورى في دُنياكُم قَدْحاً) من هؤلاء الّذين تخافون منهم على امتيازاتكم المادّيّة فتتعصبون ضدّهم.

ثم أثار الإمام في أذهانهم ذكرى تاريخية يعرفونها من القرآن، هي قصة ابني آدم:

«وَلاَ تَكُونُوا كَالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ٱبْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيرِ مَافَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ سِوىٰ مَا أَلحَقَتِ ٱلعَظَمَةُ بِنَفسِهِ مِنْ عَداوَةِ الحَسَدِ، وَقَدَحَتِ ٱلحَميَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نارِ ٱلغَضبِ، وَنَفَخَ الشّيطانُ فِي أنفِهِ مِنْ رِيحِ الكِبْرِ الّذي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثامَ القَاتِلينَ إِلىٰ يَوم القِيامَةِ».

ثم يعود الإمام إلى تأنيب سامعيه على ماهم عليه من روح قبلية، وتعصب عنصري ذميم، مبيناً لهم أنّ هذه الآفة الخطيرة الوبيلة قدابتليت بها الأمم الماضية وذاقت مرارتها:

«أَلاَ وَقَدْأَمْعَنتُم فِي ٱلبَغْيِ[١]، وَأَفْسَدْتُم فِي ٱلأَرْضِ، مُصارَحَةً للهِ بالمُناصَبَةِ[٢]، وَمُبارَزَةً لِلمُؤْمِنينَ بِالْمُحارَبَةِ (يقصد بالمؤمنين أولئك الّذين توجّه ضدهم العصبيّة) فَاللهَ ٱللهَ فِي كِبْرِ ٱلحَمِيَّةِ، وَفَخْرِ ٱلجاهِلِيَّةِ، فَإِنَّهُ مَلاَقِحُ الشَّنَآنِ[٣] وَمَنافِخُ ٱلشَّيْطانِ، الّتي خَدَعَ بِهَا الاُمَمَ المَاضِيةَ وَالقُرُون الخَالِيَةَ[٤]. أَمْراً تَشابَهَتِ ٱلقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتابَعتِ القُرونُ عَلَيْهِ، وَكِبْراً تَضايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ».

ثم يوجّه الأنظار بصورة مباشرة إلى القيادات الّتي تغذّي هذه الآفة، وتؤجّج نارها وهم زعماء القبائل:

«أَلاَ فَالحَذَرَ ٱلحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ، الّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ وَتَرفعُوا فَوقَ نَسَبِهِمْ... فَإِنَّهُمْ قَواعِدُ أَسَاسِ ٱلعَصَبِيَّةِ، وَدَعائِمُ أَرْكانِ ٱلفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اعتِزاءِ[٥] ٱلجَاهِلِيَّةِ. فَاتَّقُوا ٱللهَ

١ . أمعنتم في البغي: بالغتم فيه، من أمعن في الأرض، أي ذهب فيها بعيداً.

٢ . مصارحة لله..: أي مكاشفة يعني الإعلان بالمعاصي، وعدم التستر في شأن العصبيّة والتكبر الجاهلي.

٣ . ملاقح جمع ملقح، وهو المصدر من لقحت: والشّنآن: البغض يريد أنّ الكبر والفخر الجاهلي مكان البغضاء والحقد ومثارهما.

٤ . منافخ الشيطان: جمع منفخ، مصدر من نفخ: يعني أن الكبر والفخر هما المكان الّذي ينفخ فيه الشّيطان من نفس الإنسان فيدفعها إلى الشّر والجريمة.

. اعتزاء الجاهلية: الإعتزاء هو الإنتساب، أيْ أنّهم يفتخرون بأنسابهم وآبائهم، كقولهم: يالفلان، أو: يالآل فلان.

وَلاَ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَلاَ لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً، وَلاَ تُطِيعُوا ٱلأَدْعِيَاءَ ٱلَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ[١]، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ أَسَاسُ ٱلْفُسُوقِ وَأَحْلاَسُ ٱلْعُقُوقِ...»[٢].

ثم يعود الإمام إلى التنظير بالتاريخ، مذكّراً بالنهايات الفاجعة للأُمم والشعوب الّتي فتكت بها آفة التّعصب والتّناحر، مقابلاً ذلك بالنهج النبوي الإنساني البعيد عن الكبر:

«فَٱعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ ٱلأُمَمَ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ ٱللهِ وَصَوْلاَتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلاَتِهِ وَٱتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ[٤]... فَلَوْ رَخَّصَ ٱللهُ فِي ٱلْكِبْرِ لأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ... وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونَ ـ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ـ عَلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ ٱلصُّوفِ[٥]، وَبِأَيْدِيهِمَا ٱلْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ ـ إِنْ أَسْلَمَ ـ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ، فَقَالَ: (أَلاَ تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ ٱلْعِزِّ وَبَقَاءَ ٱلْمُلْكِ، وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ ٱلْفَقْرِ وَٱلذُّلِّ)».

و يستمّر الإمام في التّنظير التّاريخيّ، داعياً مستمعيه إلى فحص المواقف التاريخيّة الّتي مرّت على الأمم السّابقة، وتجنّب الإختيارات والتّجارب الّتي أدّت إلى الإنحطاط والإنهيار، واختيار المسلكيّة الّتي ثبت بالتّجربة صلاحها:

«...وَٱحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ ٱلْمَثُلاَتِ بِسُوءِ ٱلأَفْعَالِ وَذَمِيمِ الأَعْمَالِ. فَتَذَكَّرُوا فِي ٱلْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَٱحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ. فَإِذَا تَفَكَّرْتُم فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَٱلْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ ٱلْعِزَّةُ بِهِ شَأْنَهُمْ، وَزَاحَتِ الأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ[٦]، وَمُدَّتِ ٱلْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ،

١ . المراد من هذه الجملة ومابعدها أنّ هؤلاء الزعماء يفسدون بنزعاتهم الشرّيرة حياتكم وإيمانكم وطهارة نفوسكم.

٢ . الأحلاس: جمع حلس. وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير ملازماً له، فقيل لكلّ ملازم أمر: هو حلس ذلك الأمر. فهؤلاء المغدون من رؤساء القبائل ملازمون للعقوق والتنكر لنعم الله ولأحكام الشرع وقواعد الأخلاق.

٣ . المثلات والوقائع: يقصد بها عقوبات الله الّتي استحقوها نتيجة لإنحرافاتهم.

٤ . المثوى: المنزل. مواضع حدودهم بعد الموت على التراب، ومصارع جنوبهم: مواقعها بعد الموت على التّراب.

٥ . مدارع الصّوف: جمع مدرعة ـ بكسر الميم ـ وهي كالكساء.

٦ . زاحت: بعدت. وله: لأجله، يعني: الزموا كل أمر خافتهم الأعداء بسببه.

وَٱنقادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ، مِنَ ٱلإجْتِنَابِ لِلْفُرقَةِ، وَاللُّزُوم للأُلْفَةِ، وَالتَّحاضِّ عَلَيْها[١]، وَالتَّواصِي بِهَا.
«وَٱجْتَنِبُوا كُلَّ أمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ[٢]، وَأوْهَنَ مِنّتَهُمْ[٣] مِنْ تَضاغُنِ ٱلْقُلُوبِ[٤]، وَتَشاحُنِ الصُّدورِ، وَتَدابُرِ النُّفُوسِ وَتَخاذُلِ ٱلأيْدي...»[٥]

و يستمر الإمام في تنظيره التاريخي بتقديم أمثلة محددة من حياة الإسرائيليين والعرب، بعدما كان في تنظيره السّابق يذكر الأمم بشكل عام، دون أنْ يخصّ بالذّكر أمة بعينها:

«...وَتَدَبَّرُوا أحْوالَ ٱلماضِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمنينَ قَبْلَكُمْ: كَيْفَ كانُوا فِي حَالِ ٱلتَّمحِيصِ[٦] وَٱلْبَلاءِ. ألَمْ يَكُونُوا أثقَلَ ٱلْخَلائِقِ أعْباءً، وَأجْهَدَ ٱلْعِبادِ بَلاءً[٧] وَأضْيَقَ أهْلِ ٱلدُّنْيا حالاً. ٱتَّخَذَتْهُمُ ٱلفَراعِنَةُ عَبيداً فَسامُوهُمْ سُوءَ ٱلْعَذابِ، وَجَرَّعُوهُمُ ٱلْمُرارَ[٨]، فَلَمْ تَبْرَحِ ٱلْحالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ ٱلْهَلَكَةِ وَقَهْرِ الغَلَبَةِ... حَتَّىٰ إذا رَأى ٱللهُ سُبْحانَهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلى ٱلأذَىٰ فِي مَحَبَّتِهِ[٩]، وَٱلإحْتِمالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ فِي مَضَايِقِ ٱلْبَلاءِ فَرَجاً، فَأبْدَلَهُمُ ٱلْعِزَّ مَكانَ ٱلذُّلِّ، وَٱلأمْنَ مَكانَ ٱلْخَوْفِ، فَصارُوا مُلوكاً حُكّاماً، وأئِمَّةً أعْلاماً... فَانْظُرُوا كَيْفَ كانُوا حَيْثُ كانَتِ الأمْلاءُ مُجْتَمِعَةً[١٠]، وَٱلأهْواءُ مُؤْتَلِفَةً، وَٱلْقُلُوبُ مُعتَدِلةً، وَٱلأيْدي مُترادِفَةً[١١]، وَٱلسُّيوفُ مُتَناصِرَةً، وَٱلبَصائِرُ نافِذَةً[١٢]، وَٱلعَزائِمُ وَاحِدَةً. ألَمْ يَكُونُوا أرْباباً فِي أقْطارِ ٱلأرَضِينَ،

١. التحاض، صيغة تفاعل من الحض بمعنى الحث والترغيب، يعني أنْ يحث بعضكم بعضاً على الإتحاد والتعاون.
٢. الفقرة: واحدة فقر الظهر. و يقال لمن اصابته مصيبة شديدة: قدكسرت فِقرته. يعني اجتنبوا كلّ ماأضعف الأمم السّابقة وسبب لها الإنحطاط.
٣. المنة: القوة، ومعنى الجملة كسابقتها.
٤. تضاغن القلوب وتشاحن الصّدور بمعنى واحد: تبادل البغضاء بين فئات المجتمع.
٥. تخاذل الأيدي: ألّاينصر الناس بعضهم بعضاً ولايتعاونون في حالات الخطر.
٦. التّمحيص: التّطهير والتّصفية.
٧. أجهد العباد: أكثرهم تعباً.
٨. المرار: شجر مر في الأصل، كناية عمّا أصابهم من العذاب والهوان على أيدي الفراعنة.
٩. رأى الله منهم جد الصّبر، أي أشد الصّبر.
١٠. الأملاء: الجماعات، الواحد: ملأ، يريد اتحاد الفئات الإجتماعية وتعاونها.
١١. مترادفة: متعاونة.
١٢. البصائر نافذة: الإرادة عازمة جازمة غير متردّدة للعلم بحقيقة الموقف أو الشّيء.

وَمُلُوكاً عَلَىٰ رِقابِ ٱلعالمِينَ.

«فَانْظُرُوا إلَىٰ مَا صَارُوا إلَيْهِ فِي آخِرِ أُمُورِهِمْ، حينَ وَقَعَتِ الفُرْقَةُ وَتَشَتَّتَتِ ٱلألْفَةُ، وَٱخْتَلَفَتِ ٱلْكَلِمَةُ وَٱلأفْئِدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتحارِبينَ، قَدْخَلَعَ ٱللهُ عَنْهُم لِباسَ كَرامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضارَةَ نِعْمَتِهِ[١]، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبارِهِمْ فِيكُمْ عِبَراً لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنْكُمْ.

«فَاعْتَبِرُوا بحالِ وَلَدِ إسْماعِيلَ وَبَنِي إسْحاقَ وَبَنِي إسْرائيلَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلامُ، فماأَشَدَّ ٱعْتِدالَ ٱلأحْوالِ[٢] وَأَقْرَبَ ٱشْتِباهَ ٱلأمْثالِ.

«تَأَمَّلُوا أَمْرَهُمْ فِي حَالِ تَشَتُّتِهِمْ وَتَفَرُّقِهِمْ لَيالِيَ كانَتْ ٱلأكاسِرَةُ وَٱلقَياصِرَةُ أَرْباباً لَهُمْ. يَخْتارُونَهُمْ عَنْ رِيفِ ٱلآفاقِ[٣]، وَبَحْرِ العِراقِ[٤] وَخُضْرَةِ ٱلدُّنْيا، إلَىٰ مَنابِتِ ٱلشِّيحِ وَمَهافِي الرِّيحِ[٥]، وَنَكَدِ ٱلْمَعاشِ[٦] فَتَرَكُوهُمْ عَالَةً مَساكِينَ، إخْوانَ دَبَرٍ وَوَبَرٍ[٧]، أَذَلَّ ٱلأُمَمِ داراً، وَأَجْدَبَهُمْ قَراراً، لاَيَأْوُونَ إلَىٰ جَناحِ دَعْوَةٍ يَعْتَصِمُونَ بِها، وَلاَ إلَىٰ ظِلِّ أُلْفَةٍ يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ عِزِّها، فَالأحْوالُ مُضْطَرِبَةٌ، وَٱلأيْدِي مُخْتَلِفَةٌ، وَٱلكَثْرَةُ مُتَفَرِّقَةٌ، فِي بَلاءِ أَزْلٍ[٨] وَأَطْباقِ جَهْلٍ[٩]، مِنْ بَناتٍ مَوْؤُودَةٍ، وَأَصْنامٍ مَعْبُودَةٍ، وَأَرْحامٍ مَقْطُوعَةٍ، وَغاراتٍ مَشْنُونَةٍ.

«فَانْظُرُوا إلَىٰ مَواقِعِ نِعَمِ ٱللهِ عَلَيْهِمْ حِينَ بَعَثَ إلَيْهِمْ رَسُولاً، فَعَقَدَ بِمِلَّتِهِ طَاعَتَهُمْ، وَجَمَعَ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ أُلْفَتَهُمْ كَيْفَ نَشَرَتِ ٱلنِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَناحَ كَرامَتِها، وَأَسالَتْ لَهُمْ جَداوِلَ نَعِيمِها. وَٱلْتَفَّتِ ٱلْمِلَّةُ بِهِمْ فِي عَوائِدِ بَرَكَتِها، فَأَصْبَحُوا فِي نِعْمَتِها غَرِقِينَ[١٠] وَفِي خُضْرَةِ عَيْشِها فَكِهِينَ[١١] قَدْتَرَبَّعَتِ ٱلأمُورُ بِهِمْ[١٢] فِي ظِلِّ سُلْطانٍ قاهِرٍ وَآوَتْهُمُ ٱلْحالُ إلَىٰ كَنَفِ عِزٍّ غالِبٍ[١٣]

١ . الغضارة: النّعمة اللّينة الطّيّبة.

٢ . ماأشدّ اعتدال الأحوال: ماأشبه الأشياء بعضها ببعض.

٣ . الرّيف: الأرض ذات الخصب والزرع، والجمع أرياف.

٤ . بحر العراق: دجلة والفرات. قال ابن أبي الحديد: ١٧٣/١٣ «أمّا الأكاسرة فطردوهم عن بحر العراق. وأمّا القياصرة فطردوهم عن ريف الآفاق أي عن الشّام وما فيه من المرعى والمنتجع».

٥ . يقصد البادية الخالية مِن الزّرع والمياه والعمران.

٦ . نكد المعاش: قلّته، وصعوبة الحصول عليه، وخشونته.

٧ . عالة: فقراء (دبر ووبر) دبر البعير عقره القتب. والوبر للبعير بمنزلة الصّوف للضأن. يريد أنّهم كانوا عالة فقراء يمثل البعير ثروتهم، ومرضه شغلهم الشاغل.

٨ . الأزل: الضّيق والشّدّة، يريد بلاء شديداً شغلهم عن كلّ شيء.

٩ . أطباق، جمع طبق. أي جهل متراكم بعضه فوق بعض.

١٠. غرقين: من الغرق، مبالغة في وصف ماهم فيه من النعمة.

١١ . فكهين: بمعنى ناعمين.

١٢. تربّعت الأمور بهم، أي أقامت، من: ربع بالمكان أي أقام فيه، يعني استقرار أحوالهم السّياسيّة والمعيشيّة.

١٣ . آوتهم الحال: ضمتهم وأنزلتهم، والكنف: الجانب.

وَتَعَطَّفَتِ ٱلأُمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَىٰ مُلْكٍ ثابِتٍ [١] فَهُم حُكّامٌ عَلَى ٱلْعالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرافِ ٱلأَرَضِينَ. يَمْلِكُونَ ٱلأُمُورَ عَلَىٰ مَنْ كانَ يَمْلِكُها عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ ٱلأَحْكامَ فِيمَنْ كانَ يُمْضِيها فِيهِمْ، لاَ تُغْمَزُ لَهُمْ قَناةٌ، وَلاَ تُقْرَعُ لَهُمْ صَفاةٌ [٢]...

«وَإِنَّ عِنْدَكُمُ ٱلأَمْثالُ مِنْ بَأْسِ ٱللهِ وَقَوارِعِهِ، وَأَيّامِهِ وَوَقائِعِهِ [٣]، فَلاَ تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ وَتَهاوُناً بِبَطْشِهِ، وَيَأْساً مِنْ بَأْسِهِ فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحانَهُ لَمْ يَلْعَنِ ٱلْقَرْنَ ٱلْماضِيَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ إِلاَّ لِتَرْكِهِمُ ٱلأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ، فَلَعَنَ ٱللهُ ٱلسُّفَهاءَ لِرُكُوبِ ٱلْمَعاصِي، وَٱلْحُلَماءَ لِتَرْكِ ٱلتَّناهِي» [٤].

١. تعطفت.. كناية عن السّعادة والإقبال، يقال: تعطّف الدّهر على فلان، أي أقبل حظّه وسعادته، والذّرى الأعالي، جمع ذروة، كناية عن عزّهم وقوّتهم وامتناعهم.

٢. لا تغمز.. لا تقرع.. مثل يضرب لمن لا يجترئ عليه لعزته وقوته.

٣. الأمثال هي ماورد في القرآن بما قصّه الله تعالى من أحوال الأمم القديمة وكيف نزلت بها الكوارث نتيجة لممارساتها المنحرفة.

٤. التّناهي مصدر تناهى القوم عن كذا، أي نهى بعضهم بعضاً. يقول: لعن الله الماضين من قبلكم لأنّ سفهاءهم ارتكبوا المعصية، وحلماءهم لم ينهوهم عنها وهذا من قوله تعالى في شأن بني إسرائيل (كَانُوا لاَيَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) سورة المائدة/٧٩.

٥ـ المعروف والمنكر والأكثرية الصامتة

من فرائض الإسلام الكبرى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد ورد تشريع هذه الفريضة في الكتاب الكريم والسنّة الشّريفة في عدة نصوص دالّة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع المسلمين بنحو الواجب الكفائي[١].

كما وردت نصوص أخرى كثيرة في الكتاب والسنّة، منها مايشتمل على بيان الشّروط الّتي يتنجز بها وجوب هذه الفريضة على المسلم. ومنها مايضيء الجواب السّياسية والإجتماعية لهذه الفريضة، كما يوضح المبدأ الفكري الإسلامي العام الّذي ينبثق منه هذا التّشريع، دلّ على وجوب هذه الفريضة من الكتاب الكريم قوله تعالى:

«وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»[٢].

فقد دلّت هذه الآية على وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من جهة دلالة لام الأمر في «ولتكن» على الوجوب.

١ . من جملة تقسيمات الواجب عند علماء أُصول الفقه تقسيمه إلى واجب عيني وواجب كفائي. و يعنون بالواجب العيني مايتعلق بكلّ مُكلّف ولايسقط عن أحد من المكلّفين بفعل غيره. و يعنون بالواجب الكفائي مايطلب فيه وجود الفعل من أيّ مكلّف كان، فهو يجب على جميع المكلّفين ولكنْ يكتفى بفعل بعضهم فيسقط عن الآخرين. نعم إذا تركه جميع المكلّفين فالجميع مذنبون. وأمثلة الواجب الكفائي كثيرة في الشّريعة منها تجهيز الميّت والصّلاة عليه، ومنها الحِرَف والصّناعات والمِهَن الّتي يتوقف عليها انتظام شؤون حياة النّاس ومنها الإجتهاد في الشّريعة، ومنها الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

٢. سورة آل عِمران (مدنيّة ـ ٣) الآية: ١٠٤.

كما أنّ ظاهرها أنّ الواجب هنا كفائي لاعيني، لأن مفاد الأمر تعلّق بأنْ تكون في المسلمين أُمّة تأمر وتنهى، لا بجميعهم على نحو العينيّة الإستغراقيّة وعليه فإذا قامت جماعة منهم بهذا الواجب سقط الوجوب عن بقيّة المكلّفين كما هو الشّأن في الواجب الكفائي.

ولم يحدّد في القرآن والسّنّة عدد مخصوص لأفراد هذه الأمّة، فيراعى في عدد الأفراد القائمين بالواجب مقدار الوفاء بالحاجة.

وقد جعل الله تعالى في كتابه الكريم وعي هذه الفريضة، وأدائها حين يدعو وضع المجتمع إلى ذلك، من صفات المؤمنين الصّالحين، فقال تعالىٰ:

«وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللهُ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»[1].

فقد دلّت الآية المباركة على تضامن المؤمنين بعضهم مع بعض في عمل الخير والبرّ والتقوى، وأنّهم جميعاً من جنود هذه الفريضة حين يدعوهم الواجب إليها.

وسياق الآية الكريمة دالّ على وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، من حيث أنّ بقيّة ماورد في الآية كلّه من الواجبات المعلومة في الشريعة (الصّلاة، والزّكاة، وطاعة الله ورسوله)[2]، وإنْ لم تكن الدّلالة السّياقيّة من الدّلالات الّتي لها حجيّة في استظهار الأحكام الشّرعية.

وكما ورد مدح المؤمنين والمؤمنات ـ كأفراد ـ في الآية الآنفة، فقد ورد في آية أخرى مدح المسلمين كافّة ـ كأمّة ومجتمع ـ من حيث وعيهم لهذه الفريضة وعملهم بها، وتلك هي قوله تعالى:

١. سورة التوبة (مدنيّة ـ ٩) الآية. ٧١.

٢. ربّما يكون المراد من طاعة الله ورسوله، بعد ذكر الأمر والنّهي والصّلاة والزّكاة ـ الطاعة في الشّأن السّياسي، فلايكون من ذكر العام بعد الخاص.

«كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ»[١].

وقد مدح الله في كتابه الكريم المسلمين من أهل الكتاب، أتباع الأنبياء السّابقين قبل بعثة النّبيّ محمّد(ص) بوعيهم لهذه الفريضة والعمل بها، ممّا يكشف عن أنّها فريضة عريقة في الإسلام منذ أقدم عصوره وصيغه، وأنّها قد كانت فريضة ثابتة في جميع مراحله التّشريعيّة الّتي جاء بها أنبياء الله تعالى جيلاً بعد جيل. قال تعالى:

«لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ»[٢].

*

وقد كان إحياء هذه الفريضة، وجعلها إحدى هواجس المجتمع من شواغل الإمام الدّائمة. وقد تناولها في خطبه وكلامه ـ كما تعكس لنا ذلك النّماذج الّتي اشتمل عليها نهج البلاغة ـ من زوايا كثيرة:

تناولها كقضيّة فكريّة لابدّ أنْ توعى لتغني الشّخصية الواعية، و باعتبارها قضية تشريعية تدعو الأمّة والأفراد إلى العمل.

ومن هذين المنظورين عالجها بعدة أساليب.

*

لقد أعطاها منزلة عظيمة، تستحقها بلاشك ، بين سائر الفرائض الشرعيّة، فجعلها إحدى شعب الجهاد الأربع:

«...وَالْجِهادُ مِنْها ـ مِنْ دَعائِمِ الْإِيمانِ ـ عَلَىٰ أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقِ فِي الْمَواطِنِ، وَشَنَآنِ الْفاسِقِينَ، فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ نَهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أُنُوفَ الْكافِرِينَ وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَواطِنِ قَضَىٰ مَاعَلَيْهِ، وَمَنْ

١. سورة آل عِمران (مدنيّة ـ ٣) الآية: ١١٠.

٢ . سورة آل عِمران (مدنيّة ـ ٣) الآية: ١١٣ ـ ١١٤.

شَنِئَ ٱلْفاسِقِينَ وَغَضِبَ لله غَضِبَ ٱللّٰهُ لَهُ وَأرْضَاهُ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ»[١].

وجعل الإمام هذه الفريضة، في كلام له آخر، تتقدم على أعمال البرّ كلّها، فقال:

«...وَما أعْمالُ ٱلْبِرِّ كُلُّها، وَٱلجِهادُ فِي سَبِيلِ ٱلله عِنْدَ ٱلأمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ إلّا كَنَفْثَةٍ[٢] فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ...»[٣].

ومن السّهل علينا أن نفهم الوجه في تقدّم هذه الفريضة على غيرها إذا لاحظنا أنّ أعمال البرّ تأتي في الرّتبة بعد ٱستقامة المجتمع وصلاحه المبدئي ـ الشّرعي والأخلاقي ـ وأنّ الجهاد لايكون ناجعاً إلّا إذا قام به جيش عقائدي، وهذه كلّها تتفرع من الوعي المجتمعي للشريعة والأخلاق، ومن الحد الأدنى للإلتزام المسلكي بهما.

*

في بعض كلماته بيّن الإمام جانباً من الأسباب الموجبة لهذا التّشريع، فقال:

«فَرَضَ ٱللّٰهُ... وَٱلأمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوامِّ، وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهاءِ»[٤].

فعامّة النّاس الّذين قد يقعون في إثم ترك الواجبات لأنّهم لايعرفونها على وجهها أويجهلونها، يمكّنهم الأمر بالمعروف من التعلّم والتفقّه، بالإضافة إلى أولئك الّذين يقعون في إثم ترك الواجب وهم يعرفون الواجب والحرام حيث يردّهم الأمر بالمعروف إلى جادّة الصّواب والإستقامة، كما يرد إليها السّفهاء الّذين يتجاوزون في لهوهم وعبثهم حدود الله.

*

وللأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر مراتب متدرجة من الأدنى إلى الأعلى، فهي

١ . نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النّص: ٣١.
٢ . النفثة ـ كالنّفخة لفظاً ومعنى بزيادة مايمازج النفس من الريق عند النّفخ.
٣ . نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النّص: ٣٧٤.
٤ . نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النص: ٢٥٢.

فريضة مرنة تستجيب للحالات المتنوعة، وللأوضاء المختلفة. فربّ إنسان تنفع في ردعه الكلمة، وربّ إنسان لاينفع في شأنه إلّا العنف.

ولكلّ حالة طريقة أمرها ونهيها الّتي يقدّرها الآمر والنّاهي العارف، و يتصرّف بقدرها فلايتجاوزها إلى مافوقها حيث لا تدعو الحاجة إليه، ولاينحطّ بها إلى مادونها حيث لايؤثّر ذلك في ردع السّفيه عن غيّه وحمله على الإستقامة والصّلاح.

وثمّة حالات من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر لابدّ فيها من القتال، وهذه حالات تحتاج إلى أن يقود عملية الأمر والنهي فيها الحاكم العادل. وفي هذه الحالات الخطيرة جدّاً لايجوز لآحاد الناس أو جماعاتهم أنْ يقوموا بها دون قيادة حاكم شرعي عادل.

وإذا كانت مراتب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر تتدرج صاعدة من الإنكار بالقلب إلى الإنكار باللّسان إلى الإنكار باليد، وللإنكار باللّسان درجات، وللإنكار باليد درجات...

وإذا كانت الحالات العادية للأمر والنّهي تتفاوت في خطورتها وأهميتها بما يستدعي هذه المرتبة من الإنكار أو تلك ...

فإنّ الحالات الكبرى الّتي لابدّ فيها من تدخل الحاكم العادل والأمّة كلّها قدتبلغ درجة من الخطورة لابدّ فيها من الإنكار بالقلب واللّسان وأقصى حالات الإنكار باليد ـ أعني القتال.

وهذا هو ماكان يواجهه المجتمع الإسلامي في عهد الإمام عليه السّلام، متمثلاً تارة في ناكثي البيعة الّذين خرجوا على الشرعيّة وٱعتدوا على مدينة البصرة، ولم تفلح دعوته لهم بالحسنى في عودتهم إلى الطاعة وٱضطروه إلى أن يخوض ضدّهم معركة الجمل في البصرة. أو المتمردين على الشرعية في الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان الّذي رفض جميع الصيغ السّياسيّة الّتي عرضها عليه الإمام ليعود من خلالها إلى الشرعية. أو المارقين الخوارج على الشّرعيّة والّذين رفضوا كلّ عروض السّلام الّتي قُدّمت لهم، وأصروا على الفتنة ومارسوا الإرهاب ضدّ الفلاحين والآمنين والأطفال والنّساء...

في هذه الحالات وأمثالها على المسلم المستقيم أن يبرأ من الإنحراف في قلبه، وأن يدينه علناً بلسانه، وأن ينخرط في أيّ حركة يقودها الحاكم العادل لتقويم الإنحراف بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك.

قال عليه السلام، فيما يبدو أنه تقسيم لمواقف النّاس الّذين كان يقودهم من المنكر المبدئي الخطير الّذي كان يهدّد المجتمع الإسلامي كلّه في استقراره، وتقدمه، ووحدة بنيه:

«فَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، فَذٰلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ. وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ فَذٰلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً، وَمِنْهُمْ الْمُنْكِرُ بِقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ فَذٰلِكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلاثِ وَتَمَسَّكَ بِوٰاحِدَةٍ. وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَبِيَدِهِ فَذٰلِكَ مَيِّتُ الأَحْيٰاءِ»[1].

ونلاحظ أنّ الإمام سمّى التّارك، في هذه الحالة الخطيرة، لجميع مراتب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر «ميّت الأحياء» ونفهم صدى هذا الوصف إذا لاحظنا أنّ إنساناً لايستشعر الأخطار المحدقة بمجتمعه، ولايستجيب لها أيّ استجابة، حتى أقل الإستجابات شأناً وأهونها تأثيراً، وأقلها مؤونةً وهي الإنكار بالقلب الّذي يقتضيه مقاطعة المنكر واعتزال أهله ـ أنّ إنساناً كهذا بمنزلة الجثة الّتي لا تستجيب لأيّ مثير، لأنّها خالية من الحياة الّتي تشعر وتستجيب.

و يقول عبد الرحمان بن أبي ليلى الفقيه، وهو ممّن قاتل مع الإمام في صفّين، أنّ الإمام كان يقول لهم حين لقوا أهل الشّام:

أيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ. إِنَّهُ مَنْ رَأَىٰ عُدْواناً يُعْمَلُ بِهِ، وَمُنْكَراً يُدْعَىٰ إِلَيْهِ فَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَبَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ. وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيا وَكَلِمَةُ الظّالِمِينَ هِيَ السُّفْلَىٰ فَذٰلِكَ الَّذِي أَصَابَ سَبِيلَ الْهُدَىٰ وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ، وَنَوَّرَ فِي قَلْبِهِ الْيَقِينُ»[2].

١ . نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النص: ٣٧٤.

٢ . نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النص: ٣٧٣.

ونلاحظ هنا أنّ الإمام وضع للإنكار بالسّيف ـ وهو أقصى مراتب الإنكار باليد ـ شرطاً، هو أن تكون الغاية منه إعلاء كلمة الله لا العصبيّة العائلية أو العنصريّة، ولا المصلحة الخاصة، والعاطفة الشّخصية. وهذا شرط في جميع أفعال الإنسان، وفي جميع مراتب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، إلّا أنّ الإمام عليه السّلام صرّح به في هذه المرتبة لخطورة الآثار المترتبة على القيام بها من حيث أنّها قد تؤدّي إلى الجرح والقتل.

*

و يقدّر الإمام أنّ كثيراً من الناس يتخاذلون عن ممارسة هذا الواجب الكبير فلا يأمرون بالمعروف تاركه ولاينهون عن المنكر فاعله بسبب مايتوهمون من أداء ذلك إلى الإضرار بهم: أن يعرضوا حياتهم للخطر، أو يعرضوا علاقاتهم الإجتماعية للإهتزاز والقلق، أو يعرضوا مصادر عيشهم للإنقطاع... و ما إلى ذلك من شؤون.

وقد لحظ الشارع هذه المخاوف، فجعل من شروط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عدم ترتب ضرر معتدٍّ به على الآمر والناهي.

ولكنّ كثيراً من الناس لايريدون أن يمسّهم أيّ أذى أوكدر. وهذا موقف ذاتي وأناني شديد الغلوّ لايمكن القبول به من إنسان يفترض فيه أنه ملتزم بقضايا مجتمعهِ كما هو شأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر. فهو إنسان يستبدّ به القلق لأيّ انحراف يراه، و يدفعه قلقه وأخلاقه إلى أن يتصدّى للإنحراف بالشّكل المناسب، وهو الّذي قال فيه ألامام في النّص السّابق «المستكمل لخصال الخير».

لقد نبّه الإمام ـ في موضعين من نهج البلاغة على أنّ التّخاذل عن الأمر والنهي خشية التعرض للأذى ناشئ عن أوهام ينبغي أن يتجاوزها المؤمن الملتزم بقضية مجتمعه، فلايجعلها هاجسهُ الّذي يشلّه فيحول بينه و بين الحركة المباركة المثمرة، فقال الإمام فيما خاطب به أهل البصرة في إحدى خطبه، وقدكانوا بحاجة إلى هذا التّوجيه، لما شهدته مدينتهم، وتورّط فيه كثير منهم من فتنة الجمل.

«وَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللهِ سُبْحانَهُ، وَإِنَّهُما لايُقَرِّبانِ مِنْ

أجَلٍ، وَلاَيَنقصانِ مِنْ رِزْقٍ»[١].

ونوجّه النظر إلى قوله عليه السّلام أنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر خلقان من خلق الله عزّ وجلّ، فالله هو الآمر بكلّ معروف، والناهي عن كلّ منكر، وإذن، فإنّ المؤمن الملتزم بقضية مجتمعه الواعي للأخطار المحدقة به، يمتثل -حين يأمر و ينهى- لله تعالى و يتبع سبيله الأقوم.

وقال الإمام في موقف آخر:

«وَإنَّ ٱلأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهي عَنِ ٱلْمُنْكَرِ، لاَيُقَرِّبانِ مِنْ أَجَلٍ وَلاَيَنْقُصانِ مِن رِزْقٍ»[٢].

*

قلنا إنّ إحياء هذه الفريضة، وجعلها إحدى هواجس المجتمع الدّائمة، وإحدى الطّاقات الفكرية الحيّة المحرّكة للمجتمع كان من شواغل الإمام الدّائمة.

وكان يحمله على ذلك عاملان.

أحدهما أنّه إمام المسلمين، وأميرالمؤمنين، ومن أعظم واجباته شأناً أن يراقب أمّته، و يعلّمها ماجهلت، و يعمّق وعيها مما علمت، ويجعل الشّريعة حيّة في ضمير الأمة وفي حياتها.

وثانيهما هو قضيته الشّخصيّة في معاناته لمشاكل مجتمعه الدّاخلية والخارجية في قضايا السّياسة والفكر.

فقد كان الإمام يواجه في مجتمعه حالة شاذة لايمكن علاجها والتغلب عليها إلّا بأن يجعل كلّ فرد بالغ في المجتمع -والنّخبة من المجتمع بوجه خاص- من قضية الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، في كلّ موقف تدعو الحاجة إليها وخاصة في المواقف الخطيرة، قضية التزام شخصي واع وصارم.

لقد شكا الإمام كثيراً من النّخبة في مجتمعه، وأدان هذه النّخبة بأنّها نخبة فاسدة

١ . نهج البلاغة - رقم الخطبة ١٥٦.

٢ . نهج البلاغة - باب الحكم - رقم النّص ٣٧٤.

في الغالب لأنّها لم تلتزم بقضية شعبها ووطنها وإنّما تخلّت عن هذه القضية سعياً وراء آمال شخصية وغير أخلاقية...

أكثر من هذا: لقد اتّهم الإمام هذه النخبة مراراً بأنّها خائنة. ومن مظاهر عدم التزامها بقضية شعبها أو خيانته هو تخليها الّذي لامبرّر له عن ممارسة واجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وإذ يئس الإمام من التّأثير الفعّال في هذه النّخبة فقد توجّه بشكواه رأساً إلى عامة الشّعب محاولاً أنْ يحركه في اتجاه الإلتزام العملي بقضيته العادلة، موجهاً وعيه نحو الأخطار المستقبلية، محذراً له من تطلّعات نخبته.

نجد هذا التّوجه نحو عامة الشعب مباشرة ظاهراً في الخطبة القاصعة الّتي تضمّنت ألواناً من التّحذير، التّابض بالغضب، من السقوط في حبائل النّخبة.

وكانت قضية الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر -فيما يبدو- والتراخي أو اللاّمبالاة الّتي تظهرها النّخبة نحو هذه القضية- إحدى أشدّ القضايا إلحاحاً على ذهن الإمام وأكثرها خطورة في وعيه.

وكان أسلوب التّنظير بالتاريخ إحدى الوسائل الّتي استعملها الإمام في تحذيره لشعبه وفي تعليمه الفكري لهذه الفريضة.

لقد كانت شكواه وتحذيراته المترعة بالمرارة والألم نتيجة لمعاناته اليومية القاسية من مجتمعه بوجه عام ومن نخبة هذا المجتمع بوجه خاص.

ولابدّ أنّ هؤلاء وأولئك قد سمعوا من الإمام مراراً كثيرة مثل الشّكوى التّالية الّتي قالها في أثناء كلام له عن صفة من يتصدّى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل:

«إِلَى ٱللهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرٍ يَعِيشُونَ جُهَّالاً وَيَمُوتُونَ ضُلَّالاً. لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ[١] مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا سِلْعَةٌ أَنْفَقُ بَيْعاً وَلَا أَغْلَى ثَمَناً مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ وَلَا أَعْرَفُ مِنَ ٱلْمُنْكَرِ»[٢].

١. أبور- على وزن أفعل- من البور، الفاسد، بار الشيء أي فسد، و بارت السّلعة أي كسدت ولم تنفق، وهذا هو المراد هنا: أنّ العمل الحق بالقرآن كاسد لايقبله الناس ولايتعاملون معه.

٢. نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٧.

كان النّهج الّذي سار عليه الإمام في حكمه نهج الإسلام الّذي يستجيب لحاجات عامّة النّاس في الكرامة، والرّخاء، والحرّيّة.

وكان هذا النّهج يتعارض، بطبيعة الحال، مع مصلحة طبقة الأعيان وزعماء القبائل الّذين اعتادوا على الإستماع بجملة من الإمتيازات في العهد السّابق على خلافة أميرالمؤمنين علي(ع).

وقد كان لهذه الطّبقة ذات الإمتيازات أعظم الأثر في الحيلولة بشتّى الأساليب دون تسلّم الإمام للسّلطة في الفرص الّتي مرّت بعد وفاة رسول الله(ص)، و بعد وفاة أبي بكر، و بعد وفاة عمر، ولكنّه بعد وفاة عثمان تسلّم السلطة على كراهية منه لها، وعلى كراهية من النّخبة له، فقدقبلت به مرغمة لأن الضغط الذي مارسته الأكثرية الساحقة من المسلمين في شتّى حواضر الإسلام شلّ قدرة النّخبة المالية وطبقة الأعيان على التأثير في سير الأحداث، فتكيّفت مع الوضع الجديد الّذي وضع الإمام علياً -بعد انتظار طويل- على رأس السّلطة الفعليّة في دولة الخلافة.

وقد كشفت الأحداث الّتي ولدت فيما بعد عن أنّ هذا التكيّف كان مرحليّاً، رجاء أن تحتال في المستقبل، بطريقة ما -لتأمين مصالحها وامتيازاتها.

وحين يئست طبقة الأعيان هذه من إمكان التّأثير على الإمام وتبدّدت أحلامهم في تغيير نهجه في الإدارة وسياسة المال وتصنيف الجماعات تغييراً ينسجم مع مصالحهم فيحفظ لها مراكزها القديمة، و يبوّئها مراكز جديدة ويمدّها بالمزيد مِن القوة والسّلطات على القبائل والموالي من سكّان المدن والأرياف... حين يئست هذه الطّبقة من كلّ هذا وانقطع أملها.. طمع كثيرمن أفراد هذه الطّبقة بتطلّعاته إلى الشّام ومعاو يةبن أبي سفيان، فقدرأوا في نهجه وأسلوبه في التّعامل مع أمثالهم مايتّفق مع فهمهم ومصالحهم... وتخاذل بعض أفرادها عن القيام بواجباتهم العسكرية في مواجهة النشاط العسكري المتزايد الّذي قام به الخارجون عن الشّرعية في الشّام، هذا النّشاط الّذي اتّخذ في النّهاية طابع الغارات السّريعة وحروب العصابات.

وكان تخاذلاً لايمكن تبريره بجبنهم فشجاعتهم ليست موضع شك على الإطلاق.

ولايمكن تبريره بقلّتهم، فقدكانت الأمّة قادرة على أن تزود حكومتها الشرعية

بجيوش جرّارة وجنود أقوياء مدربين جعلت منهم طبيعتهم، وثقافتهم، وحروب الفتح الّتي خاضوها مدة سنوات طويلة من خيرة المقاتلين في العالم.

ولايمكن تبريره بنقص في التّسليح وعدة الحرب وعتادها، فقد كانت معامل السّلاح نشطة لتأمين إحتياطي ضخم من السّلاح لمجتمع كان لايزال محارباً.

ولايمكن تبريره بسوء الحالة الإقتصاديّة، فقد كان المال العام وفيراً بعد أنْ أصلحت الإدارة الماليّة في خلافة الإمام.

لم يكن إذن ثمة سبب للتّخاذل سوى الموقف السّياسي غير المعلن الّذي صممت النّخبة من الأعيان وزعماء القبائل على التّمسك به والتّصرّف في القضايا العامّة وفقاً له، إلى النّهاية، وذلك بهدف تفريغ حكومة الإمام علي من قوة السّلطة، وجعلها عاجزة عن الحركة بسبب عدم توفّر الوسائل الضّرورية لها، وهذا مايؤدّي في النّهاية إلى آنتصار التّمرّد على الشّرعية.

كان هذا الموقف السّياسي غير المعلن هو سبب التّخاذل.

وقد كان هذا الموقف غير معلن، بل كان قادة هذه النّخبة يوحون بإخلاصهم وتفانيهم، لأنّ هذه النخبة كانت تخاف، إذا أعلنت موقفها وكشفت عن نواياها وأهدافها البعيدة وأمانيها المخزية، من جمهور الأمّة أنْ يكتشف لعبتها ضد آماله ومصالحه، فيدينها و يعاقبها.

وقد حفظ لنا الشريف في نهج البلاغة نصوصاً كثيرة يلوم فيها الإمام نخبة مجتمعه لوماً قاسياً مرّاً على تراخيهم وتخاذلهم عن القيام بالتزاماتهم العسكرية في الدّفاع عن الشرعية، ولاشكّ أنّ الإمام في آخر عهده كان مضطرّاً للإكثار من هذا اللّوم والتقريع، كقوله في إحدى خطبه:

«ألاَ وَإنّي قَدْ دَعَوْتُكمْ إلَىٰ قِتالِ هٰؤلاءِ ٱلْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهاراً، وَسِرّاً وَإعْلاناً، وَقُلْتُ لَكُمْ: ٱغْزُوهُمْ قَبْلَ أنْ يَغْزوكُم، فَوَٱللهِ ماغُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دارِهِمْ[١] إلاّ ذَلُّوا، فَتَواكَلْتُم وتَخاذَلْتُم[٢]،

١ . عُقْر دارهم: أصل دارهم، والعُقر: الأصل، ومنه: العقار للنخل، كأنّه أصل المال.

٢. تواكلتم: من وكلت الأمر إليك ووكلته إليّ، اي لم يتوله أحد منا، ولكن أحال به كلّ واحد على الآخر.

حَتّىٰ شُنَّتْ[١] عَلَيْكُمُ ٱلْغاراتُ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ ٱلأَوْطانُ...

فَيا عَجَباً! عَجَباً وَٱللهِ يُمِيتُ ٱلْقَلْبَ، وَيَجْلِبُ ٱلْهَمَّ، مِنِ ٱجْتِماعِ هٰؤُلاءِ ٱلْقَوْمِ عَلىٰ باطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً[٢] حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمىٰ: يُغارُ عَلَيْكُمْ وَلاٰ تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاٰ تَغْزُونَ، وَيُعْصَى ٱللهُ وَتَرْضَوْنَ.

«فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِٱلْسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيّامِ ٱلْحَرِّ قُلْتُم: هٰذِهِ حَمارَّةُ ٱلْقَيْظِ أَمْهِلْنا يُسَبَّخْ عَنّا ٱلْحَرُّ[٣]، وَإِذَا أَمَرْتُكُم بِالسَّيْرِ إِلَيْهِم فِي ٱلشِّتاءِ قُلْتُمْ: هٰذِهِ صَبارَّةُ ٱلْقُرِّ[٤]... كُلُّ هٰذا فِرَاراً مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْقُرِّ، فَإِذا كُنْتُمْ مِنَ ٱلْحَرِّ وَٱلْقُرِّ تَفِرُّونَ، فَأَنْتُم وَٱللهِ مِن السَّيْفِ أَفَرُّ.

«يَا أَشْبَاهَ الرِّجالِ وَلاٰ رِجالَ! حُلُومُ ٱلأَطْفالِ، وَعُقُولُ رَبّاتِ ٱلْحِجالِ[٥] لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُم مَعْرِفَةً ـ وَٱللهِ ـ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً[٦].

«قَاتَلَكُمُ ٱللّٰهُ! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ ٱلتَّهْمامِ أَنْفاساً[٧] وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِٱلْعِصْيانِ وَٱلْخِذْلانِ، حَتّىٰ لَقَدْ قالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ٱبْنَ أَبِي طالِبٍ رَجُلٌ شُجاعٌ وَلٰكِنْ لاٰ عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ، لِلّٰهِ أَبُوهُمْ وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِراساً وَأَقْدَمُ فِيها مَقاماً مِنِّي لَقَدْ نَهَضْتُ فِيها وَمَا بَلَغْتُ ٱلْعِشْرِينَ وَهٰأَنَذَا قَدْ ذَرَّفْتُ[٨] عَلَى ٱلسِّتِّينَ! وَلٰكِنْ لاٰ رَأْيَ لِمَنْ لاٰ يُطاعُ»[٩].

*

بهذه المرارة، وبهذا الغضب، وبهذه السّخرية، وبهذا الإحتقار كان الإمام يواجه هذه النخبة الّتي تخاذلت عن القيام بواجبها، أو خانت قضية شعبها.

و يبدو أن هذه الطبقة ـ أو فريقاً منها ـ كانت تحاول، ستراً لمواقفها الّتي عمل

١ . شُنّت الغارات: فرقت، أي نشبت الحروب الصّغيرة في أماكن متعدّدة (حرب العصابات).

٢ . دعاء عليهم بالحَزي والسّوء: القبح، والتّرح.

٣ . حمارّة القيظ: شدّة حره. و يسبخ عنا الحر: بمعنى يخفّ، و يلطف الهواء.

٤ . صبارّة الشّتاء: بتشديد الرّاء ـ شدة برد الشّتاء. وهذه هي الأعذار الّتي كانوا يبرّرون بها تخاذلهم و يلوذون بها دون كشف موقفهم السّياسي الّذي بيّناه.

٥ . الحجال: جمع حجلة، وهي بيت يزين بالسّتور، والثّياب، والأسرّة.

٦ . السّدم: الحزن والغيظ.

٧ . النّغب: جمع نغبة: وهي الجرعة، والتّهمام: الهمم، أنفاساً: جرعة بعد جرعة.

٨ . ذرّفت: زدت على السّتين.

٩ . نهج البلاغة ـ الخطبة رقم: ٢٧.

الإمام على فضحها، أنْ تتظاهر في بعض الحالات بالغيرة والحميّة الدّينية، فتتخذ مواقف لفظية آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر دون أنْ تترجم ذلك إلى أفعال وممارسة عملية، شأنها في ذلك شأن الكثيرين ممّن يسترون خياناتهم وأنانيتهم، وحرصهم على المتاع الدّنيوي بالمواقف الأخلاقية اللّفظية.

ولٰكنّ الإمام عليّاً كان يعرف هؤلاء، ومن السّهل معرفتهم في كلّ زمان، وكان يفضح هذه المواقف المنافية بقسوة، لأنها تضيف إلى جريمة الخيانة السّياسيّة رذيلة النّفاق والتّمويه على بسطاء النّاس، فيقول مبصّراً مجتمعه بفساد العلاقات النا شئ من فساد النّخبة:

«...وَهلْ خُلِقْتُم إلّا فِي حُثالَةٍ[1] لاَ تَلْتَقِي إلّا بِذَمِّهِمُ ٱلشَّفَتانِ، ٱسْتِصْغاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهاباً عَنْ ذِكرِهِمْ، فَإنّا للهِ وَإنّا إلَيْهِ رَاجِعونَ.

«ظَهَرَ ٱلْفَسادُ فَلاَ مُنْكِرٌ مُغَيِّرٌ، وَلاَ زاجِرٌ مُزْدَجِرٌ. أفَبِهٰذَا تُرِيدُونَ أنْ تُجاوِرُوا ٱللهَ فِي دَارِ قُدْسِهِ، وَتَكُونَوا أعَزَّ أوْلِيائِهِ عِنْدَهُ؟ هَيْهاتَ! لاَ يُخْدَعُ ٱللهُ عَنْ جَنَّتِهِ، وَلاَ تُنالُ مَرْضاتُهُ إلّا بِطاعَتِهِ.

«لَعَنَ ٱللّٰهُ ٱلآمِرِينَ بِٱلْمَعْرُفِ ٱلتّارِكِينَ لَهُ، وَٱلنّاهِينَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ٱلعامِلِينَ بِهِ»[2].

*

وإذا كانت مصلحة الحكم المستبد الطبقي أو الفئوي تقضي بأن يصمت الشعب ولايرتفع منه صوت ٱعتراض أو احتجاج، أو إدانة مهما أصابه من مظالم، ومهما حلّ بحقوقه من انتهاكات، فإنّ مصلحة الحكم الشّعبي الملتزم بالمصالح الحقيقيّة للناس العاديّين البسطاء هي على العكس من ذلك... إنّ مصلحة هذا الحكم الّذي يستمدّ فاعليته وقوته من مجموع الشعب هي في أنْ يتكلّم النّاس في الشّأن السّياسي مؤيدين أو منتقدين لحماية مصالحهم الحقيقيّة في مواجهة البنى العليا في المجتمع الّتي تتبع سياسات مضادّة لمصالح مجموع الشعب على المدى القريب أو البعيد، والّتي تعمل

١. الحثالة: الرديء من كلّ شيء.

٢. نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ١٢٩.

بأستمرار لتكوين حالات اجتماعية، ومشاغل واهتمامات فكريّة تصرف فئات الشعب عن مصالحها الجوهرية[١] وتقعد بها عن مساعدة الحكم الشّعبي الّذي يمثل هذه المصالح و يعمل لتحقيقها، هذا إذا لم تفلح هذه البنى العليا في أنْ تؤلّب بعض فئات الشّعب ـ نتيجة للتّضليل ـ ضد هذا الحكم.

وسكوت الشّعب في حالة النّشاط المعادي الّذي تقوم به البنى العليا، أو عدم مبالاته، بترك السّاحة خالية أمام هذه القوى لتفسد على الحكم الشّعبي سياساته المستقبليّة دون أن تخشى عقاباً، لأنّ الحكم في هذه الحالة يقف في مواجهة تلك القوى وهو أعزل، وهذا يمنعها من التّغلب عليه أو من تجاوزه. وهذا ما كان يحدث في كثير من الحالات في عهد الإمام عليه السّلام، وكان يثير غضبه على النّخبة لفسادها، ويحمله على كشف عيوبها أمام أعين النّاس.

لقد كان الإمام عليه السّلام حريصاً أشدّ الحرص على أنْ يحرّك الجماهير و يدفع بها دوماً إلى أنْ تعبّر عن رأيها، وتعلن عن مواقفها.

وتعكس لنا النّصوص إدراك الإمام العميق للأهميّة الكبرى والحاسمة الّتي تبيّنها هذه المسألة في عمله السّياسي، وذلك في مظهرين:

الأوّل:

كثرة المناسبات الّتي أثار فيها الإمام موضوع الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وتنوّع الأساليب الّتي شرحه بها. وهذا أمر ملفت للنّظر بالنّسبة إلى حكم شرعي ثابت في القرآن الكريم والسّنّة النبوية و يعتبره الفقهاء من الأحكام القطعية الضّرورية، إنّ هذا الإهتمام المستمر على مسألة الأمر والنّهي يكشف عن أنّ الإمام كان يواجه في المجتمع حالة غفلة عن الحكم الشّرعي بوجوب الأمر والنهي، وحالة تراخ عن القيام

١ . في المؤتمر الّذي عقده الخليفة عثمان بن عفان، عند تعاظم موجة الإحتجاج والتّذمر ـ وجمع الولاة والعمال الكبار ـ لمعالجة الموقف المتفجّر بالغضب والتّقمة على سياسة الدّولة ـ كان اقتراح عبدالله بن عامر، حاكم ولاية البصرة أن تحبس الجيوش حيث هي (تجمر) ولايؤذن لها بالعودة ليشغل الجنود بمشاكل حياتهم اليوميّة عن النشاط السّياسي ـ ومن المؤسف أنّ هذا الإقتراح هو الّذي تمّ العمل به فأدى إلى الفتنة الكبرى.

بهذه الفريضة الإسلامية على وجهها، وهذه الغفلة وهذا التراخي حملاه على أنْ يذكّر المسلمين بفريضة الأمر والنّهي ما استطاع.

الثّاني:

عنف الأسلوب الّذي عبّر به الإمام عن أفكاره وعن معاناته حين كان يوجّه خطاباته إلى المسلمين في هذا الموقف أو ذاك مقرّعاً لائماً، أو مشجعاً حاثاً لهم على أداء هذه الفريضة... وهو ما يكشف عن أنّ الإمام يعاني من قلق عميق وغضب مكبوت نتيجة لما يراه في المجتمع من إهمال. وتراخ.

*

وقد حثّ الإمام المسلمين على الإلتزام العملي بفريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر في حياتهم العامّة وعلاقاتهم الإجتماعية والسّياسيّة بأساليب متنوعة، ونظر إليها من زوايا متعدّدة.

ومن جملة الأساليب الّتي اتّبعها في تعليمه الفكري والسّياسي بالنّسبة إلى هذه الفريضة أسلوب التّنظير التّاريخي، فمن ذلك قوله في الخطبة القاصعة:

«وَإِنَّ عِنْدَكُمُ الْأَمْثَالَ مِنْ بَاْسِ اللهِ وَقَوارِعِهِ، وَأَيّامِهِ وَوَقائِعِهِ، فَلاَ تَسْتَبْطِئُوا وَعِيدَهُ جَهْلاً بِأَخْذِهِ، وَتَهاوُناً بِبَطْشِهِ، وَيَاْساً مِنْ بَاْسِهِ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ لَمْ يَلْعَنِ الْقَرْنَ الْماضِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ، إِلاَّ لِتَرْكِهِمُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلَعَنَ اللهُ السُّفَهاءَ لِرُكُوبِ الْمَعاصِي، وَالْحُلَماءَ لِتَرْكِ التَّناهِي»[1].

نلاحظ أنّ الإمام عبّر في هذا النّص، كما في نصوص أخرى ـ عن إنكاره بشأن ما يراه في مجتمعه من تهاون وتراخ في امتثال فريضة الأمر والنّهي، بأسلوب شديد الوقع يتجاوز النصيحة الرّقيقة الهادئة إلى الإنذار الشّديد، والتّحذير من أهوال كبرى مقبلة، واستعان على تصوير ذلك بالتذكير بما حلّ في القرن الماضي من اللّعن نتيجة لإهماله هذه الفريضة أو تراخيه عن القيام بها.

١ . نهج البلاغة: الخطبة رقم: ١٩٢.

واللّعن هنا ليس عقاباً روحياً وأخروياً فقط، إنّه هنا يأخذ معنى سياسيّاً، إنّ اللّعن هو البعد عن رحمة الله ورعايته، وهذا يعني أنّ الملعون يتعرّض للنّكبات السياسيّة والإجتماعيّة الّتي تؤدي به في النهاية إلى الإنحطاط والإنهيار.

والظاهر أنّ الإمام يعني بالقرن الماضي الإسرائيليّين، فإنّ في كلامه هنا قبساً من الآية الكريمة:

«لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَىٰ لِسانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانوا لَايَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»[١].

*

في النّص التالي اتّبع الإمام أسلوب التّنظير بالتاريخ أيضاً في تعليمه الفكري لمجتمعه بشأن فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، معيداً إلى أذهان مستمعيه قصة ثمود القرآنية، والنّكبة المرعبة الّتي أبادتهم حين عصوا أمر الله تعالى إليهم في شأن ناقة نبيهم صالح(ع).

وليس من همنا هنا عرض الحادث التاريخي القرآني، وإنّما نبغي الكشف عن استخدام الإمام للتاريخ في تعليمه الفكري.

والإمام في التّنظير الوارد في النّص التّالي يثير مسألة ذات أهمية بالغة في العمل السّياسي، وهي أنّ حركة التاريخ تقودها دائماً جماعة قليلة العدد من الناس تملك القدرة على الحركة فتبادر إلى اتّخاذ المواقف، في حين أنّ غيرها من الناس يكون في حالة سكون، فتكوّن بحركتها وقائع جديدة تحمل الناس على قبولها، وتضع السّلطة أمام أمر واقع.

وحين تكون هذه الجماعة المتحركة القليلة العدد ملتزمة بقضايا مجتمعها، عاملة في سبيل مصلحته، فإنّ واجب المجتمع أن يساندها و يقدّم لها العون المعنوي والمادّي في جهادها.

١. سورة المائدة (مدنيّة ـ ٥) الآية: ٧٨ ـ ٧٩.

أمّا حين تعمل هذه الجماعة ضد مصالح المجتمع العليا والحقيقة ـ رغم ماتوشّي به عملها من ألوان خادعة ـ فإنّ على المجتمع أن يتحرك و يقف في وجهها، و يلجم اندفاعها ذوداً عن مصالحه.

أمّا سكوت المجتمع ،سكونه وسلبيته تجاه مواقف هذه الجماعة فإنّه جريمة يرتكبها في حق نفسه، لأن الكارثة حين تقع في النهاية نتيجة لأعمال الجماعة المتحركة لا تميّز بين المسبّبين لها و بين السّاكتين عنهم. إنّها حين تقع تصيب بشرورها المجتمع كلّه، بل لعلّها، في قضايا السّياسة والفكر، تصيب السّاكتين عنها أكثر ممّا تصيب المسبّبين لها، والّذين تكمن مصلحتهم في الإنحراف والتزو ير.

ومن هنا فإنّ ما اصطلح عليه في لغة السّياسة في هذه الأيام باسم الأكثريّة الصّامتة، هذه الأكثريّة الّتي لا تبدي فيما يجري أمامها وعليها ولا تعيد، وإنما تقبل مايقوم به الآخرون مختارة أو مرغمة، راضية أو ساخطة،... هذه الأكثريّة الصّامتة بموقفها هذا تقوم بدور الخاذل للحق أو المتواطئ على الجريمة.

وذلك لأن الصّمت في هذه الحالات ليس علامة على البراءة والطّيبة، وإنّما هو علامة الجبن والغفلة والفرار من المسؤولية.

وهذه السّلبية الّتي هي في مستوى الجريمة لا تعفى من العقاب، والعقاب في هذه الحالة لا تقوم به السّلطة وإنّما تقوم به القوانين الإجتماعية الّتي تصنع الكارثة، يقوم به القدر الّذي لايميّز بين السّاكن والمتحرك وإنّما يجرف الجميع، يقوم به الله تعالى الّذي يؤاخذ الجميع بذنوبهم: المتحركين بذنب المعصية، والساكتين بذنب توفير أجواء الجريمة أمام المجرمين ليرتكبوا جرائمهم.

ولذا، فإنّ الأكثرية الصّامتة، من هذا المنظور، لا تضمّ أبرياء، وإنّما تضمّ متواطئين وجبناء، سبّبوا، بإيثارهم للسّلامة الشخصية العاجلة، كوارث عا مّة مستقبليّة، وجبنهم الّذي يكشف عن أنانيتهم الرّخيصة والذّليلة يكشف عن أنّهم ليسوا جيلاً صالحاً لأن يبني حياة مزدهرة.

إنّ الكوارث الإجتماعية، كالكوارث الطّبيعيّة، تجرف في طريقها، حين تقع النّبات النّافع والنّبات الضّار، ولا تميّز بينها في الدّمار.

قال عليه السلام:

«...وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيءٌ مِنَ ٱلْحَقِّ، وَلاَ أَظْهَرَ مِنَ ٱلْباطِلِ، وَلاَ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْكَذِبِ عَلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذلِكَ ٱلزَّمانِ سِلعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ ٱلْكِتابِ إِذا تُلِيَ حَقَّ تِلاوَتِهِ، وَلاَ أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَواضِعِهِ، وَلاَ فِي ٱلْبِلادِ شَيءٌ أَنْكَرَ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ وَلاَ أَعْرَفَ مِنَ ٱلْمُنْكَرِ، فَقَدْ نَبَذَ ٱلْكِتابَ يَوْمَئِذٍ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ فَٱلْكِتابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدانِ مَنْفِيّانِ، وَصاحِبانِ مُصْطَحِبانِ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لاَ يُؤْوِيهِما مُؤْوٍ... فَٱلْكِتابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ ٱلزَّمانِ فِي ٱلنَّاسِ وَلَيْسا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ، لأَنَّ ٱلضَّلالَةَ لاَ تُوافِقُ ٱلْهُدَى وَإِن ٱجْتَمَعا...»[١].

وتصور الفقرة الأخيرة من هذا النّص أبلغ تصوير واقع الإنفصال بين الأمّة وبين قيادتها الفكريّة نتيجة لاغترابها الثقافي، وانفصالها -في مجال تكوين المفاهيم والتوجيه- عن أُصولها الفكريّة.

وهذا الإغتراب الثّقافي -الحضاري النّاشئ عن هجر الأصول- وليس عن التّفاعل مع الآخرين -يؤدّي إلى موقف في المنكر والمعروف خطير، فإنّ ثمّة مقياسَيْنِ للقيم والمثل الأخلاقية. أحدهما المقياس الموضوعي، والآخر المقياس الذّاتي.

المقياس الموضوعي هو الّذي يجعل شريعة المجتمع وعقيدته منبعاً للقيم الأخلاقية ففي مجتمع إسلامي، مثلاً، يكون منبع القيم هو العقيدة والشّريعة الإسلاميتان.

وكذلك الحال في مجتمع مسيحي مثلاً أو بوذي.

وهذا المقياس يقضي بأن يكون المجتمع ملتزماً بعقيدته وشريعته في مؤسساته ونظمه وعلاقاته بدرجة تجعله تعبيراً عن تلك العقيدة والشّريعة.

والمقياس الذّاتي هو الّذي يجعل منبع القيم الأخلاقية شخص الإنسان، فالإنسان في هذه الحالة هو الّذي يخترع أخلاقياته وقيمه الّتي تكيّف سلوكه تجاه المجتمع وعلاقاته في داخل المجتمع، و يستبعد هذا المقياس أي مصدر للقيم خارج الذّات للقيم والأخلاقيّات.

١. نهج البلاغة - الخطبة رقم ١٤٧.

قال عليه السلام:

«أيُّها ٱلنّاسُ. إنَّما يَجْمَعُ ٱلنّاسَ الرِّضَىٰ وَالسُّخْطُ، وَإنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَعَمَّهُمُ ٱللهُ بِٱلْعَذابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِا لرِّضَىٰ»[١].

*

وقد حذّر الإمام مجتمعه في إحدى ٱستبصاراته نحو المستقبل من وضعيّة فكريّة وثقافية تؤدّي إلى هجر الأصول الثقافية والفكرية الّتي تكوّن روح المجتمع الإسلامي وتسمه بطابعه الخاص المميّز له عن سائر التجمعات الثقافية ـ الحضارية، وتعطيه دوره المميّز والخاص في حركة التاريخ العالمي و بناء الحضارة... وتؤدّي به ـ نتيجة لانبثاقه عن أصوله ـ إلى أن يكون نسخة من ثقافة أخرى، ووحدة من وحدات حضارة أخرى، وتغدو الأصول الثقافية الّتي ترجع كلّها إلى الكتاب والسّنّة مجرّد أشكال يتداولها النّاس دون أن يكون لها دور في تكوين المفاهيم، و بناء الشّخصية، ورسم طريق العمل.

إنّ المسلمين أنفسهم، يومئذٍ، سينبذون الكتاب باعتباره مصدراً للمفاهيم الفكريّة، و يتّجهون نحو منابع غريبة عن ثقافتهم وحضارتهم، وعقيدتهم وشريعتهم، وتاريخهم، يستمدّون منها الغذاء العقلي والنفسي، والتوجيه السلوكي.

ونـنبّه هنا إلى أنّ الإغتراب الثّقافي النّا شئ عن هجر الأصول ـ وهو ما حذّر الإمام منه ـ غير الإنفتاح الثّقافي ـ الحضاري الّذي يتولّد من الطّموح إلى التّفاعل مع الآخرين واكتشاف صيغهم الحضاريّة والتعرّف على فتوحهم الفكريّة مع الحفاظ على الأصول، والأمانة للذّات ومقوّماتها... فهذا الإنفتاح أمر مطلوب مرغوب، وقد مارسه المسلمون وكانوا سادة فيه حين أنشأوا الحضارة الإسلاميّة العظيمة الّتي انفتحت على كلّ الإنجازات الخيّرة في الحضارات الأخرى، فاكتشفوها وكيّفوها وفقاً لقيم الإسلام، ومفاهيم الإسلام، وأخلاقيات الإسلام المستمدة من الكتاب والسّنّة والفقه.

١. نهج البلاغة ـ رقم النّص ٢٠١

وحينئذٍ يقع التعارض بين عقيدة المجتمع الرّسمية وشريعته، و بين أخلاقيّات وقيم أفراده وفئاته، ففي مجتمع إسلامي، مثلاً، أو مسيحي أو بوذي، لابدّ أنْ نكتشف ـ في حالة شيوع المقياس الذّاتي للقيم بين الأفراد ـ أنّ التزام المجتمع بعقيدته وشريعته التزام شكلي يرافق الإلحاد العملي.

والأثر الذي يترتب على التزام المقياس الموضوعي للقيم في المجتمع أو المقياس الذّاتي هام جداً.

أولاً:

يؤدّي اعتماد المقياس الموضوعي إلى نمو الفرد دون عُقد وتمزقات داخلية، لأنه يوفّر حالة التّجانس والتّكامل بين محتوى الضّمير والعقل و بين التعبير السّلوكي في العلاقات مع المجتمع وفي داخله.

أمّا اعتماد المقياس الذّاتي فإنّه يؤدّي إلى خلاف ذلك، لأنّ اتباع المقياس الذّاتي يحدث للفرد تمزقات داخلية وعُقداً في نفسه، لأنّه يجعله دائماً في حالة تعارض وتجاذب بين الزام العقيدة والشّريعة و بين رغبات الذّات باعتبارها مصدراً للقيم، و يؤدي ذلك إلى انعكاسات ضارة لا تقتصر على الأفراد، وإنّما تتجاوزهم إلى المجتمع نفسه.

وثانياً:

إنّ المقياس المضوعي بما يوفّره من تجانس في داخل الفرد بين أخلاقياته من جهة ومعتقده وشريعته من جهة أخرى يؤدي إلى تلاحم واسع النطاق داخل المجتمع، و يكّون لدى المجتمع نظرة واحدة إلى المشكلات، و يؤدّي أيضاً إلى تكو ين مواقف واحدة أو متقاربة بين الجماعات تجاه التّحديات الّتي تواجه المجتمع.

أمّا اعتماد المقياس الذّاتي فإنّه يؤدّي إلى العكس من ذلك. إنّه يؤدّي إلى تخلخل البنية الإجتماعية، وتعدّد الفئات ذات المنازع الفكريّة والسّياسيّة المختلفة، و يكوّن مناخاً ملائماً لتولّد المشاكل الإجتماعية وتعاظمها، لأنّ المقياس الذّاتي لدى الأفراد والجماعات شديد التنوّع والإختلاف.

وهذا التشرذم يؤدّي: أمّا إلى العجز عن اتخاذ مواقف موحّدة على الصّعيد القومي أو الوطني نتيجة لتعدّد الإرادات والميول، وأمّا إلى الإستسلام للدّعاية السّياسيّة الّتي يخطط لها و ينفذها فريق من ذوي الأغراض والغايات الخاصة يخضع عقول الناس لمفاهيمه وقناعاته، ويحملها على قبول اختيارات قدلا تنسجم مع المصالح الحقيقية للأمّة، وإنّما تنسجم مع مصالح هذا الفريق الّذي يملك وسائل الدّعاية والإعلان والإعلام، وهذا هو مايحدث في العصر الحديث، و يؤدّي إلى كوارث كبرى على الأصعدة الوطنية في بعض الحالات، وعلى الصعيد العالمي في بعض الحالات الأخرى، حيث يعرّض سلام العالم كلّه أو سلام قارّة بكاملها لمطامح ومطامع حفنة صغيرة من الناس تكيّف عقول شعوب بكاملها، دافعة بها إلى اتخاذ مواقف سياسيّة تناقض مصالحها الوطنية، ومصالح جميع الشّعوب، وقضية فلسطين أكبر شاهد على مانقول.

لقد نبّه الإمام عليه السّلام إلى هذا الخطر، وحذّر منه مجتمعه، فقال:

«فَيَا عَجَباً، وَمَا لِيَ لاَأَعْجَبُ مِنْ خطإِ هذهِ ٱلْفِرَقِ عَلَى ٱخْتِلاف حُجَجِها فِي دِينِها. لاَيَقْتَصُّونَ أَثَرَ نَبِيٍّ، وَلاَيَقْتَدُونَ بِعَمَلِ وَصِيٍّ، وَلاَيُؤْمِنونَ بِغَيْبٍ، وَلاَيَعِفُّونَ[1] عَنْ عَيْبٍ. يَعْمَلُونَ فِي ٱلشُّبُهاتِ وَيَسِيرونَ فِي ٱلشَّهَواتِ. ٱلمَعْروفُ فِيهِمْ مَا عَرَفُوا وَٱلْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَاأَنْكَرُوا. مَفْزَعُهُم فِي ٱلْمُعْضِلاتِ إِلَى أَنْفُسِهم وَتَعْوِيلُهُمْ فِي ٱلْمُهِمّاتِ عَلَىٰ آرائهم، كَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِيءٍ مِنْهُمْ إِمَامُ نَفْسِهِ، قَدْأَخَذَ مِنْها فِيما يَرَىٰ بِعُرًى ثِقاتٍ وَأَسْبابٍ مُحْكَماتٍ»[2].

*

وأخيراً، لقد بلغ من خطورة فريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر عند الإمام علي(ع) أنّه جعلها إحدى وصاياه البارزة الهامّة لابنَيهِ الإمامين الحسن والحسين. وقد تكرّرت هذه الوصية مرتين. إحداهما لابنه الإمام الحسن في وصيته الجامعة

١ . ولايَعِفّون: أي يستحسنون مابدالهم استحسانه، و يستقبحون ماخطر لهم قبحه بدون رجوع إلى دليلٍ بيّن، أو شريعة واضحة. يثق كلّ منهم بخواطر نفسه، كأنّه أخذ منها بالعروة الوثقى على مابها من جهل ونقص

٢ . نهج البلاغة ـ الخطبة رقم ٨٨.

الّتي كتبها إليه بحاضرين عند انصرافه من صفّين. والأخرى في وصيته للإمامين الحسن والحسين في وصيته لهما وهو على فراش الإستشهاد بعد أن ضربه ابن ملجم المرادي بالسّيف.

قال عليه السّلام في الوصية الأولى:

«...وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسانِكَ وَبَايِنْ[١] مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ وَلاَ تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ[٢].

وقال عليه السّلام في الوصية الثّانية:

«... أُصِيكُمْ وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتابِي... وَعَلَيْكُمْ بِالتَّواصُلِ وَالتَّباذُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدابُرَ وَالتَّقاطُعَ، لاَ تَتْرُكُوا الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلاَ يُسْتَجابُ لَكُمْ»[٣].

*

سلام الله على عليّ في الخالدين.

١ . باين: أي باعِدْ وجانِبْ.
٢ . نهج البلاغة ـ باب الكتب ـ رقم النّص: ٣١.
٣ . نهج البلاغة ـ باب الكتب ـ رقم النّص: ٤٧.

التاريخ في مجال السياسة

التّاريخ في مجال السّياسة

تمهيد

السّياسة لدى رجل العقيدة ورجل الدّولة الحاكم القائد ـ وهو ما كانه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ أداة للتّغلّب على سلبيات الماضي والحاضر من أجل التّوصل إلى أوضاع حياتية أفضل في المستقبل لأكبر قدر من النّاس.

والسّياسة، في الوقت نفسه، أداة للمحافظة على إيجابيّات الماضي والحاضر أمام عواصف التغيير والتقلّبات المفاجئة التي قد تحمل للمجتمع السّياسي في ثناياها نذر كارثة.

السّياسة، إذن، ليست فنّ التغيير فقط، إنّها فنّ الثّبات أيضاً.

إنّ السّياسي الأمين على قضية مجتمعه، يعيش في أبعاد الزّمان كلّها ـ ماضيه وحاضره ومستقبله ـ و يتعامل مع حقائق الماضي، وواقع الحاضر، وآمال ومخاوف ومطامح المستقبل، يقود، بحذر لا يبلغ الجمود ومغامرة لا تبلغ التّهوّر، مجتمعه نحو آفاق جديدة دون أن يبتر استمراريّته و بعده في الماضي.

نقول هذا في مواجهة دعاة التغيير منافي عصرنا هذا، التغيير الّذي يستهدف استئصال جذورنا لقذفنا في الفراغ تحت شعار: ريادة المستقبل، جاعلين منا ساحة لتجربة النّظريات و الأفكار الّتي توضع في مراكز الحضارة الحديثة في أوربّا وأمريكا والإتحاد السّوفياتي.

نقول هذا داعين إلى إعادة النّظرة في هذا النهج لمصلحة نهج آخر أقلّ غلوّاً، وأكثر واقعية، وأوثق صلة بتكويننا العقيدي والحضاري والثّقافي، وأشدّ مواءمة لمصالحنا في الحاضر والمستقبل، وأوفق بدورنا الّذي نطمح إلى استعادته لنساهم به في إنقاذ الإنسان الحديث بتقويم الحضارة الحديثة، وتصحيح مسارها نحو وضعيّة ملائمة لتكوين الإنسان.

*

لقد كانت سياسة أميرالمؤمنين علي(ع) ـ كما سنرى وجوهاً منها في الفصول التالية.. محكومة بهاجس واحد كبير ونبيل: تكوين الإنسان المسلم المتكامل القوي السّعيد، والمجتمع المسلم المتكامل القوي السّعيد، الإنسان والمجتمع المؤهلين ليكونا قوة خيّرة في العالم، يمثلان طموح الإنسانيّة الدّائم المتوهج نحو مثل أعلى.

وقد كانت، لذلك سياسة لا تستمد مقوّماتها من الحفاظ على الذّات وعلى مصالح الحاكم وأُسرته، فلقد كانت أُسرة أميرالمؤمنين علي أكثر النّاس حرماناً من خيرات حكمه، وكان هو عليه السّلام أكثر حرماناً من أسرته.

وكانت سياسته تستضيء بنور الفكر، وتستهدي تعليم الله، وتنفلق من قيم الأخلاق والمناقب الّتي تشرّف الإنسان، ولذا فقد كانت سياسة الإمام إنسانية بكلّ ما لهذه الكلمة من محتوى.

لم تكن أبداً سياسة الأفعال وردود الأفعال، وحسابات الأرباح والخسائر للحاكم وآله وبطانته... هذه السّياسة الّتي تحمل روح الطيّش والغريزة، وتوجّه بعقليّة مزيج من روح الغاية وروح التّجارة.

وقد كان أميرالمؤمنين علي في سياسته أميناً لعقيدته، أميناً لشريعته، فلاينحرف عنها أبداً، ولايتجاوزهما ـ كما لايقصّر عنها ـ في أمر من الأمور أو في حالة من الحالات.

أميناً لأخلاقيّاته القرآنيّة ـ النّبويّة، ولذا فقد جعل من العمل السّياسي ممارسة رفيعة للمناقب، أميناً لمجتمعه، فيشركه في اتخاذ القرارات بعد أنْ يبصّره بعواقب سوء الإختيار:

«...وَلَقَدْ أَصْبَحْنا فِي زَمانٍ قَدِاتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً[١] وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَىٰ حُسْنِ الْحِيلَةِ. مَالَهُمْ! قَاتَلَهُمُ اللهُ! قَدْيَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ[٢] وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَاحَرِيجَةَ[٣] لَهُ فِي الدِّينِ»[٤].

وقال في موقف آخر:

«وَاللهِ مَامُعَاوِيَةُ بِأَدْهَىٰ مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ. وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ. وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ «وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٥] وَاللهِ مَااُسْتُغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلَا اُسْتَغْمَزُ[٦] بِالشَّدِيدَةِ»[٧].

*

و بعد هذا التمهيد، كيف تعامل أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب مع التّاريخ في مجال تعليمه السّياسي.

١. الكيس: الفطنة والذّكاء.
٢. الحوّل القلّب: هو البصير بتحويل الأمور وتقليبها.
٣. الحريجة: التحرج والتحرز من الآثام.
٤. نهج البلاغة ـ الخطبة رقم: ٤١.
٥. حديث مروي عن النّبي(ص).
٦. لاأستغمز على البناء للمجهول ـ لايستضعفني الرّجل القوي. والغمز ـ بفتح الميم. الرّجل الضّعيف.
٧. نهج البلاغة ـ رقم النّص: ٢٠٠.

١ ـ حركة التّاريخ
في مظهر التّفاعل الإجتماعي الثّوري

البشر يتحركون دائماً في الزّمان والمكان: يبدعون، و يتواصلون بالتّجارة والصداقة تارةً، و بالعداوة والحرب تارةً، و بالفكر دائماً.

و يتعاملون مع الطّبيعة دائماً. يكيّفونها و يتكيّفون معها، ويحبّونها ويهربون منها في بعض الأحيان.

وهم يواجهون الإخفاق وخيبات الأمل في حالات، و يسعدون بنشوة النصر في حالات أخرى. و يشلّهم اليأس عن الحركة في بعض الحالات، ولكن سرعان مايؤجّج الأمل في التّقدم والمستقبل الأفضل في قلوبهم جذوة الرغبة في التغيير فيعودون إلى الحركة من جديد.

وهكذا يصنع البشر تاريخهم باستمرار. ينسجونه خيطاً فخيطاً، و يبنونه ذرّةً فذرّةً من ملايين الآمال الصّغيرة، والمخاوف الصّغيرة، والأحقاد الصّغيرة، والشّهوات الصّغيرة، الّتي تنكرّ لهم كلّها وتتراكم فتتكوّن منها عجينة التاريخ.

ولكنها لن تكون تاريخاً مالم تأخذ قواماً معيناً ومالم تتشكل بهيئة معينة... مالم تتضمن فكرة تغيير، وروح تغيير، وعزيمة تغيير، تجعل من آحاد الآمال والمخاوف والأحقاد والشّهوات التي تبلغ الملايين شيئاً واحداً كبيراً تنبض فيه روح واحدة تلقّ بوهجها كلّ المجتمع والجماعة، وتدفع بهم ـ لافي طريق الحركات الأحاديّة المبعثرة ـ في طريق حركة واحدة متدفقة هادرة، تحدوها رؤيا واحدة أو رؤى متقاربة تلتقي على التّغيير. حينئذٍ تنشط حركة التّاريخ الّتي كانت هادئة أو أمينة، وتتعاظم، وتلد الأحداث الكبيرة، وتدخل المجتمع والجماعة في منعطف من التاريخ جديد.

قد يتمّ هذا التفاعل في حال السّلم والإستقرار الإجتماعي فتكون الفترة الزّمنية الّتي يستغرقها التّغيير ـ بعد فترة الإعداد والإختمار ـ طويلة نسبيّاً، لأنّ التّغيير التّاريخي يتمّ في هذه الحالة وفقاً لمعادلات السّلم والإستقرار الّتي تجعل الإنسان أكثر أناة وتؤدة في حركته، وأكثر قدرة على الإختيار.

وقد يتمّ هذا التفاعل في حال الغليان الإجتماعي والقلق العام. في هذا الحال تنشأ ظاهرتان:

الأولى ـ ظاهرة رفض وتمرّد في الجماهير، يغذيها و يؤججها اليأس من العدالة الرّسمية، و ينعشها الأمل في مستقبل أفضل لهذه الجماهير يتوصل إليه دعاة التّغيير.

الثّانية ـ تقابل الأولى وتتولّد منها، وهي إجراءات القمع التي تلجأ إليها السّلطة الرسميّة من أجل أن تضمن سيادة وثبات نظامها وقيمها.

إنّ هذا القمع يعزز روح اليأس والغضب، و يدفع إلى مزيد من التّمرّد والرّفض، و يرصّ ـ بدرجة أعلى من الصّلابة والتّماسك ـ ملايين الآمال والمخاوف والأحقاد والشّهوات، و يؤجج روح الغضب، و يدفع الجماهير، أكثر فأكثر، نحو العنف باتجاه التغيير.

في هذه الحالة تقصر نسبياً، الفترة الحاسمة الّتي يستغرقها التّغيير ـ بعد فترة الإعداد والإختمار ـ.. إنّ الأحداث تتسارع، و يتعاظم حجمها، وتتسع مساحة الفئات الإجتماعية الّتي تشارك فيها، وتتصاعد إلى أن تبلغ الذّروة الّتي ينهار عندها العهد التّاريخي الّذي كان سائداً، و يدخل المجتمع في منعطف من تاريخه جديد.

*

إذن البشر لا يتوقفون عن صنع التأريخ، لكنّهم قد يصنعون تاريخهم في حال السّلم، وقد يصنعونه في حال الغليان والتّوتّر الإجتماعي، كما قد يصنعونه بالحرب.

وقد لاحظ الإمام علي عليه السّلام حركة التّاريخ في مظهرها الثّاني لأنّ الظّروف السّائدة في مجتمعه كانت تدفع بهذا المجتمع نحو هذا المسار الدّامي في مواجهة مستقبله المكفهر، الحافل بالأنواء.

*

لقد تسببت أخطاء الحكم في عهد الخليفة عثمان بن عفان في خيبة آمال فئات واسعة من المسلمين وغضبها. كما تسبّبت ـ إلى جانب ذلك ـ في انبعاث كثير من القيم والأخلاق والمطامح الجاهليّة الّتي نَشطت للعمل من خلال ممثليها ورموزها في قمة السّلطة في مجالات السّياسة والإقتصاد والإجتماع. وقد أدّى انبعاث هذه القيم الجاهليّة إلى تعارض في المصالح بين ممثلي هذه القيم و بين أكثرية المسلمين الّذين كانت تغتذي نفوسهم بالآمال الّتي تولدها قيم الإسلام في العدالة الخالصة والمساواة... هذا التعارض المأساوي الّذي مافتئت تغذيه أخطاء الحكم وسياسات الرّموز الجاهلية العائدة، فتعمّقه، وتزيده حدّة، وتدفع به إلى مزيد من الإ تساع والإنتشار.

وقد تراكم كلّ ذلك على مدى سنين، واتّسع إلى أن شمل حواضر الدّولة كلّها، وأدى في النّهاية إلى عاقبته الوخيمة وثمرته المرّة: ثورة شارك فيها الأغنياء والفقراء، السّاخطون بلاحقد والحاقدون من علية القوم. وأدّت الثورة إلى مقتل الخليفة عثمان، وإلى دخول المسلمين في منعطف من تاريخهم جديد طلبوا من علي بن أبي طالب أن يقودهم فيه، ولكنّه رفض طلبهم، لأنّه أدرك ـ وهو الراعي للتاريخ وأفاعليه وآلية حركته ـ أن حجم الحاجات الّتي يفتقر إليها النّاس والآمال الّتي تعمر قلوبهم أكبر بكثير من حجم الإمكانات الّتي توفرها مؤسسات الدّولة، وأن حجم المعوّقات الّتي يمثّلها رموز العهد الماضي وفحواه الّتي شلّتها الثورة فاضطرت إلى الإنكماش... حجم هذه المعوّقات كبير وخطير، لأنّها مستشرية في جميع مراكز السّلطة، وقد قال لهم معلناً رفضه:

«دَعُونِي وَٱلْتَمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لاَ تَقُومُ لَهُ ٱلْقُلُوبُ، وَلاَ تَثْبُتُ عَلَيْهِ ٱلْعُقُولُ[١]. وَإِنَّ الآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ[٢]، وَٱلْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ[٣]. وَٱعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ

١ . لا تقوم له القلوب: لاتجرئ عليه. لا تثبت عليه العقول: لا تكاد تفهمه وتحققه، يومئ بذلك إلى المشكلات الإجتماعية والأزمات الّتي عصفت بالمجتمع كلّه.

٢ . أغامت: حجبها الغيم، كناية عن صعوبة إيجاد الحلول المقبولة من الجميع.

٣ . المحجّة: الطّريق الواضحة ـ وتنكرت: التبس أمرها على النّاس.

رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِ إِلَىٰ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ وَعَتْبِ ٱلْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً»[١].

وقد ذكّر الإمام، فيما بعد، بموقفه هذا في مناسبات كثيرة، منها قوله في كلام له عند خروج طلحة والزّبير عليه:

«فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ ٱلْعُوذِ ٱلْمَطَافِيلِ عَلَىٰ أَوْلَادِهَا[٢]، تَقُولُونَ: ٱلْبَيْعَةَ ٱلْبَيْعَةَ!! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا[٣]

ومنها قوله لطلحة والزّبير أيضاً:

«وَٱللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي ٱلْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي ٱلْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ[٤]، وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا...»[٥].

وقال في موقف آخر:

«...وَبَسَطْتُمْ يَدِي فَكَفَفْتُهَا، وَمَدَدْتُمُوهَا فَقَبَضْتُهَا. ثُمَّ تَدَاكَكْتُمْ عَلَيَّ[٦] تَدَاكَّ ٱلْإِبِلِ ٱلْهِيمِ[٧] عَلَىٰ حِيَاضِهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، حَتَّىٰ ٱنْقَطَعَتِ ٱلنَّعْلُ، وَسَقَطَ ٱلرِّدَاءُ، وَوُطِئَ ٱلضَّعِيفُ، وَبَلَغَ مِنْ سُرُورِ ٱلنَّاسِ بِبَيْعَتِهِمْ إِيَّايَ أَنِ ٱبْتَهَجَ بِهَا ٱلصَّغِيرُ، وَهَدَجَ إِلَيْهَا ٱلْكَبِيرُ[٨]، وَتَحَامَلَ نَحْوَهَا ٱلْعَلِيلُ، وَحَسَرَتْ[٩] إِلَيْهَا ٱلْكِعَابُ»[١٠]!

١. نهج البلاغة - رقم النّص: ٩٢.
٢. العوذ المطافيل: الإبل والضّباء ذات الأولاد، وهي جمع عائذة، ومطفل كناية عن اللّهفة الّتي توجهوا بها إليه طالبين منه قبول بيعتهم، كما اللّهفة الّتي تقبل بها أمّ الطّفل على ولدها.
٣. نهج البلاغة - رقم النّص: ١٣٧.
٤. الإربة: الغرض والرّغبة.
٥. نهج البلاغة - رقم النّص: ٢٠٥.
٦. التّداك الإزدحام - تصوير لحالهم في الإقبال على البيعة.
٧. الهيم: العطاش: تصوير لرغبتهم العارمة في إنجاز البيعة.
٨. الهدج: مشي الضّعيف. بيان لإقبال الجميع على البيعة، حتّى أولئك الذين لهم من سنهم العالية أو مرضهم عذر يعفيهم من مشقة التّزاحم على البيعة.
٩. الكعاب: جمع كاعبة: الفتاة ينهد ثدياها. وحسرت كشفت عن وجهها كناية عن إقبال النّاس جميعاً وفرحتهم بالبيعة.
١٠. نهج البلاغة - رقم النّص: ٢٢٩.

لماذا أبىٰ عليّ بن أبي طالب أن يستجيب..؟

لعلّه كان يأمل أن يمرّ المجتمع ـ بعد ما أصاب علاقاته من اهتزاز وتشويه في العهد الماضي ـ في مرحلة انتقال يقوده فيها رجال لا تتألّب عليهم مراكز القوى الجديدة الّتي تمثّل قيم الجاهليّة...

ولكنّ تيّار الرّغبة كان عارماً، كما تعكسه لنا النّصوص الآنفة الذّكر، ولم يكن من الممكن تحويل ولاء الجماهير وثقتها إلى بديل. لقد كان الرّفض يعني الكارثة، لأنّ القوى الجاهليّة كانت قادرة ـ إذا استمر الفراغ في السّلطة ـ أن تعود من جديد بعد أن تكتّل قواها المبعثرة، وحينئذٍ يحرم المجتمع الإسلامي حتّى من تجربة تكون في المستقبل نموذجاً وملهماً...

ولا نعدم في نهج البلاغة نصوصاً تضيء هذه المسألة، وتوحي بقوّة أنّ الإمام كان يفكر على هذا النّحو، وذلك كقوله في كلام له عنونه الشّريف الرّضي بـ«...يبيّن سبب طلبه الحكم و يصف الإمام الحق»:

«...اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ، وَلَا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ»[١].

وقوله في كتاب منه إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لمّا ولّاه إمارتها:

«...وَلَكِنَّنِي آسَىٰ[٢] أَنْ يَلِيَ[٣] أَمْرَ هٰذِهِ الْأُمَّةِ سُفَهَاؤُهَا وَفُجَّارُهَا، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللهِ دُوَلاً[٤] وَعِبَادَهُ خَوَلاً[٥] وَالصَّالِحِينَ حَرْباً[٦]. وَالْفَاسِقِينَ حِزْباً...»[٧].

١. نهج البلاغة ـ رقم النّص: ١٣١.

٢. آسى: أحزن. الماضي منه. أسيت بمعنى حزنت.

٣. يلي: يكون والياً وحاكماً على الأُمّة.

٤. دولاً: جمع دولة، يعني: لئلاّ يكون المال العام بأيدي السّفهاء والفجّار يتداولونه بينهم لمصالحهم مهملين مصالح الأمّة فيه. والعبارة تومئ إلى قول الله عزّ وجلّ (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ـ سورة الحشر ـ الآية ٧).

٥. خول: عبيد، يعني لئلا يستعبدوا النّاس و يذلّوهم.

٦. حرباً ـ أعداء يحاربونهم.

٧. نهج البلاغة ـ باب الكتب ـ رقم النّص: ٦٢.

وهكذا استجاب عليّ بن أبي طالب للرّغبات الملّحة المتلهفة، فقبل كارهاً ـ على مايبدو ـ أن يتولّى السّلطة و يقود الأمّة. وقدتبلورت وتحددت باستجابته وتولّيه للسّلطة ثلاث قوى سياسيّة ـ فكريّة، هي:

١ ـ النّهج الإسلامي الصّافي النّبوي: تمثّله السّلطة الشرعيّة (الخلافة) وعلى رأسها أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب(ع).

والهدف الآني المباشر والملحّ لهذا النهج كان تصحيح الأوضاع السّياسيّة والإداريّة والإقتصاديّة فِي المجتمع الإسلامي الّذي يتطلّع بلهفة إلى تغييرات تحقق آماله. كما كان هذا الهدف يستبطن هدفاً آخر هو إعادة الإعتبار النّظري والعملي للمفاهيم والقيم الإسلامية.

٢ ـ النهج الجاهلي المموّه بالإسلام: وقد كان هذا النّهج يتمتع بسلطة واسعة وثابتة في المنطقة السّوريّة. وكانت له جيوب في الحجاز، والعراق، ومصر، وغيرها من بلاد الإسلام.

وقد بدا منذ اللّحظة الأولى أنّ قائد هذا النّهج هو معاو ية بن أبي سفيان، والهدف الآني والنّهائي لهذا النّهج هو تثبيت الأوضاع القديمة، وإجهاض النّهج النّبوي أو قمعه بإثارة المشاكل والفتن في وجهه.

إنه الثّورة المضادّة. إنّه قطع الطّريق على حركة التغيير.

.. وقد عبّر الإمام عن قادة هذا النّهج بأنهم «أرادُوا ردَّ الأمورِ عَلَىٰ أدْبارِها» وذلك في كلام له عن أصحاب الجمل:

«إنَّ هؤُلَاءِ قَدْ تَمَالأوا[1] عَلَىٰ سَخْطَةِ[2] إمارَتي، وَسَأصْبِرُ مَالَمْ أخَفْ عَلَىٰ جَمَاعَتِكُمْ، فَإنَّهُمْ إنْ تَمَمُوا عَلَىٰ فَيالَةِ[3] هٰذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإنَّمَا طَلَبُوا هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ

١ . تمالأوا: تواطأوا واتفقوا وتعاونوا.

٢ . السّخطة: البغض والنّعرة.

٣ . فيالة الرّأي: ضعفه وسخفه.

أفاءَها[١] آللهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ آلأُمُورِ عَلَىٰ أَدْبارِهَا. وَلَكُمْ عَلَيْنَا آلْعَمَلُ بِكِتَابِ آللهِ، تَعَالَىٰ، وَسِيرَةِ رَسُولِ آللهِ(ص)، وَآلْقِيَامُ بِحقِّهِ، وَآلنَّعشُ[٢] لِسُنَّتِهِ»[٣].

٣ ـ الموقف المتردد الحائر ـ إذا صح أنْ يسمى التّردد موقفاً ـ.

وتمثّل هذا الموقف بعض القيادات الثّانويّة: (سعد بن أبي وقاص، عبدالله بن عمر.. وآخرون).

هذا النّهج لم يبلغ من الصفاء والوعي درجة تحمله على أنْ ينضوي في النّهج النبوي وكانت مصالح رجاله من جهة وأثارة من التّقوى في أنفس بعضهم من جهة أخرى، قدحملتا هؤلاء الرّجال على التزام جانب الحيطة والحذر من النهج الجاهلي فلم ينحازوا إليه في هذه المرحلة، وإن كان بعضهم قدوالى النّهج في النّهاية.

هؤلاء قال عنهم الإمام(ع):

«خَذَلُوا آلْحَقَّ، وَلَمْ يَنْصُروا آلْبَاطِلَ»[٤].

ولما قال له الحارث بن حَوْط: أتُرانِي أظُنّ أصْحابَ آلجَملِ كانُوا عَلىٰ ضَلاَلَة؟ قَالَ لَهُ الإمامُ:

«يَا حَارِثِ إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَحِرْتَ[٥]، إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ آلْحَقَّ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ، وَلَمْ تَعْرِفِ آلْبَاطِلَ فَتَعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ».

فَقالَ لَهُ آلْحارِثُ بنُ حَوْط: فَإنّي أعتزِلُ مَعَ سَعِيدِبنِ مالِك وَعَبْدِآللهِ بنِ عُمرَ.. فَأَجابَه آلإمامُ قائلاً:

«إِنَّ سَعِيداً وَعَبْدَآللهِبْنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا آلْحَقَّ، وَلَمْ يَخْذُلاَ آلْبَاطِلَ»[٦].

١ . أفاءها الله.. أرجعها إليه، من فاء بمعنى رجع.

٢ . النّعش، من نعش ينعش: بمعنى رفع السّنة إلى مقام العمل والتّطبيق.

٣ . نهج البلاغة ـ رقم النّص: ١٦٩.

٤ . نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم: ١٨.

٥ . حِرْتَ: من «حار» أي تحير.

٦ . نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم: ٢٦٢.

وكان بعض ممثلي هذا الموقف يتمتعون باحترام محدود في قواعدهم القبليّة، وهذا الإحترام لم ينبع من ولاء فكري بل من ولاء قبلي، كما كانوا يتمتعون باحترام محدود من جماهير المسلمين نابع من صحبتهم للنّبيّ (ص) ومن غموض موقفهم من الخيارات المطروحة على السّاحة السّياسيّة.

*

وقد أدرك الإمام منذ اللّحظة الأولى صعوبة موقفه، فكشف للأمّة عن أنّ حركة التّاريخ قد عادت ذات نبض جاهلي، فقد عاد التاريخ السابق على النّبوة.. كما صارح الأمة بأنّ المواجهة مع القيم البائدة العائدة تقتضي الحكم بأنْ يكون قوياً وصارماً... كما صارحهم بأنّ الآمال في تغيير سريع وكامل نحو الأفضل ينبغي أنْ تتضامن قليلاً ليتاح للسّلطة الشّرعيّة أنْ تواجه قوى الجاهلية بمرونة.

هذه الرّؤية السّياسيّة عبّر عنها الإمام في خطبة خطبها في أوّل خلافته، في المدينة، أوهي ـ حسب رواية الجاحظ في كتابه «البيان والتّبيين» عن أبي عبيدة معمربن المثنى ـ أوّل خطبة خطبها بالمدينة، قال فيها حسب رواية الجاحظ عن أبي عبيدة:

«ألاَ لاَيَرعيَنَّ مُرعٍ إلاَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ[1] شُغِلَ مَنِ ٱلْجَنَّةُ وَٱلنَّارُ أَمَامَهُ. سَاعٍ مُجْتَهِدٌ يَنْجُو، وَطَالِبٌ يَرْجُو، وَمُقَصِّرٌ فِي ٱلنَّار...

«اليَمِينُ وَٱلشِّمالُ مَضَلَّةٌ، وَٱلْوُسْطَى ٱلْجَادَّةُ[2] مَنْهَجٌ عَلَيْهِ بَاقِي ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَآثَارِ ٱلنُّبُوَّة.

إنّ ٱللهَ دَاوىٰ هٰذِهِ ٱلأُمَّةَ بِدَوائَيْنِ: السَّوْط وَٱلسَّيْف، لاَهَوادَةَ[3] عِنْدَ ٱلإمَامِ فِيهِمَا. اسْتَتِروا فِي بُيُوتِكُمْ[4] وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَٱلتَّوْبَةُ مِنْ وَرائِكُمْ. مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ[5]... انظُرُوا: فإنْ أَنْكَرتُمْ فانْكرُوا، وإنْ عَرَفْتُم فَازرِرُوا... وَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيءٌ فَأَقْبَلَ. وَلَئِنْ رُجِعَتْ

١ . لايرعين.. أي لايبقين، أرعيت عليه أي أبقيت: يقول: من سالم وهدأ فإنّما سلّم نفسه وأبقى عليها.

٢ . الجادّة: الطريق المستقيمة الواضحة.

٣ . الهوادة: الرفق والصلح، وأصله اللّين.

٤ . استتروا في بيوتكم: لايريد منع التّجول كما يقولون في أيّامنا، وإنّما يريد النّهي عن التّجمعات ذات الطابع التّحزبي القبائلي الّتي تدفع إليها العصبية القبلية كما إنّه لاينهاهم عن النقد السّياسي لأنه قال (فإنْ أنكرتم فانكروا).

٥ . الصّفحة: جانب الوجه، أو هي الوجه. يريد الإمام أنّ من تعرّض للحق بمخالفته وتجاوزه يهلك، لأنّه سيعاقب.

إلَيْكُمْ أُمُورُكُم إنّكم لَسُعَدَاءُ وَإنّي لأخْشَىٰ أنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ، وَمَا عَلَيْنَا إلّا الإجْتِهَادُ...»[١].

حذّرهم، أوّلا، من إثارة القلاقل والإضطربات.

ثم أثار في عقولهم وقلوبهم عقيدة البعث واليوم الآخر.

ثم بيّن لهم أن الإنحراف عن منهج الكتاب والسّنة إلى اليمين أو إلى الشمال يؤدّي بصاحبه إلى الضّلال والتّيه، ولذا فإنّ نبض الجاهلية العائد ضلال.

ثم كشف لهم عن أنّ المرحلة تقتضي الحكم أن يكون صارماً (السّوط والسّيف)، ولذا، فإنّ على النّاس ألّا يخوضوا في أيّ شأن يزيد الوضع سوءاً بإثارة العصبيّات القبليّة والنّزعات العشائريّة، داعياً إيّاهم إلى أن يكفّوا و يتوبوا عمّا سلف منهم من إفساد.

ثمّ أعطاهم حق الرّقابة، وطالبهم بحقه في تأييدهم ومؤازرتهم.

ثم أبدى تشاؤمه من المستقبل وشكّه في عودة النهج النّبوي إلى سابق قوّته (قَلَّما أدْبَرَ شَيءٌ فَأقْبَلَ)، ولكنه، مع ذلك، لم يفقد الأمل في تحسن الأوضاع، (لَئِنْ رُجِعَتْ إلَيْكُمْ أُمُورُكُمْ إنَّكُمْ لَسُعَدَاء).

ثمّ حذرهم من أنّ على الآمال المشرقة في التغيير نحو الأحسن... نحو النّهج النّبوي الصافي، أنْ تضامن نفسها، وأن يعود أصحابها إلى شيء من الواقعيّة في تطلعاتهم: «...وإنّي لأخْشى أنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَةٍ».

قال ابن أبي الحديد في شرح هذه الفترة:

«الفترة هي الأزمنة الّتي بين الأنبياء إذا انقطعت الرّسل فيها، كالفترة بين عيسى عليه السّلام ومحمّد صلّى الله عليه وآله، لأنّه لم يكن بينهما نبي، بخلاف المدّة الّتي كانت بين موسى وعيسى عليهما السّلام لأنّه بعث فيها أنبياء كثيرون. فيقول عليه السّلام: إنّي لأخْشى ألّا أتمكن من الحكم بكتاب الله تعالى فيكم، فتكونوا

١ . ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ١/٢٧٥ - ٢٧٦. ورواها الشّريف الرّضي في نهج البلاغة بتغيير بعض العبارات، انظر الخطبة رقم ١٧٦: «ومن خطبة له عليه السّلام في الشّهادة والتّقوى، وقيل: إنّه خطبها بعد مقتل عثمان في أوّل خلافته.

كالأمم الّذين في أزمنة الفترة لايرجعون إلى نبي يشافههم بالشّرائع والأحكام. وكأنّه عليه السّلام كان يعلم أنّ الأمر سيضطرب عليه.

«ثمّ قال: (وَمَا عَلَيْنَا إلّا ٱلإجْتِهادُ) يقول: أنا أعمل مايجب عليّ من الإجتهاد في القيام بالشريعة وعزل ولاة السوء وأمراء الفساد عن المسلمين، فإن تمّ مأريده فذاك، وإلّا كنت قدأعذرت»[١].

*

إنّ الإمام عليه السّلام قبل الحكم، إذن، بمزيج من التّشاؤم والأمل، ولكن سرعان ماتسرّب الذّبول إلى شعلة الأمل، فإنّ القوى المترددة سرعان ماأخذت تنحاز رويداً رويداً نحو المعسكر المناهض للنّهج النّبوي، إنْ لم يكن في العلن ففي السّر... هذا من جهة، ومن جهة أخرى راحت الجماهير الغاضبة، المترعة قلوبها بآمال التّغيير تضغط في سبيل التّغيير دون أنْ تقدّر ظروف المرحلة. وكان أتّباع سياسة متوازنة ضرورة حيويّة لئلاّ ينفجر المجتمع من الدّاخل بانحياز قوى موالية للنّهج النّبوي، ولكنها غير واعية وغير ناضجة، نحو معسكر الثّورة المضادّة.

*

وهكذا، فبعد الصّدمة الّتي شلّت قوى الثّورة المضادّة، و بعد فترة الإنتظار الّتي مرّت بها الفئات الأخرى من الأمّة، تفجّر الموقف من جديد، وعاد الغليان إلى المجتمع، وعادت حالة الإختلاط والإضطراب المحمومة.

وظهرت للإمام عليّ في هذه المرحلة الّتي بلغت فيها أزمة الحكم وأزمة الفكر الذّروة ـ ظهرت له بوضوح تام موجع ومدم للقلب معالم تاريخ المستقبل للأمّة الإسلاميّة حافلاً بالأهوال والمآسي، و بكلّ مافيه من ظلام ودماء، وتمزقات وانهيارات، تتخللها هنا وهناك، في بعض الأحيان، لمعات نور وحالات سلام عارضة، وآمال مضيئة ملهمة، وخيبات أمل قاسية.

لقد رأى، رأى بحدس يضيئه نور نبويّ، وعقل مستوعب لحركة التاريخ وآليتها

١. المصدر السابق: ٢٨١/١.

الّتي تكاد أنْ تكون رياضيّة ـ رأى الفتنة آتية بكلّ ظلامها، وحيلها، وتلبيسها الحق بالباطل.

ورأى بعدها انتصار حركة الرّدة بقيمها الجاهليّة، بلبسها للإسلام (لبس الفرو مقلوباً).

ورأى بعد ذلك معاناة الأمة: فسمع بقلبه الكبير أنين المظلومين الّذين تسحقهم أنيابها الوحشية، ورأى بقلبه الكبير نزيف الدّماء من ضحاياها، وأحسّ بأعمق أعماق كرامته الإنسانية ذلّ الإنسان المسلم في مجتمع الرّدة، وبكى بحرارة ومرارة لكلّ ماسيصيب الناس بعده.

ورأى بعد ذلك نار الثّورة تحرق كلّ شيء، وتهدم كلّ شيء، تستلهم حقّ الناس ومرارتهم... ولكنها ثورة تقع في أخطاء الفتنة في أحيان، وفي مهاوي الرّدة في أحيان، وقلّما تهتدي الطّريق الوسطى...

ورأى أخيراً، في البعيد البعيد... بعد طول عذاب وعناء، نور الأمل الآتي في النّهاية... نور الخلاص.

٢ ـ الفتنة

فتنة: تعبير قرآني يدلّ، حين يسند إلى الله تعالى و يصدر عنه، تارة على الإختبار والإمتحان الرّبّاني بالنّعمة، ومن هذا ماورد في قوله تعالى:

«وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ»[١]

أو يدلّ في موارد أخرى على الإختبار والإمتحان الرّبّاني بالمصاعب والشدائد، ومن هذا ماورد في قوله تعالى:

«أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لَايُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَاذِبِينَ»[٢]

وهذه الفتن ذات وظيفة تربوية تعزز صلابة المؤمنين، وترفع درجة وعيهم، وتميز عنهم الدّخلاء والمنافقين.

هذا التعبير القرآني ذو المضمون التربوي الإيجابي، غدا عند الإمام عليّ مصطلحاً سياسياً ـ تاريخياً ذا مدلولات متنوعة يتّصل بالحركة التّاريخيّة للمجتمعات في الحاضر وفي المستقبل.

وهو ذو مدلول سلبي بالنّسبة إلى حركة التّقدّم النّبويّة.

إنّ الفتنة عند الإمام ـ باعتبارها ظاهرة سياسيّة ـ معوّق لحركة التّقدّم، ونكسة في

١ . سورة الأنفال (مدنية ـ ٨) الآية: ٢٨ ـ ووردت آية أخرى مماثلة في سورة التّغابن (مدنيّة ـ ٦٤) الآية: ١٥.

٢ . سورة العنكبوت (مكيّة ـ ٢٩) الآية: ٢ ـ ٣.

سير حركة النبوّة، وهي، والحال هذه، ليست من صنع الله تعالى، وإنّما هي من صنع البشر.

*

قسّم الإمام الفتنة إلى قسمين:

أحدهما: الفتنة بالمعنى القرآني التربوي، واعتبر أنّ الفتنة بهذا المعنى ذات دور إيجابي، بشرط أنْ تكون استجابة الإنسان لها بروح إيماني ملتزم، ووعي أخلاقي مسؤول، ولذا فلا معنى للإستعاذة بالله من الفتنة بهذا المعنى فإنّ ذلك سخف، لأنّها تلازم طبيعة الحياة ووجود الإنسان، فلا توجد حياة مكتملة دون أنْ توجد معها فتنة بهذا المعنى.

وثانيهما: الفتنة بأعتبارها ظاهرة سياسيّة، وهذه هي الفتنة الّتي يحذر منها و يستعاذ منها، وهي الّتي أعطاها الإمام في تعليمه الفكري مدلولاتها السّياسية ـ التّاريخية. وسمّاها (مضلاّت الفتن).

وقد شرح الإمام ذلك بقوله:

«لاَيَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اَللّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ اَلْفِتْنَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلاّ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ فِتْنَةٍ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَعاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلاَّتِ اَلْفِتَنِ، فَإِنّ اَللهَ سُبْحانَهُ يَقُولُ: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ) وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحانَهُ يَخْتَبِرُ عِبادَهُ بِالأَمْوالِ وَالأَوْلاَدِ لِيَتَبَيَّنَ اَلسّاخِطَ لِرِزْقِهِ وَاَلرّاضِيَ بِقِسْمِهِ، وَإِنْ كَانَ سُبْحانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِتَظْهَرَ اَلأَفْعالُ اَلّتِي بِها يُسْتَحَقُّ اَلثَّوابُ وَاَلْعِقابُ، لأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ اَلذَّكُورَ وَيَكْرَهُ اَلإِناثَ، وَبَعْضَهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ اَلْمالِ وَيَكْرَهُ اَنْثِلاَمَ اَلْحالِ»[1].

*

وليس من أهداف هذه الدّراسة البحث عن الفتنة بأعتبارها مصطلحاً تربويّاً، وإنّما الهدف منها هو البحث عن الفتنة بأعتبارها مصطلحاً سياسيّاً ـ تاريخياً، فلنرَ فيما يأتي تقسيم الإمام لها باعتبارها ظاهرة سياسيّة، وتحليله لآليّة حركتها: كيف تبدأ

١. نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم النص: ٩٣.

وتنمو وتنتشر، وتوجيهه في شأن الموقف الّذي ينبغي اتخاذه حين تقع. ولنرَ دور عليّ في مواجهة الفتنة الّتي بدأت طلائعها في عهده، وأخيراً رؤيته لفتنة بني أميّة بعده.

*

يبدو من تحليل النصوص الّتي اشتمل عليها نهج البلاغة بشأن الفتنة والمقارنة بينها أنّ ثمّة ثلاثة أنواع من الفتن:

١ ـ الفتنة الشّاملة.

٢ ـ الفتنة العارضة.

٣ ـ الفتنة الغالبة.

وهذه التّسميات وضعناها نحن، ولم ترد في كلمات الإمام عليّ، على ضوء ما لاحظناه عن اتساع المساحة الفكريّة الّتي تطبعها الفتنة بطابعها، وتؤثّر بالتّالي على الوضعيّة السّياسيّة والعلاقات الإجتماعيّة والإنسانيّة داخل المجتمع.

أ ـ الفتنة الشّاملة

تكون الفتنة شاملة حين تكون نظاماً فكريّاً يسود مجتمعاً من المجتمعات ذات الحضارة أو البدويّة ـ الرّعويّة، فالحضارة التي تقوم الحياة فيها على قيم الضّلال في الفكر والأخلاق والضّياع، وتنبني مؤسساتها السّياسيّة والإجتماعية على الإعتبارات الّتي تنشأ من هذه القيم، وتحكم المجتمع السّياسي فيها علاقات فاسدة... هذه الحضارة تكون فتنة شاملة تصل إلى كلّ إنسان، وتنشر ظلالها خارج حدودها. إنّها الجاهلية قديمها وحديثها في ذلك سواء.

وكذا الحال فيما إذا كان نظام فكري كهذا يكوّن روح وعقل مجتمع بدوي ـ رعوي، لم يبلغ مرحلة الحضارة ذات الإنجازات في مجال التّعامل مع الطّبيعة والمؤسّسات التّنظيميّة.

وقد صور الإمام عليه السّلام هذه الفتنة الشّاملة في حديثه عن حال العالم، والعرب بوجه خاص ـ قبل بعثة رسول الله (ص) قال:

«...وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ ٱلْمَشْهُورِ، وَٱلْعَلَمِ ٱلْمَأْثُورِ، وَٱلْكِتَابِ ٱلْمَسْطُورِ... وَٱلنَّاسُ فِي فِتَنٍ ٱنْجَذَمَ[١] فِيهَا حَبْلُ ٱلدِّينِ، وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي ٱلْيَقِينِ[٢] وَٱخْتَلَفَ ٱلنَّجْرُ[٣] وَتَشَتَّتَ ٱلأَمْرُ، وَضَاقَ ٱلْمَخْرَجُ، وَعَمِيَ ٱلْمَصْدَرُ، فَٱلْهُدَىٰ خَامِلٌ، وَٱلْعَمَىٰ شَامِلٌ. عُصِيَ ٱلرَّحْمَانُ، وَنُصِرَ ٱلشَّيْطَانُ، وَخُذِلَ ٱلإِيمَانُ فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ، وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ[٤] وَعَفَتْ شُرُكُهُ[٥]، أَطَاعُوا ٱلشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ[٦]، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ وَقَامَ لِوَاؤُهُ، فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلاَفِهَا[٧] وَقَامَتْ عَلَىٰ سَنَابِكِهَا[٨]، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ، فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ. نَوْمُهُمْ سُهُودٌ، وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ، وَجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ»[٩].

في هذا النّصّ فصّل الإمام عليّ نظرته إلى نموذج من نماذج الفتنة باعتبارها ظاهرة سياسيّة لمجتمع ما.

والسّمات الّتي تميّز الفتنة الشّمالة فيما يفيده هذا النّصّ هي:

١ ـ مجتمع لايحكمه نظام أخلاقي، وخالٍ من الحياة الرّوحيّة السّليمة. وهذا لاينفي أنْ يتمتع المجتمع المذكور بنظام سياسي.

وهذه السّمة يدلّ عليها قول الإمام «انجذم فيها حبل الدّين» فالمجتمع منقطع الصّلة بالوحي، ومن ثمّ فهو لايتمتع بنظام روحي وأخلاقي.

٢ ـ مجتمع تسيطر على أفراده وفئاته روح الشّك. و يتبع فيه ـ في مجال القيم ـ المقياس الذّاتي، لأنّه لايتمتع بمقياس موضوعي نتيجة لخلوّه من النّظام الأخلاقي والحياة الرّوحيّة.

١. انجذم: انقطع.
٢. السّواري: جمع سارية، وهي الدّعامة.
٣. النّجر: الأصل.
٤. درست: انطمست.
٥. عفت شركة: عفت: امّحت، وشركه جمع شراك: الطّريق.
٦. المناهل: جمع منهل، هو مورد النّهر.
٧. الخف للبعير: والظلف للبقر والشّاء: كالقدم للإنسان.
٨. السّنابك جمع سنبك: طرف الحافر.
٩. نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٢.

وهذه السّمة الثّانية يدلّ عليها قول الإمام في النّصّ الآنف «تزعزعت فيها سواري اليقين».

٣ ـ مجتمع منقسم على نفسه إلى شيع وأحزاب، تمزقه الصّراعات والنّزاعات و تجعله خالياً من روح التّضامن والتّكافل. ومن ثم فلا توجّه حركته آمال متحدة وهدف أخلاقي كبير، وإنّما توجّهه الرّغبات الفرديّة والفئويّة بسبب عدم وجود نظام أخلاقي من جهة، وانتشار روح الشّك واتباع المقياس الذّاتي في القيم من جهة أخرى.

وهذه السّمة يدلّ عليها قول الإمام «واختلف النّجر، وتشتّت الأمر، وضاق المخرج وعَمي المصدر...».

هذه هي السّمات الّتي تميّز الفتنة الشّاملة، وتطبع المجتمعات المفتونة بطابعها. وماجاء من أوصاف للمجتمع في الفقرات التالية من النّصّ الآنف هي نتائج لهذه السّمات الثّلاث الكبرى: فقدان النّظام الأخلاقي والحياة الروحيّة /شيوع روح الشّك واتباع المقياس الذّاتي في القيم/ الإنقسامات الطبقيّة والفئويّة والعائليّة، وعدم وجود هدف عظيم ونبيل يوجّه حركة المجتمع التاريخيّة.

هذه هي الفتنة الشّاملة.

وتسميتنا لهذه الفتنة بـ(الشّاملة) ناشئ من ملاحظة أنّها مستوعبة لكلّ المجتمع بحيث لايخلو منها أيّ مستوى من مستو یاته وأي مظهر من مظاهر الحياة فيه، فهي روحه وعقله: روحه الملهمة، وعقله الموجّه.

ب ـ الفتنة العارضة

الفتنة العارضة: عثرة تعترض سير المجتمع أثناء حركته التّقدّميّة فتشيع الحيرة والإلتباس في بعض المواقف، وتعرّض بعض الأشخاص القياديّين و بعض فئات المجتمع لاختبارات حرجة، وتحفّز بعض القيم القديمة للتّعبير عن نفسها، ولكن قوّة اندفاع المجتمع في حركته التّقدّميّة، وقوّة المبادئ الّتي تحكم سيره في قلوب وعقول أفراده ـ تحول بين الفتنة و بين أن تنتشر وتتعمق وتضرب بجذورها في ثنايا المجتمع، فسرعان ماينكشف وجه الحقّ فيها، وتذبل حركتها، ويخفت صوت الدّاعين إليها بين

الناس، بل يغدون موضعاً للنقد والتّجريح، وتجف الرّوافد الرّجعيّة الّتي تمدّها بالحياة والحركة، و يتعافى المجتمع من نكسته، ويخرج من التّجربة أكثر وعياً و يقظةً.

وقد مرّت على المسلمين في عهد رسول الله(ص) بعض الفتن العارضة الّتي تجاوزوها، بتوجيه رسول الله(ص)، بنجاح، وخرجوا منها دون أن تؤثّر على حركة المجتمع الإسلامي المندفعة إلى الإمام.

ولعلّ أشدّ هذه الفتن العارضة الّتي واجهت المجتمع الإسلامي في عهد النّبي(ص) خطورة كانت فتنة الإفك، في سنة ست للهجرة، في أعقاب غزو رسول الله(ص) والمسلمين لبني المصطلق من خزاعة.

وقبل الإفك ماحدث أثناء العودة من الغزوة المذكورة، حين أدّى تزاحم على الماء في بعض منازل الطّريق بين أجير لعمربن الخطاب من بني غفار اسمه (جهجاه)، و بين أحد حلفاء الخزرج واسمه (سنان بن و بر الجهني)، واقتتلا، فصرخ حليف الخزرج: «يامعشر الأنصار» وصرخ أجير عمربن الخطاب «يامعشر المهاجرين». ونشط المنافقون، وعلى رأسهم (عبدالله بن أبي سلول)، لاستغلال التّوتّر الّذي ولّده هذا النّزاع البسيط بين المهاجرين والأنصار، وهدّد ابن أبي سلول بأنهم إذا عادوا الى المدينة (لَيُخرِجنَّ الأعزُّ مِنها الأذلَّ)، وكادت الفتنة أن تجرف كثيرين...

ولكن حكمة رسول الله(ص) قضت على الفتنة في مهدها.

وأنزل الله في شأن هذه الفتنة الصّغيرة العارضة سورة المنافقين (رقم ٦٣ في المصحف) فضح فيها نوايا المنافقين وأساليبهم، وجعل منها درساً تربوياً إيمانيّاً وسياسيّاً للمسلمين عمّق وعيهم، وزاد يقظتهم، وعزّز صلابتهم أمام أساليب النّفاق.

أمّا فتنة الإفك فكانت أشد خطورة وأوسع انتشاراً.

لقد كانت مرتعاً خصباً للمنافقين يوهنون من خلالها مقام رسول الله(ص)، و يشوّهون سمعته، و يلقون ظلالاً من الرّيبة على طهارة بيته، في مجتمع يقوم على قيم صارمة فيما يتعلق بالطّهارة الجنسيّة، بما يؤدّي إليه الهمس الخفي في شأن كهذا في مجتمع كهذا من سخريات وظنون والاشاعات تضعف التّأثير النّفسي لتوجيهات رسول الله(ص).

وما هو أشد خطورة في دسّ المنافقين واستغلالهم للإمكانات الّتي يتيحها الإفك، هو أنّ الفتنة أدّت إلى تصدّع تلاحم المسلمين أنفسهم، حيث استغل زعماء قبيلة الأوس تورّط بعض أفراد قبيلة الخزرج في إشاعة الحديث عن الإفك، للتّعبير عن أحقاد قبلية جاهليّة تحت ستار الغيرة على رسول الله(ص)، والتّمسك بأهداب الدّين.

فقال رئيس الأوس (أسيدبن حضير) مخاطباً رسول الله(ص) حين وجه عتاباً رقيقاً للّذين روّجوا الإشاعة الكاذبة، دون أن يسمّي أحداً:

«يارسول الله: إنْ يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنّهم لأهل أنْ تضرب أعناقهم».

فقال سعد بن عبادة زعيم الخزرج رادّاً عليه:

«كذبت لعمر الله، لا تضرب أعناقهم. أمّا والله ماقلت هذه المقالة إلّا أنّك عرفت أنّهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ماقلت هذا...».

فقال أسيد بن حضير:

«كذبت لعمر الله، ولكنّك منافق تجادل عن المنافقين...».

وتساور النّاس[1] حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شرّ[2].

وهكذا وجدت القيم الجاهلية القديمة متنفساً تعبّر به عن نفسها من خلال هذه الفتنة متستّرة بشعارات إسلاميّة.

ولكن حكمة رسول الله(ص)، ووعي المجتمع، ورسوخ المبادئ والقيم الإسلاميّة في نفوس النّخبة حصرت الفتنة في نطاق ضيّق، وحالت دون تأثير في أحداث تفاعلات سيّئة بالنّسبة إلى حركة التّقدم النّبويّة. وجاء الوحي بعد ذلك فقضى على الفتنة، حيث أنزل الله تعالى في هذا الشّأن سورة النّور (السّورة رقم٢٤ في المصحف) وجعل منها درساً تربوِيّاً، ومناسبة لسنّ تشريعات تتعلق بالعلاقات بين الجنسين

١ . تساور النّاس: قام بعضهم إلى بعض ليتقاتلوا.

٢ . تراجع سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السّقا ورفيقيه (الطّبعة الثّانية) ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م/القسم الثّاني ـ ص: ٢٨٩ ـ ٣٠٧.

داخل المجتمع الإسلامي، في نطاق الزّوجية ـ من حيث العلاقات الزّوجيّة وغيرها ـ وخارج الحياة الزّوجيّة.

*

هذان نموذجان للفتنة العارضة في المجتمع الإسلامي في عهد رسول الله(ص) وقد واجه المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرّسول(ص) فتنة عارضة ذات طابع سياسي محض هي فتنة السّقيفة.

وقد بدأت هذه الفتنة حين تجاوز بعض كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وصية رسول الله(ص) بإسناد الخلافة بعده إلى الإمام علي بن أبي طالب، لأنّه كان الشّخصيّة الإسلامية الوحيدة الّتي تجمّعت فيها المواهب والمؤهلات الّتي جعلتها قادرة على قيادة الأمّة الإسلاميّة بعد وفاة رسول الله(ص).

وقد حسم النّزاع على منصب الخلافة بين المهاجرين والأنصار، في سقيفة بني ساعدة[١]، بمعزل عن الإمام علي بن أبي طالب، لمصلحة قبيلة قريش، بمبايعة الخليفة الأوّل (أبي بكر) على أثر مناورات سياسيّة استخدم فيها منطق قبلي، وكادت تؤدّي إلى انشقاق خطير داخل المجتمع الإسلامي الوليد[٢].

وقد كان العامل الأكبر والأبعد أثراً في التّغلّب على فتنة السّقيفة وآثارها الخطيرة هو موقف علي بن أبي طالب.

فقد كان الإمام علي بمؤهلاته المتفوقة بشكل مطلق على نخبة الصحابة، وبمواهبه النادرة الفريدة، وبالنّصّ عليه من رسول الله(ص) خليفة من بعده... كان لذلك كلّه رجل الشرعية الإسلاميّة الأصيل.

وكان هذا الوضع الحقوقي الموآتي بالنّسبة إليه يخوّله حق المعارضة، ونقض القرار والإنجاز الّذي اتخذ خارج الشّرعيّة في اجتماع السّقيفة، سعياً وراء حقه في تسلّم السّلطة.

١ . سقيفة بني ساعدة، مكان مسقوف بسعف النّخل في المدينة (يثرب)، وكانت مجمع الأنصار بعد الإسلام، ودار ندوتهم لفصل القضايا وإجراء المناورات.

٢ . يراجع للمؤلف: نظام الحكم والإدارة في الإسلام. كما يراجع للمؤلف أيضاً: ثورة الحسين ـ ظروفها الإجتماعيّة وآثارها الإنسانيّة (الطبعة الخامسة) الفصل الأوّل.

ولكن هذا الوضع الحقوقي النظري بالنسبة إليه، كان يواجه وضعاً اجتماعياً وسياسياً واقعياً.

فمن ناحية كان المجتمع الاسلامي الوليد لايزال مجتمعاً هشّاً من حيث التلاحم الداخلي الناشئ عن العقيدة الواحدة ، لأنّ القيم الجاهليّة كانت لا تزال سائدة في الحياة العامّة للقبائل الّتي دخلت في الإسلام في عام الوفود قبل وفاة النّبي(ص) بسنة وأشهر -أو أقل من سنة بالنسبة إلى إسلام بعض هذه القبائل- وكانت هذه القيم الجاهليّة في أحسن الحالات مستكنّة تحت قشرة رقيقة من الإسلام، وكان لابدّ من مضيّ وقت طويل قبل أن تذبل هذه القيم الجاهلية وتفقد حرارتها وفاعليّتها.

وفي حالة كهذه كان أيّ عمل سياسي يتّسم بطابع العنف سيؤدّي في الراجح إلى تصدع خطير في بنية المجتمع الإسلامي وتماسكه، وقديؤدّي إلى ردّة واسعة النّطاق في أوساط حديثي العهد بالإسلام.

ومن ناحية أخرى كان فريق من القبائل قدارتدّ فعلاً عن الإسلام، واتّبع بعض أدعياء النّبوة، وغدا يشكّل تهديداً حقيقيّاً للإسلام حين انتشرت ظاهرة التّنبّوء واتّجه قادتها إلى تحالف يوحّد قواهم، فسيطروا على اليمن تقريباً في الجنوب، وعلى مساحات واسعة من الحجاز ونجد في الشّمال.

وقد اتّجه الإمام عليّ إلى المعارضة والإحتجاج أوّل الأمر. ورفض الإعتراف بالنّتيجة الّتي أسفر عنها اجتماع السّقيفة، واعتصم في منزله، و بدا بوضوح أنّ موقفه سيثير تفاعلات خطيرة في وجه اختيار السّقيفة داخل المدينة وخارجها... ولكنّ الإمام عليّاً سرعان ماواجه الواقع السّياسي والإجتماعي للمجتمع الإسلامي الوليد، والأخطار الّتي ربّما تعرض لها الإسلام نفسه نتيجة لهذا الموقف.

ولو لم يكن عليّ بن أبي طالب رجل العقيدة الأوّل، ورجل الرّسالة الأوّل، الأكثر وعياً والأعظم شعوراً بالمسؤوليّة، لما ألقى بالاً إلى الواقع السّياسي والإجتماعي للإسلام، ولمضى في معارضته إلى نهايتها، مستغلاً الواقع السّياسي والإجتماعي في سبيل نجاح مسعاه للوصول إلى السّلطة.

ولكنّه كان بالفعل رجل العقيدة الأوّل، ورجل الرّسالة الأوّل، وأعظم المسلمين

إطلاقاً شعوراً بالمسؤوليّة تجاه الإسلام، وأعظمهم حرصاً على ازدهاره وانتشاره وتعمقه في العقول والقلوب.

ومن المؤكّد أنّ الحكم عنده لم يكن مطلباً شخصياً، بل وسيلة إلى بلوغ غاية تتجاوز الأشخاص والأجيال والمصالح الخاصّة لتعمّ وتشمل مابقي من عمر الدّنيا، وماتضمره القرون المقبلة من أجيال في كلّ الأوطان وفي كلّ الأمم.

إنّ عليّاً، بعد رسول الله(ص) ـ كان أب الإسلام. وقد تصرّف تصرّف الأب الحريص، فتحمّل بصبر جميل نبيل جراحه الشّخصية وحرمانه في سبيل قضيّة حياته الكبرى، قضيّة الإسلام.

ولاشكّ في أنّ جميع المسلمين كانوا يعرفون هذه الحقائق في شخصيّة وضمير الإمام عليّ، و يبدو أنّ منافسيه السّياسيّين قاموا بمغامرتهم النّاجحة[1] معتمدين على جملة معطيات من جملتها ثقتهم بأنّ الإمام سيقدّم مصلحة الإسلام العليا على مصالحه الخاصّة.

لقد أشار الإمام في كتاب له بعث به إلى أهل مصر مع مالك الأشتر لمّا ولّاه إمارتها، إلى العامل السّياسي الّذي حال دون مضيه في المعارضة، فقال:

«...فَأَمْسَكْتُ يَدِي[2] حَتَّىٰ رَأَيْتُ راجِعَةَ ٱلنّاسِ[3] قَدْرَجَعَتْ عَنِ ٱلإِسْلامِ، يَدْعُونَ إِلىٰ مَحْقِ دِينِ مُحَمَّدٍ(ص)، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ ٱلإِسْلامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً[4] أَوْهَدْماً تَكُونُ ٱلْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلايَتِكُمُ ٱلَّتِي إِنَّما هِيَ مَتاعُ أَيّامٍ قَلائِلَ يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ ٱلسَّرابُ، أَوْ كَما يَتَقَشَّعُ ٱلسَّحابُ فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ ٱلأَحْداثِ حَتَّىٰ زاحَ[5] ٱلْباطِلُ

١ . ممّا يوحي بشعور الجميع آنذاك بخطورة الإجراء الّذي اتّخذوه واشتماله على درجة كبيرة من المغامرة قول الخليفة عمرين الخطّاب في خلافته في تحذير غير مباشر وجّهه إلى طلحة والزّبير وغيرهما لما نمي إليه عنهم من آراء تتصل بطريقة انتقال السّلطة على الأسلوب الّذي تمّ في السّقيفة (كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرّها).

٢ . أمسكت يدي: توقّفت عن المشاركة في الموقف الرّاهن.

٣ . راجعة الناس: الرّاجعون عن الإسلام، المرتدّون.

٤ . ثلماً: خرقاً وانتهاكاً.

٥ . زاح: ذهب وزال.

وَزَهَقَ[١]، وَٱطْمَأَنَّ ٱلدِّينُ وَتَنَهْنَهَ[٢]».[٣]

وقد خيّب موقفه المبدئي الرّسالي آمال كثيرين ممّن كان إسلامهم موضع شكّ أو كانوا مسلمين مخلصين ولكنهم ينظرون إلى مسألة الحكم من زاوية المصالح القبليّة والعائليّة نتيجة لافتقارهم إلى النّضج والوعي.

وقد حاول بعض هؤلاء أنْ يحملوه على تغيير موقفه المبدئي الرّسالي، ولكنه رفض محاولاتهم، مصرّحاً بأنّ الموقف موقف فتنة، داعياً، إلى النّظر في الموقف وفقاً لمقياس عقيدي إسلامي مبدئي، والإبتعاد عن المنظور الجاهلي القبلي الّذي بدت سماته في تلك المحاولات.

وقد صرّح بذلك في مواقف كثيرة، منها قوله مخاطباً الناس حين دعاه أبو سفيان بن حرب والعبّاس بن عبدالمطلب إلى أن يبايعا له بالخلافة:

«أيُّها ٱلنّاسُ، شُقُّوا أمْواجَ ٱلْفِتَنِ بِسُفُنِ ٱلنَّجاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ ٱلْمُنافَرَةِ[٤] وَضَعُوا تِيجانَ ٱلْمُفاخَرَةِ. أفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَناحٍ، أوِ ٱسْتَسْلَمَ فَأَراحَ. هذَا مَاءٌ آجِنٌ[٥]، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِها آكِلُها. وَمُجْتَنِي ٱلثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إيناعِها[٦] كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أرْضِهِ»[٧].

*

والسّمات الّتي تميّز الفتنة العارضة، فيما نستفيده من جملة ماورد عن الإمام عليّ في هذا الشّأن، ومن الدّراسة التّاريخيّة،... أربع:

١ ـ تتولّد أزمة سياسيّة، قدتكون بسبب أحداث صغيرة، تكون غالباً غير مخطّط لها بل عرضيّة، ولكن سرعان ماتدخلها بعض القوى الإجتماعية ذات الأهداف السّريّة

١ . زهق: مات، يعني هنا: زال الباطل تماماً.

٢ . تنهنه: انتعش.

٣ . نهج البلاغة، باب الكتب، رقم النّصّ: ٦٢.

٤ . عرّج عن الطّريق: تنحّى عنها. يعني تنحّوا عن الأسلوب الجاهلي في الصّراع السّياسي وهو المنافرة والمفاخرة.

٥ . الآجن: الماء الّذي تغيّر لونه وفسدت رائحته ولم يعد صالحاً للشرب، يعني بذلك الأسلوب السّياسي الجاهلي.

٦ . الإيناع: النّضج والصّلاحيّة للأكل.

٧ . نهج البلاغة، الخطبةرقم: ٥

المخالفة لنظام المجتمع في نطاق خططها للإستفادة منها ومن تلك الأزمة السّياسيّة، في سبيل الوصول إلى أهدافها.

وقد تتولّد الأزمة السّياسيّة بسبب أحداث ذات شأن كبير ومخطّط لها ـ كما حدث في السّقيفة ـ ولكن الجماعات الّتي تصنع الحدث لا تستثمره لأهداف مخالفة لنظام المجتمع العام والسّائد، بل تكون عازمة على الإنسجام مع نظام المجتمع، ساعية إلى تعزيزه وفقاً لفهمها الخاص، عاملة على أن يكون ذلك من خلال سلطتها هي.

٢ ـ في الحالتين الآنفتين تحرّك الفتنة العارضة بعض القيم القديمة الّتي قضى عليها النّظام الجديد، إمّا بسبب ضعف رقابة النظام لانشغال أجهزته بالمشكلات السّياسيّة الآنية، أو بسبب التسامح مع بعض القوى السّياسيّة غير الواعية لأجل كسب ولائها في الصّراع السّياسي الدّائر. ولكن هذه القيم القديمة، في جميع الحالات، لا تعود سافرة صريحة، إنّما تعود مموّهة بشعارات جديدة.

٣ ـ (في الغالب) تتولّد الأحداث الّتي تكوّن مناخ الفتنة من مشكلات يثيرها أشخاص عاديون أو ذوو قيمة ثانويّة في السلم الإجتماعي، كما أنها تقع على أشخاص من هذا القبيل كما هو الحال في فتنة النّزاع على الماء بين الغفاري والجهني، ولكن علاقات الدّم والصّداقة والمصالح والمطامح سرعان ما(تسيّس) الأحداث وتستغلها. وقد يحدث أنْ تتولّد الأحداث من مشكلات يثيرها أشخاص ذوو شأن كبير في المجتمع أو تصيب هذه الأحداث أشخاصاً من هذا النّوع، كما هو الحال في حادثة الإفك وفي أحداث السّقيفة.

٤ ـ تواجه القيادة الحقيقيّة الشّرعيّة هذه الفتنة بسياسة تتّسم بالهدوء، وروح المسؤولية العالية، وتتجنب أتّخاذ أيّة إجراءات أو مواقف انفعالية وانتقامية، لما يؤدّي إليه ذلك من عواقب خطيرة تزيد الموقف تعقيداً والفتنة استحكاماً، وتتيح للقوى الخفيّة المعادية للنّظام (المنافقون، مثلاً في المجتمع الإسلامي) أنْ تستغل الوضع الطّارئ لتحقيق أهدافها (لاحظ السّمة رقم(١)).

وبدلاً من مواجهة أحداث الفتنة العارضة بالعنف والإنفعال، تحرص القيادة على

مواجهتها بأسلوب يعطي الأولويّة في الحل لمصلحة القضايا المبدئيّة والعامّة، لا للجانب الشّخصي والعائلي.

هذه هي، فيما نرى، أبرز سمات الفتنة العارضة.

ج ـ الفتنة الغالبة

هذا النوع الثّالث من أنواع الفتنة هو، كما يدلّ عليه الوصف الّذي اخترناه له، دون الفتنة الشّاملة، وفوق الفتنة العارضة.

وقد تنشأ الفتنة الغالبة من تدهور سياسي عقيدي ـ تشريعي كبير يحلّ بالمجتمع أثناء حركته الإنبعاثيّة، أو بعد بلوغه الذّروة.

كما قد تنشأ من فتنة عارضة تهمل القيادة جانب الحكمة في مواجهتها، أو تغفل عنه، فتتعاظم عثرة المجتمع، وتتغذّى الحالة الإنحرافيّة بالتّناقضات المستكنّة في أعماق التّركيب الإجتماعي، كما أنّها تتغذى بالقيم القديمة الّتي أجبرها النّظام الجديد على أنْ تنسحب من دائرة العمليات الإجتماعيّة إلى الظّلام.

وتفشل النّخبة في علاج العثرة بسبب عجز هذه النّخبة، أو بسبب تناحر أجنحتها وانحياز بعض الأجنحة إلى خط الإنحراف.

وعامل الزّمن في مصلحة الإنحراف، فكلّما مضى على الإنحراف يوم دون أنْ يوضع له حد ودون أنْ يقوّم، يزداد رسوخاً وتمكّناً، و يستوعب مساحة جديدة من المجتمع، و يكوّن لدى مزيد من النّاس قناعات في صالحه بينما تزداد النّخبة عجزاً، وعزلةً، وتفقد مزيداً من مواقعها.

وقبل مضيّ زمن طويل على الإنحراف الّذي أنشب مخالبه في كيان المجتمع، وفشلت النّخبة في القضاء عليه ـ يشيع هذا الإنحراف، و يطبع كثيراً من أوجه الحياة، و يغدو عرفاً أو قانوناً أو سنّة متبعة، تحميه وتصونه قناعات تتأصل في الثّقافة، وتغدو جزء من تكوين المجتمع الثّقافي.

قلنا: إنّ هذا يحدث قبل مضيّ زمن طويل على حدوث الإنحراف، لأن الإنحراف عادة يكون إلى جانب اليسر والسهولة والحياة الهيّنة وهذا مايغرى بالإتباع

لأنه أوفق بهوى النفوس، وأبعد عن التّبعة و التّضحية.

ولكن الإنحراف (الفتنة) لايبلغ درجة الشّمول واستيعاب كلّ مؤسسات المجتمع، ولايستطيع أن يغيّر بنيته الثّقافيّة من جميع وجوهها، ولايقدر على أنْ يستوعب في مفاهيمه وقيمه الجديدة المبتدعة أو القديمة المحياة ـ كلّ الفئات الإجتماعيّة، ومن ثمّ فهو لايستطيع أنْ يقضي نهائياً على حركة المجتمع التّقدميّة . إنّه يعوّقها ولكنّه لايعطّلها، يشوّهها ولايمسخها، إنّه لايبلغ درجة الفتنة الشّاملة، وإنّما يكون فتنة غالبة.

تبقى مع الإنحراف الغالب روح الطّهارة والأصالة شائعة في المجتمع بوجه عام، تغذي حركته التّقدميّة في أكثر من وجه من وجوه حياته ونشاطاته، وإنْ كانت هذه الرّوح تتعرّض دائماً للنّكسات بالنّسبة إلى عامّة المجتمع، ولكنّها تبقى على وهجها الكامل وفاعليّتها الكاملة في جماعات قدتكون محدودة وصغيرة، منبثّة في ثنايا المجتمع سلمت من الإنحراف فلم ينل منها شيئاً، و بقيت ثابتة على الصّراط المستقيم.

هذه الجماعات الأصيلة الطّاهرة هي طليعة الكفاح ضدّ الفتنة الغالبة في داخل المجتمع.. هي الّتي تحول بين الفتنة و بين أنْ تستوعب كلّ المجتمع وتغدو شاملة، وهي الّتي بكفاحها الدّائب الصّبور تحول بين الفتنة و بين التّمكّن والإستقرار، وتجعلها في حالة حرب مستمرة.

ومن هنا فإنّ المجتمع في حالة الفتنة الشّاملة يتمتع باستقرار وثبات نتيجة لتناغم المؤسسات مع القيم مع القناعات الشّعبيّة مع الثّقافة العامّة، فهذه كلّها تتكامل وتتساند، وتتوفّر نتيجة لذلك حالة من التّوازن توفّر بدورها استقراراً وثباتاً.

أمّا في الفتنة الغالبة فإنّ الأمر على خلاف ذلك، لأنّه يوجد تنافر قليل أو كثير بين المؤسسات والقيم والقناعات والثّقافة، وهذا يؤدّي إلى أنْ يعاني المجتمع باستمرار من القلق والفوران والتمزّق، نتيجة لوجود القوى المناهضة للفتنة، هذه القوى الّتي تضطرّ حركتها الأصيلة المناهضة نظام الفتنة إلى أنْ يتحرّك ضدّها.

*

والفتنة الغالبة، في عالم الإسلام، هي الفتنة الّتي استفحلت في آخر عهد الخليفة عثمان بن عفان، وقاد الإمام علي بن أبي طالب حركة التّصدّي لها طيلة السّنيّ

الأخيرة من حياته... واستمرت بعد استشهاده، وزادت ضراوة وعنفاً حين فترت الهمم وتقاعست العزائم عن التصدّي الفعّال لها، فانتصرت وسادت ـ قبل عهد الثّورات ـ حركة الرّدّة.

ومن هنا فقد كثر كلام الإمام علي عن هذه الفتنة من جميع وجوهها: نعرض أسباب و بدايات حدوثها، وآليّة حركتها، والموقف منها.

أ ـ كيف تبدأ الفتنة؟

كيف تبدأ الفتنة؟. قال عليه السلام:

«إنّما بَدْءُ وُقُوعِ ٱلْفِتَنِ أَهْواءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكامٌ تُبْتَدَعُ، يُخالَفُ فيهَا كِتابُ ٱللهِ، وَيَتَوَلّىٰ عَلَيْها رِجالٌ رِجالاً عَلَىٰ غَيْرِ دِينِ ٱللهِ. فَلَوْ أَنَّ ٱلْباطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزاجِ ٱلْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى ٱلْمُرْتادِينَ [١] وَلَوْ أَنَّ ٱلْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ ٱلْباطِلِ ٱنْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ ٱلْمُعانِدِينَ [٢] وَلٰكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هٰذا ضِغْثٌ [٣] وَمِنْ هٰذا ضِغْثٌ فَيُمْزَجانِ فَهُنالِكَ يَسْتَوْلِي ٱلشَّيْطانُ عَلَىٰ أَوْلِيائِهِ. وَيَنْجُو (الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا ٱلْحُسْنَىٰ) [٤]»[٥].

هذا النّصّ يكشف عن عاملين يكوّنان الفتنة الغالبة:

أحدهما:

تغليب المقياس الذّاتي في القيم على المقياس الموضوعي «أهواء تتّبع» فبدلاً من أنْ يكون المرجع في القيم النّظام العقيدي والتّشريعي للمجتمع، يتجاوز رواد الفتنة هذا النّظام فيرجعون إلى النّوازع الذّاتيّة و العاطفيّة والمصلحية فتكون هي المقياس بالمعتمد وهو المرجع الأخير في القيم والسّلوك ، وعلى ضوء ماتمليه تتخذ المواقف من الأحداث والأشخاص.

١ . المرتاد: الطّالب.

٢ . اللّبس: الملابسة والمخاطبة.

٣ . الضّغث من الحشيش القبضة منه. يعني يخلط شيء من الحقّ بشيء من الباطل فيشتبه أمرهما وتحصل الفتنة.

٤ . سورة الأنبياء (مكيّة ـ ٢١) الآية: ١٠١.

٥ . نهج البلاغة ـ الخطبة رقم: ٥٠.

ثانيها:

سقوط القانون وانتهاك حرمته على الصّعيد العملي: «...وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله»، وتغلّب العامل الشخصي بالإحتيال على الشّرعية القانونيّة الّتي يحتفظ لها المفتونون بالإحترام النّظري، و يتظاهرون بتطبيقها، بينما هي على الصّعيد العملي تنتهك كلّما تمكن الأقوياء من انتهاكها.

هذان العاملان: سقوط المقياس الموضوعي في القيم على صعيد الأخلاق والعلاقات الإجتماعية والسّياسيّة، وسقوط الشّرعية القانونيّة على صعيد المؤسسات العامّة والعلاقات والوضعيّة السّياسيّة والإقتصاديّة والإجتماعيّة... هذان العاملان هما جوهر الفتنة الغالبة.

ويحدث حينئذٍ أنْ تتكوّن القناعات الموالية للفتنة الغالبة لدى فئات اجتماعيّة جديدة: «...و يتولّى عليها رجال رجالاً عل غير دين الله» يتعزّز بها موقع الإنحراف في المجتمع، و يعمّق رسوخه في القلوب والعقول، و يتسع مداه فيشمل مساحات جديدة من الحياة.

ولكنّ الفتنة ـ كما ذكرنا آنفاً ـ لا تبلغ درجة الشّمول، بل يبقى للحقّ في المجتمع سلطان، و يبقى للشّرعيّة في المجتمع أعوان، هم «الّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا ٱلْحُسْنَىٰ» وهم الّذين يقودون حركة الكفاح ضدّ الباطل والفتنة من أجل الحقّ الخالص الّذي لايلتبس بالباطل.

*

ب ـ كيف تتحرّك الفتنة وتنمو؟

و يصف الإمام في نصّ آخر كيف تبدأ الفتنة، و يصوّر آليّة حركتها وانتشارها في المجتمع، وذلك في سياق وصفه للفتنة الغالبة الّتي كانت نذرها تطلّ على المجتمع الإسلامي في عهده:

«...ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلَايَا قَدِ ٱقْتَرَبَتْ، فَٱتَّقُوا سَكَرَاتِ ٱلنِّعْمَةِ وَٱحْذَرُوا بَوَائِقَ ٱلنِّقْمَةِ[١]، وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ ٱلْعِشْوَةِ[٢] وَٱعْوِجَاجِ ٱلْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَٱنْتِصَابِ قُطْبِهَا وَمَدَارِ رَحَاهَا. تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَتَؤُولُ إِلَىٰ فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ. شِبَابُهَا كَشِبَابِ ٱلْغُلَامِ[٣]، وَآثَارُهَا كَآثَارِ ٱلسِّلَامِ[٤] يَتَوَارَثُهَا ٱلظَّلَمَةُ بِٱلْعُهُودِ، أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ. يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَىٰ جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ[٥]. وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ ٱلتَّابِعُ مِنَ ٱلْمَتْبُوعِ، وَٱلْقَائِدُ مِنَ ٱلْمَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِٱلْبَغْضَاءِ[٦] وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ»[٧].

في هذا النّص صوّر الإمام آليّة حركة الفتنة، ونموّها وانتشارها في المجتمع، فأبرز الملامح التّالية:

١ ـ إنّ شيوع روح الترف في المجتمع، واستغراق النّخبة في الترف يؤدّيان بالمجتمع إلى أنْ يفقد روحه النّضاليّة الرّساليّة، ويحرص على حياته الهيّنة النّاعمة، وعلى توفير الوسائل الملائمة لبلوغ مستوى من الحياة أكثر نعومة وليناً.

كما أنّ النّخبة في هذه الحالة تصاب بالترّهل والعجز والجبن.

وشيوع هذه الرّوح، روح الترف، في مجتمع لايزال في مرحلة تكوين نفسه، ومحاط بالقوى المضادّة الخائفة، ويحتوي تركيبه الدّاخلي على نقاط ضعف ناشئة من كونه يضم جماعات لم تتمثّل بعد بدرجة مرضيّة وعميقة رسالته الّتي يعتنقها و يبشر بها... ـ شيوع هذه الرّوح في مجتمع كهذا ـ وهو ما كانه المجتمع الإسلامي في ذلك الحين ـ يجعله مهيّئاً لنموّ روح الفتنة فيه وانتشارها.

لقد حذّر الإمام من هذا بقوله: (احذروا سكرات النّعمة...).

١ . البوائق: جمع بائقة، وهي الواهية، والمصيبة الكبيرة.

٢ . القتام: الغبار، العشوة الظلام. يعني أنّ الموقف الآتي شديد الإلتباس لأنّه مظلم في نفسه و يثور مع ذلك حوله الغبار. و يعني بذلك الفتنة الآتية.

٣ . شباب الغلام: فتوته وعنفوانه، والفتنة تبدأ هكذا ذات عنفوان.

٤ . السّلام الحجارة الصّم، وأثرها في الأبدان الجرح والكسر.

٥ . مريحة: منتنة.

٦ . يتزايلون: يتفارقون و ينفصل بعضهم عن بعض.

٧ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٥١.

٢ ـ تقع في الحياة العامّة أحداث، أو يواجه المجتمع حالات معينة، تسبّب هذه أو تلك التباساً في طريقة التّعامل مع بعض المفاهيم الرّساليّة ومفاهيم المعتقد على ضوء الواقع الّذي حصل (مثلاً: التّغيّرات الّتي نشأت نتيجة لتوسّع حركة الفتح في إيران والمستعمرات البيزنطيّة.. والإحتكاك بالحضارتين الإيرانيّة، والرّومانيّة ـ الشّرقيّة... أو الحيرة الّتي نشأت نتيجة لمقتل الخليفه عثمان بن عفان).. في هذه الحالات قد تتخذ النّخبة أو القيادة السّياسيّة للمجتمع قرارات مرتجلة، وتخضع لآليّة الفعل ورد الفعل، بعيداً عن التروّي (مثلاً: كالّذي حدث عند مطالبة الإمام عليّ بعد البيعة فوراً بأن يقبض على المتهمين بقتل عثمان و يعاقبهم، فقد قال له قوم من الصّحابة: لوعاقبت قوماً ممن أجلب[١] على عثمان؟ فقدأجابهم الإمام جواب رجل الدّولة المسؤول النّاظر إلى عواقب الأمور، البعيد عن الإنفعال:

«يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَاتَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَٱلْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَىٰ حَدِّ شَوْكَتِهِمْ[٢] يَمْلِكُونَنَا وَلَانَمْلِكُهُمْ! وَهَاهُمْ هؤُلاءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَٱلْتَفَّتْ إِلَيْهِمِ أَعْرَابُكُمْ[٣] وَهُمْ خِلَالَكُمْ[٤] يَسُومُونَكُمْ مَاشَاءُوا[٥] وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَىٰ شَيءٍ تُرِيدُونَهُ! إِنّ هذَا ٱلأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهؤُلاَءِ ٱلْقَوْمِ مَادَّةً[٦]. إِنَّ ٱلنَّاسَ مِنْ هذَا ٱلأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلَىٰ أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَىٰ مَاتَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ تَرَىٰ مَالا تَرَوْنَ، وَفِرْقَةٌ لاَ تَرَىٰ هذَا وَلاَذَاكَ. فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَهْدَأَ ٱلنَّاسُ، وَتَقَعَ ٱلْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا[٧] وَتُؤْخَذَ ٱلْحُقُوقُ مَسْمَحَةً[٨].

«فَاهْدَاؤُا عَنّي، وَٱنْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلاَ تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً، وَ تُسْقِطُ مُنَّةً[٩]. وَتُورِثُ وَهْناً وَذِلَّةً. وَسَأُمْسِكُ ٱلأَمْرَ مَاٱسْتَمْسَكَ، وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدّاً فَآخِرُ ٱلدَّوَاءِ ٱلْكَيُّ»[١٠]!

١. أجلب عنه: أعان عليه.

٢. على حد شوكتهم: الشّوكة الشّدة، أي لم يضعف هيجانهم.

٣. التفّت... انضمّت إليهم واختلطت بهم.

٤. وهم خلالكم.. أي بينكم.

٥. يسومونكم.. يكلفونكم بما يريدون من الأفعال والمواقف.

٦. مادّة: مدداً وأنصاراً

٧. تقع القلوب مواقعها: تهدأ وتستقر بعد اضطرابها بسبب هيجان الفتنة.

٨. مسمحة: أي سهلة ميسّرة وهذا حين تهدأ العواطف، و يثوب النّاس إلى المنطق والقانون.

٩. المنّة: القوّة والقدرة، ينهاهم عن الأعمال المرتجلة المتسرّعة الّتي تسبّب انشقاقاً وتمزّقاً في المجتمع يضعفه و يوهن قوته.

١٠. نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٦٨.

وهكذا نرى الإمام يطلب إلى هؤلاء المتعجّلين أنْ يلزموا جانب التّروّي، وأنْ يتركوا له اتّخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب، وألّا يخضعوا لمنطق الفعل وردّ الفعل لأنّ هذا يؤدّي إلى التباس في المفاهيم، وتخبّط في المواقف، وأخطاء في القرارات تجعل المناخ العام أكثر ملائمة لروح الفتنة. وقد أشار الإمام إلى ذلك بقوله: «وتثبّتوا في قتام العشوة...».

٣ ـ حين يتهيّأ المناخ الملائم نتيجة للعاملين الآنفي الذّكر تبدأ الفتنة بظواهر انحرافية بسيطة وهيّنة، يقابلها المجتمع بوجه عام، ونخبته السّياسيّة والفكريّة بوجه خاص، بالتّسامح واللّامبالاة، وهذا مايوفّر لهذه الظّواهر الإنحرافية مناخ الأمان وفرص الإتساع والنّمو. وهذا ماعبّر عنه الإمام بقوله: «تبدأ في مدارجَ خفيّة، وتؤول إلى فظاعة جليّة».

٤ ـ وعلى خلاف وضع الفتنة حين تبدأ خفيّة حيّة، تلوذ وراء المبرّرات وتغطي نفسها بشعارات خادعة، فإنّها حين تنمو وتتسع «وتؤول إلى فظاعة جليّة» يكون لها عنفوان وتسلّط و بطش، وتبدأ بطبع آثارها العميقة في بنية المجتمع، وهذا ماعبّر عنه الإمام بقوله: «شِبابها كشباب الغلام، وآثارها كآثار السّلام».

٥ ـ بعد انتشار الفتنة، واتساع المساحات الّتي تستوعبها من فئات المجتمع، تكوّن قناعات تجعلها أشدّ رسوخاً في الذّهنيّة العامّة، وتغدو ثقافة شائعة ترتكز إليها السّلطة الّتي تقود حركة الفتنة، وتوجّه المجتمع وفقاً لقوانينها، وهذا ماعبّر عنه الإمام بقوله: «يتوارثها الظلمة بالعهود، أوّلهم قائد لآخرهم، وآخرهم مقتد بأوّلهم...».

٦ ـ ولكن الوضع السّياسي لقادة الفتنة ـ بعد انتشارها، وتأصّلها في بنية المجتمع ـ لايبقى موحداً ومتلاحماً، وإنّما تبرز التّناقضات والسّمات الشّخصية لكلّ فئة، والمطامع والمخاوف الخاصّة بكلّ جماعة. وحينئذٍ تنقسم قيادة الفتنة إلى فئات متخاصمة متناحرة، وتجرّ المجتمع وراءها إلى التّخاصم والتّناحر والحروب الأهليّة، وهذا ماعبّر عنه الإمام بقوله: «...وعن قليل يتبرّأ التّابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، و يتلاعنون عند اللّقاء».

*

وهذا نص يصرّح فيه الإمام لأصحابه بما ينتظرهم من الفتنة وو يلاتها من بعده، محملاً إيّاهم مسؤوليّة نشوء الفتنة وانتشارها ومايترتّب على ذلك من شرور، لأنّهم كانوا سلبيّين أمام مظاهر تسرّب روح الفتنة إلى مجتمعهم السّياسي و بنيتهم الثّقافيّة، وهذا ماوفّر للفتنة أجواء النّموّ والإنتشار، وكانوا متخاذلين، مهملين لواجبهم، لم يتحمّلوا مسؤوليّتهم في نصرة قضيتهم، وحماية نظامهم الشّرعي العادل:

«أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، لَوْلَمْ تَتَخَاذَلُوا عَنْ نَصْرِ ٱلْحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ ٱلْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ. لٰكِنَّكُمْ تِهْتُمْ مَتَاهَ بَنِي إِسْرائيلَ، وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ ٱلتِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعافاً، بِمَا خَلَّفْتُمُ ٱلْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ ٱلأَدْنَىٰ وَوَصَلْتُمُ ٱلأَبْعَدَ...»[1].

ج ـ ماموقف المسلم من الفتنة حين تبدأ؟

ماموقف المسلم من الفتنة حين يذرّقرنها؟

في الفتنة ـ كما رأينا ـ يختلط الحقّ بـا طل، و يلتبس الصّواب بالخطأ، فلايتميّز أحدهما من الآخر.

وفي هذه الحالة يكون الموقف الأسلم والأوفق بالشرع هو الإبتعاد عن الفتنة والإمتناع عن المشاركة مع هذا الطرف أو ذاك ، إذ لايأمن المشارك من أن يقع في الباطل وهويرى أنّه ينصر الحق، أو يحارب الحق وهويرى أنّه يحارب الباطل.

وهذا هو الموقف الّذي نصح الإمام بالتزامه حين تقع الفتنة، و يلتبس فيها الحقّ بالباطل، فقد قال:

«كُنْ فِي ٱلْفِتْنَةِ كَٱبْنِ ٱللَّبُونِ. لاَظَهْرٌ فَيُرْكَبَ، وَلاَضَرْعٌ فَيُحْلَبَ»[2].

١ . نهج البلاغة ـ الخطبة رقم: ١٦٦. و يومئ في الجملة الأخيرة إلى أنّهم اتصلوا بمعاو ية وتخلّوا عن الحاكم الشّرعي.

٢ . نهج البلاغة ـ باب الحكم ـ رقم ١. وابن اللّبون هو ابن النّاقة إذا كمل له سنتان. وهو في هذه الحالة لاينفع للرّكوب لأنّه لايقوى على حمل الأثقال، وليس له ضرع ليحلب، كنّى الإمام بذلك عن أنّ الإنسان الواعي في الفتنة يقف على الحياد فلايكون ذا نفع لأيّ طرف من أطرافها.

ولكن هذا الموقف يكون صواباً حين لايكون الإمام العادل موجوداً، ولايتاح للمسلم أن يتبيّن الحقّ من الباطل في الأحداث والمواقف الّتي تجري أمامه، أمّا حين يكون الإمام العادل موجوداً، و يتّخذ من الفتنة موقفاً، فإنّ على المسلم أنْ ينسجم في مواقفه مع مواقف الإمام العادل، وليس له أنْ يبقى على السّلبيّة متذرّعاً بأنّه يخشى الوقوع في الباطل، وإنّما يكون موقفه هذا، في هذه الحالة، جبناً وخذلاناً للحقّ، بل إنّه يكون، من بعض الوجوه، خيانة ومساهمة في الفتنة، لأنّه بسلبيّته غير المبرّرة قد يضلّل آخرين يجدون في سلبيّته تبريراً لمواقفهم.

وقد واجه الإمام أثناء فترة حكمه العاصفة مثل هذه المواقف الجبانة السلبيّة الخائنة من قبل بعض القيادات في مجتمعه تجاه الفتنة الّتي أثارتها قوى الثّورة المضادّة، فقال مرّة يخاطب النّاس:

«أيُّهَا ٱلنَّاسُ، ٱلْقُوا هذِهِ ٱلأَزِمَّةَ[١] ٱلَّتِي تَحْمِلُ ظُهُورُهَا ٱلأَثْقَالَ مِنْ أَيْدِيكُمْ، وَلاَ تَصَدَّعُوا[٢] عَلَىٰ سُلْطَانِكُمْ، فَتَذُمُّوا غِبَّ فِعَالِكُمْ[٣] وَلاَ تَقْتَحِمُوا مَا ٱسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ فَوْرِ نَارِ ٱلْفِتْنَةِ[٤]، وَأَمِيطُوا عَنْ سَنَنِهَا[٥] وَخَلُّوا قَصْدَ ٱلسَّبِيلِ لَهَا[٦]، فَقَدْ لَعَمْرِي يَهْلِكُ فِي لَهَبِهَا ٱلْمُؤْمِنُ، وَيَسْلَمُ فِيهَا غَيْرُ ٱلْمُسْلِمِ.

«إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ كَمَثَلِ ٱلسِّرَاجِ فِي ٱلظُّلْمَةِ، يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا...»[٧].

فالإمام هنا ينهى جمهوره عن المشاركة في الفتنة ولكنّه لايقرّهم على الموقف السّلبي منها، وإنّما يأمرهم بالتّصدّي لها.

إنّ المشاركة فيها تعني التآمر معها، والسّلبيّة أمامها تعنى عدم التّصدّي لها،

١ . الأزمّة، جمع زمام، كنّى عن قضايا الفتنة بالنياق الّتي يمسك أصحابها بأزمّتها، وهي تحمل على ظهورها الأثقال. يقول لهم: اتركوا قفا الفتنةِ ولاتخوضُوا فيها لِتخلصُوا من آثارِها.

٢ . لا تصدّعوا: لا تتفرقوا عن الحاكم الشّرعي.

٣ . غِبّ فعالكم: عواقبها.

٤ . فور النّار: تعاظمها وارتفاع لهبها.

٥ . أماط: نحّى وأزال. والسّنن: الطّريق. يعني تنحّوا عن طريق الفتنة وابتعدوا.

٦ . قصد السّبيل: الطّريق. أي اتركوا الفتنة تسير في طريقها ولا تشتركوا فيها.

٧ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٨٧.

وكلاهما خطأ. الموقف السّليم هو مواجهتها مع الإمام الحاكم العادل، لأنّ الحقّ -بوجوده- بيّن ظاهر، فهو الهادي، وهو الدّليل الّذي لايضلّل، وهو «السّراج في الظّلمة»، ظلمة الفتنة، وكلّ ظلمة.

وقد حدث أنّ بعض المسلمين في بدايات خلافة أميرالمؤمنين عليّ التبس عليهم الأمر في الفتنة الّتي أثارها خروج طلحة والزّبير، وعصيان معاوية نتيجة لموقف أبي موسى الأشعري الّذي قال للنّاس في الكوفة حين دعوا إلى قمع عصيان طلحة والزّبير: إنّ الموقف موقف فتنة، وأنّ الموقف السّليم منها هو الإمتناع عن المشاركة فيها.

وقد أوضح الإمام إذ ذاك أنّ الموقف من الفتنة الّتي يلتبس فيها الحقّ بالباطل هو هذا، ولكنّ الأمر يختلف حين يتّضح جانب الحقّ بوجود الإمام العادل أو بأيّة وسيلة أخرى، فإنّ السّلبيّة في هذه الحالة تكون خيانة.

ومن هنا فقد سمّى الإمام خروج طلحة والزّبير فتنة، ودعا الناس إلى مواجهتها وقمعها، لأنّ وجه الحقّ فيها بيّن، فقد كتب إلى أهل الكوفه عند مسيره إلى البصرة:

«...وَٱعْلَمُوا أَنَّ دَارَ ٱلْهِجْرَةِ[١] قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا[٢]، وَجَاشَتْ جَيْشَ ٱلْمِرْجَلِ[٣]، وَقَامَتِ ٱلْفِتْنَةُ عَلَى ٱلْقُطْبِ[٤]، فَأَسْرِعُوا إِلَىٰ أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ»[٥].

د ـ موقف الإمام عليّ من فتنة عصره

مادور الإمام عليّ، وماموقفه من الفتنة الّتي عصفت بالمجتمع الإسلامي في عهده؟.

نظرة إلى التاريخ السّياسي والفكري للإسلام تكشف بوضوح عن أنّ الإمام عليّاً كان المنقذ الأكبر للإسلام من التّشوّه والمسخ بالفتنة الّتي عصفت رياحها المجنونة

١ . دار الهجرة: هي المدينة المنوّرة.

٢ . قلع المكان بأهله: نبذهم وطردهم. وقلع فلان بمكانه: نبذه وابتعد عنه.

٣ . جاشت: اضطربت، والمرجل: القدر: يعني أنّ دار الهجرة قداضطربت بأهلها بسبب الفتنة الّتي نشبت فيها وانطلقت منها.

٤ . قامت الفتنة على القطب: وجدت من يوجّهها و يرعاها و يغذيها بالأفكار والقوى، فاشتدت وعظم خطرها.

٥ . نهج البلاغة ـ باب الكتب ـ الكتاب رقم ١.

بالمسلمين منذ النّصف الثاني من خلافة عثمان.

ولولا توجيه عليّ الفكري، ومواقفه السّياسيّة، ومواجهته العسكريّة للفتنة في شتّى مظاهرها الفكريّة والسّياسيّة والعسكريّة لَتشوّه الإسلام، وانمسخ، وتقلّص. ولكنّ الإمام عليّاً، بموقفه الواضح الصّريح الرّافض لأيّة مساومة، كان المنقذ الّذي كشف الفتنة ودعاتها، ووضع المسلمين جميعاً أمام الخيار الكبير: مع الفتنة أو ضدّها؟.

ولايهمّ بعد ذلك أنّ الفتنة حازت إلى جانبها جمهوراً كبيراً من النّاس، المهم أنّها افتضحت، وبافتضاحها سلم الإسلام من التّشوّه ومن خطر التّزوير، وكان على الّذين انحرفوا أنْ يجدوا لأنفسهم مبرّرات.

وقد كان توقع نشوء الفتنة، والخوف منها ومن أفاعليها وعواقبها، هاجساً عامّاً عند المسلمين. يكشف عن ذلك السّؤال عنها، وعن الموقف الصّواب منها، وكثرة حديث الإمام عن أخطارها وملابساتها.

وقد كان الإمام عليّ بروحانيّته العالية السّامية، وإسلاميّته الصّلبة الصّافية، وروحه الرّساليّة الّتي تفوّق بها على جميع معاصريه، وحكمته وشجاعته، وسيرة حياته الناصعة الّتي ابتدأت بالإسلام... كان هو الرّجل الوحيد المرصود لمواجهة الفتنة، وإنقاذ الإسلام منها.

لقد أعلمه رسول الله(ص) بذلك، وأدرك هو دوره من خلال رصده لحركة المجتمع التّاريخيّة.

وهذا نصّ عظيم الأهمّيّة يكشف لنا عن الدّور المرصود للإمام عليّ في مواجهة الفتنة، يتضمن الرّؤية النّبويّة لمستقبل الحركة التّاريخيّة من جهة، والرّؤية النّبويّة لدور الإمام عليّ في هذه الحركة.

وقد أورد الشّريف الرّضي هذا النّصّ، كما أورده ابن أبي الحديد في شرحه (٩/٢٠٥ - ٢٠٧) برواية الشّريف وبرواية أخرى أكثر بسطاً. ويبدو أنّ الرّواية الأخرى تقريريّة حدّث بها الإمام، ورواية الشّريف خطابيّة، جاءت جواباً منه على سؤال، فقد قام إليه رجل -وهو يخطب- فقال: ياأميرالمؤمنين: أخبرنا عن الفتنة، وهل

سألت رسول الله(ص) عنها؟ فقال عليه السّلام:

«إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ (الم. أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَيُفْتَنُونَ)[١] عَلِمْتُ أَنَّ ٱلْفِتْنَةَ لاَتَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولُ ٱللهِ(ص) بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَارَسُولَ ٱللهِ مَاهذِهِ ٱلْفِتْنَةُ ٱلَّتِي أَخْبَرَكَ ٱللهُ تَعَالَىٰ بِهَا؟ فَقَالَ: (يَاعَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي)، فَقُلْتُ: يَارَسُولَ ٱللهِ، أَوَلَيْسَ قَدْقُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ ٱسْتُشْهِدَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ[٢] عَنِّي ٱلشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذٰلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: (أَبْشِرْ، فَإِنَّ ٱلشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ) فَقَالَ لِي: (إِنَّ ذٰلِكَ لَكَذٰلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟) فَقُلْتُ: يَارَسُولَ ٱللهِ: لَيْسَ هذَا مِنْ مَواطِنِ ٱلصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَواطِنِ ٱلْبُشْرَىٰ وَٱلشُّكْرِ. وَقالَ: (يَاعَلِيُّ، إِنَّ ٱلْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ ٱلْكَاذِبَةِ، وَٱلأَهْواءِ ٱلسَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ ٱلْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَٱلسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَٱلرِّبَا بِالْبَيْعِ) قُلْتُ: يَارَسُولَ ٱللهِ: فَبِأَيِّ ٱلْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذٰلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: (بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ)»[٣].

وإذن، فقد كان الإمام مرصوداً لمواجهة الفتنة وفضحها.

لقد كان منقذ الإسلام بعد رسول الله(ص) من التّزييف والتّحريف، فحقّق بمواجهته للفتنة صيغة الإسلام الصّافي، في المعتقد والفكر والتّشريع والعمل، وغدت الفتنة أزمة في داخل الإسلام، ولم تفلح في أن تكون هي الإسلام.

وقد عبّر الإمام في أكثر من مقام عن دوره العظيم الفريد في التاريخ، من حيث كونه القيادي الوحيد الّذي استطاع أنْ يواجه الفتنة و يفضحها، فقال ممّا قال:

«...فَإِنِّي فَقَأْتُ عَيْنَ ٱلْفِتْنَةِ[٤]، وَلَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرِي، بَعْدَ أَنْ مَاجَ غَيْهَبُهَا[٥] وَٱشْتَدَّ كَلَبُهَا[٦].

١ . سورة العنكبوت (مكيّة ـ ٢٩) الآية: ١و٢.

٢ . جازعنه الشّيء: أبعده عنه.

٣ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٥٦.

٤ . فقأت عين الفتنة: تغلّب عليها.

٥ . الغيهب: الظّلمة. يعني أنّي واجهتها في عنفوانها وقوتها.

٦ . الكلب: داء معروف يصيب الكلاب. يعني أنّه واجهها وهي في هذه الحالة عن الأذى والشّرّ الشّديدين. والخطبة في نهج البلاغة، رقم: ٩٣.

لقد حدثت داخل الإسلام فتن كثيرة، ولكن أعظم هذه الفتن خطورة وأشدّها تخريباً فتنة بني أميّة الّتي عصفت رياحها السّوداء الشّريرة المجتمع الإسلامي منذ النّصف الثّاني من عهد عثمان، وتعاظمت خطورتها بعد مقتله. واستغرقت مواجهتها الفكريّة والسّياسيّة والعسكريّة معظم جهود أميرالمؤمنين عليّ في السّنين الأخيرة من حياته.

وقد كان الإمام يغتنم كل فرصة سانحة ليحدّث مجتمعه عن هذه الفتنة، و يبيّن له أخطارها الآنية والمستقبليّة من أجل إيجاد المناعة النّفسية منها، والوعي العقلي لأخطارها، والعزم العملي على مواجهتها وقمعها، والتّصميم على رفضها حتّى بعد انتصارها.

قال عليه السّلام؛

«إِنَّ ٱلْفِتَنَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ[١]، وَإِذَا أَدْبَرَتْ نَبَّهَتْ، يُنْكَرْنَ مُقْبِلاَتٍ، وَيُعْرَفْنَ مُدْبِرَاتٍ، يَحُمْنَ حَوْمَ ٱلرِّيَاحِ، يُصِبْنَ بَلَداً، وَيُخْطِئْنَ بَلَداً. أَلاَ وَإِنَ أَخْوَفَ ٱلْفِتَنِ عِنْدِي عَلَيْكُمْ فِتْنَةُ بَنِي أُمَيَّةَ، فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ مُظْلِمَةٌ، عَمَّتْ خُطَّتُهَا[٢] وَخَصَّتْ بَلِيَّتُهَا، وَأَصَابَ ٱلْبَلاَءُ مَنْ أَبْصَرَ فِيهَا، وَأَخْطَأَ ٱلْبَلاَءُ مَنْ عَمِيَ عَنْهَا»[٣].

فَهي فتنة عمّت بليتها لأنّ روّادها الحكام أنفسهم، ومن ثمّ فشرورها السّياسيّة والفكريّة تشمل المجتمع كلّه.

وهي فتنة خصّت بليتها لأنّ أعنف ضرباتها ستوجّه إلى الصّفوة المؤمنة الواعية الّتي بقيت سليمة من داء الفتنة، ووضعت نفسها في مواقع كفاح الفتنة الغالبة.

والمسؤوليّة في هذه الفتنة ملقاة على المبصرين فيها، الّذين يعرفونها و يعرفون وجه الحقّ ويجبنون عن مواجهتها، أو يتواطؤون، ضد الحقّ، معها.

أمّا من عمي عنها، وجهل أبعادها وأخطارها فهو معذور بجهله.

١. شبّهت: اشتبه فيها الحقّ بالباطل، وإذا أدبرت وخلص النّاس منها تميّز حقّها من باطلها.

٢. عمّت خطتها: يعني أنّها فتنة غالبة تصيب ببلائها أهل الحقّ.

٣. نهج البلاغة: الخطبة رقم: ٩٣.

٣ ـ إنتصار حركة الرّدّة

لانعني بالرّدّة هنا الرّدّة الدّينيّة عن الإسلام، فقد سبق أن رأينا التّوجيه النّبوي لعليّ حين سأل رسول اللّه(ص): فبأيّ المنازل أنزلهم عند ذلك؟ أبمنزلة ردّة أم بمنزلة فتنة؟ فقال(ص) بمنزلة (فتنة).

وإنّما نعني الرّدّة السّياسيّة والفكريّة. فإنّ الفتنة حين انتصرت سياسيّاً بعد استشهاد أميرالمؤمنين عليّ راحت تمكّن لنفسها بفرض قيمها الفكريّة والإجتماعية في الثّقافة العامّة، وتطبع العلاقات في داخل المجتمع بطابعها.

*

لقد كان الإمام يرى ببصيرته النّافذة أنّ الفتنة ستنتصر، وكانت هذه الرّؤية إحدى مسبّبات ألمه العميق.

وكان يرى أنّ الفتنة لا تقاوم إلّا بالكفاح، أمّا السّكوت عنها ومهادنتها فيتيحان الفرصة أمامها لكي تنتصر.

وكان يؤرقه أنّ مجتمعه، لأسباب شتّى، آثر أن يواجه الفتنة بالسّكوت عنها، أو ـ بعبارة أخرى ـ آثر ألّا يواجه الفتنة الآتية.

وكان يقارن بين أصحابه وبين أصحاب رسول اللّه(ص)، فيريهم أنّ التّوجيه الثّقافي واحد، وأنّ القيادة واحدة، ولكنّه يرى أنّ درجة الإخلاص متفاوته:

«...وَٱللهِ مَاأسْمَعَكُمُ ٱلرَّسُولُ شَيْئاً إلَّا وَهَا أنَاذَا مُسْمِعُكُمُوهُ، وَمَاأسْمَاعُكُمُ ٱلْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِكُمْ بِالأَمْسِ، وَلَاشُقَّتْ لَهُمُ ٱلأَبْصَارُ، وَلَاجُعِلَتْ لَهُمُ ٱلأَفْئِدَةُ فِي ذلِكَ ٱلزَّمَانِ، إلَّا وَقَدْأُعْطِيتُمْ مِثْلَهَا فِي هذَا ٱلزَّمَانِ. وَوَٱللهِ مَابُصِّرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئاً جَهِلُوهُ، وَلَاأُصْفِيتُمْ بِهِ

وَحُرِمُوهُ[١]، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمُ ٱلْبَلِيَّةُ جَائِلاً خِطَامُهَا[٢]، رِخْواً بِطَانُهَا[٣] فَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ ٱلْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظِلٌّ مَمْدُودٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ»[٤].

وقد تكرّر منه المقارنة بين حال أصحابه وحال أصحاب رسول اللّه(ص) في عدة مواقف. وكان يرى في طريقة مواجهة أصحابه للفتنة الآتية نذر انتصار هذه الفتنة من بعده، وقد كشف عن رؤيته هذه لمجتمعه في عدة مواقف، منها قوله:

«...أَمَا وَٱلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هَؤُلاَءِ ٱلْقَوْمُ عَلَيْكُمْ، لَيْسَ لأَنَّهُمْ أَوْلَىٰ بِالْحَقِّ، وَلَكِنْ لإِسْرَاعِهِمْ إِلَىٰ بَاطِلِ صَاحِبِهِمْ، وَإِبْطَائِكُمْ عَنْ حَقِّي. وَلَقَدْ أَصْبَحَتِ ٱلأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا، وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي، ٱسْتَنْفَرْتُكُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفِرُوا، وَأَسْمَعْتُكُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا، وَدَعَوْتُكُمْ سِرّاً وَجَهْراً فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا، وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا»[٥].

و يكشف هذا النّصّ ـ كغيره من النّصوص المماثلة له ـ عن أنّ انتصار الفتنة لم يكن في تقدير الإمام عليه السّلام وتحليله ناشئاً من قدر غيبي، وإنّما نشأ من توفّر الأسباب الموضوعيّة على أرض الواقع السّياسي و الإجتماعي الّذي كانت عوامله تتفاعل في المجتمع السّياسي المواجه للفتنة.

لقد فقد هذا المجتمع فاعليته، وتخلّى عن روح الكفاح في مواجهة الفتنة، وانفصل عملياً عن قيادته فسقط في السّلبيّة، وآثر الحياة السّهلة الخالية من تبعات الرّسالة والجهاد.

ومن ذلك قوله عليه السّلام:

١ . أصفيتم.. خصصتم به دون غيركم.

٢ . الخطام ماجعل في أنف البعير ليقاد به، فإذا لم يكن ثمّة قائد تاه البعير ولم يسلك طريق السّلامة، كنى بذلك عن الفتنة الّتي تعيث فساداً في المجتمع.

٣ . البطان: حزام يجعل تحت بطن البعير ليحفظ استقرار ماعليه من راكب أو حمل فإذا استرخى ادّى ذلك إلى خطر السّقوط. كنّى بذلك عن أخطار الفتنة.

٤ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٨٩.

٥ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٩٧.

«...ثُمَّ يَأتِي بَعْدَ ذٰلِكَ طَالِعُ ٱلْفِتْنَةِ ٱلرَّجُوفِ[١]، وَٱلْقَاصِمَةِ ٱلزَّحُوفِ[٢]، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ ٱسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ، وَتَخْتَلِفُ ٱلْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ ٱلْآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا[٣] مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ[٤] وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ، يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ ٱلْحُمُرِ فِي ٱلْعَانَةِ[٥] قَدِ ٱضْطَرَبَ فِيهَا مَعْقُودُ ٱلْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ ٱلْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا ٱلْحِكْمَةُ[٦]، وَتَنْطِقُ فِيهَا ٱلظَّلَمَةُ، وَتَدِقُّ[٧] أَهْلَ ٱلْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا[٨]... فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ ٱلْفِتَنِ[٩] وَأَعْلَامَ ٱلْبِدَعِ، وَٱلْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ ٱلْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ ٱلطَّاعَةِ»[١٠].

في هذا النّصّ بيّن الإمام بعض سمات انتصار الفتنة:

١ ـ إستيلاء الفتنة على مساحات جديدة في المجتمع: «تضلّ رجال بعد سلامة» وتتعمّق الأفكار المنحرفة «تزيغ قلوب بعد استقامة».

٢ ـ تلفّ المجتمع حيرة شديدة نتيجة للإنتصار غير المتوقع الّذي فرض مفاهيم جديدة لم تكن مألوفة.

٣ ـ تحطّم الفتنة ـ في أوج انتصارها ـ كلّ من يتصدى لها مواجهة.

وفي نصّ آخر بيّن الإمام وجوهاً أخرى لانتصار الفتنة:

«...فَعِنْدَ ذٰلِكَ أَخَذَ ٱلْبَاطِلُ مَآخِذَهُ، وَرَكَبَ ٱلْجَهْلُ مَرَاكِبَهُ، وَعَظُمَتِ ٱلطَّاغِيَةُ، وَقَلَّتِ

١ . الرّجوف: شديد الرّجفان والإضطراب، تُدخل الإضطراب والقلق على المجتمع.

٢ . القاصمة: الكاسرة، والزّحوف: المتحرّكة الّتي تسعى للإنتشار في المجتمع.

٣ . نجوم الآراء ظهورها يعني أنّ الفتنة تسبّب البلبلة الفكرية في المجتمع، فتمكن للشّعارات الدّخيلة من التّسرب والشّيوع.

٤ . أشرف لها: تعرّض لها، قصمته: كسرته.

٥ . يتكادمون.. ينهش بعضهم بعضاً، والعانة هي الجماعة من الحمر الوحشية، يعني أنّ سلطان القانون، في حالة انتصار الفتنة، يسقط، و يسود سلطان الغريزة.

٦ . تغيض.. تختفي، غاض الماء: غار تحت الأرض.

٧ . دقّ: فتّت وطحن. والمسحل: المبرد أو المطرقة، يعني أنّ شرورها الإجتماعيّة تصل الى أهل البدو ـ مع بعدهم عن يد السّلطة ـ فتحطّم علاقاتهم، وتهدّد أمنهم.

٨ . الرّضّ: التّهشيم، والكلكل: الصّدر، يعني أنّها تطبق عليهم، فتشلّ حركتهم وتحطّم مقاومتهم.

٩ . أنصاب: علامات.

١٠ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٥١.

«اَلدَّاعِيَةُ، وَصَالَ اَلدَّهْرُ صِيَالَ اَلسَّبُعِ اَلْعَقُورِ[١]، وَهَدَرَ فَنِيقُ اَلْبَاطِلِ بَعْدَ كُظُومٍ[٢] وَتَوَاخَى اَلنَّاسُ عَلَى اَلْفُجُورِ، وَتَهَاجَرُوا عَلَى اَلدِّينِ، وَتَحَابُّوا عَلَى اَلْكَذِبِ، وَتَبَاغَضُوا عَلَى اَلصِّدْقِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ اَلْوَلَدُ غَيْظاً[٣] وَاَلْمَطَرُ قَيْظاً[٤] وَتَفِيضُ اَللِّئَامُ فَيْضاً وَتَغِيضُ اَلْكِرَامُ غَيْضاً[٥]. وَكَانَ أَهْلُ ذَلِكَ اَلزَّمَانِ ذِئَاباً، وَسَلاَطِينُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أَكَّالاً، وَفُقَرَاؤُهُ، أَمْوَاتاً، وَغَارَ اَلصِّدْقُ، وَفَاضَ اَلْكَذِبُ، وَاَسْتُعْمِلَتِ اَلْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ اَلنَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ اَلْفُسُوقُ نَسَباً، وَاَلْعَفَافُ عَجَباً، وَلُبِسَ اَلْإِسْلاَمُ لُبْسَ اَلْفَرْوِ مَقْلُوباً»[٦].

في هذا النصّ فصّل الإمام ملامح الفتنة عندما تنتصر، وتغلب على المجتمع، فتتسلّط على مؤسّساته، وتعمّق جذورها فيه، وتبسط مفاهيمها وقيمها عليه.

ويمكن تلخيص هذه الملامح في النّقاط التّالية:

١ ـ تأصّل روح الطّغيان في الحكم، ونزعة التّجبر والإستبداد في الحاكمين، وانحسار الرّوح الرّساليّة في مؤسسات الحكم.

٢ ـ فساد العلاقات الإنسانيّة داخل المجتمع، وتدنّي المستوى الأخلاقي، وشيوع أخلاق المنفعة بين الناس. وما أروع قوله في تصوير جانب من هذه الظّاهرة (واستعملتِ المودّة باللّسان، وتشاجر النّاس بالقلوب).

٣ ـ إنحطاط مؤسّسة الأُسرة، وشيوع الإباحة الجنسيّة.

و يلخص ذلك كلّه قوله عليه السّلام: (ولُبِس الإسلامُ لُبس الفَروِ مقلوباً) وهذا كقوله في نصّ آخر:

«أَيُّهَا اَلنَّاسُ، سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يُكْفَأُ فِيهِ اَلْإِسْلاَمُ كَمَا يُكْفَأُ اَلْإِنَاءُ بِمَا فِيهِ»[٧]

١. صال.. هجم للفتك والإعتداء.

٢. الفنيق: الفحل من الإبل، والكظوم الصّمت والسّكون. يعني أنّ الباطل بعد أنْ كان ذليلاً صامتاً، غدا، في الفتنة، عالي الصّوت هادراً.

٣. بسبب الفتنة تفسد أخلاق الأجيال الشّابة فيكونون سبباً لغيظ أهلهم.

٤. القيظ: شدّة الحر. يعني أنّ الأمور والسّياسات تقع في غير مواقعها فلا تفيد بل تضرّ.

٥. غاض الماء في الأرض: اختفى وغار فيها. يعني يندر في الفتنة حين تغلب وجود ذوي الأخلاق الكريمة في مراتبهم الإجتماعية لأنّهم يخفون أنفسهم و يبتعدون عن الأضواء.

٦. نهج البلاغة ـ الخطبة رقم: ١٠٨.

٧. نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٠٣.

٤ ـ المعاناة

تنتصر الفتنة، فتأتي بحكم غير عادل، لايرى في الأمة إلاّ موضوعاً لتسلّطه و مصدراً للمال.

وهي غير أخلاقية، لأنّ قادتها يتبعون في سياسة الناس منطق الغريزة، لامنطق القانون والعدالة. و من هنا و هناك فلا بدّ أن يكون لها ضحايا كثيرة.

و من ضحاياها خصومها السّياسيون الذين حاربوها في الماضي، وغلبوا على أمرهم في النّهاية.

ومن ضحاياها خلفاؤها الّذين ساندوها في أيّام ضعفها، واستغنت عنهم في أيّام قوّتها.

ومن ضحاياها الغافلون عن شرورها وأخطارها، الّذين كانوا محايدين في المعركة الدّائرة بينها و بين أهل الحقّ، ثم دهشوا عند انتصارها، فاحتجوا أو أظهروا معارضتهم لها. وأكبر ضحاياها الأمّة كلّها حين تحولها الفتنة المنتصرة إلى موضوع للتّسلط، ومصدر لصنع الثّروات، وتوفير أسباب التّرف واللّهو لنخبتها، وجهازها القمعي، وحلفائها.

وهكذا تبدأ معاناة الأمّة من الفتنة، من ظلمها وتسلطها، من عدوانها الّذي ينتشر كالوباء فيصيب كلّ فئة من المجتمع المغلوب على أمره بشتّى ألوانه: العدوان الأخلاقي، والعدوان السّياسي، والعدوان الإقتصادي.

وقد صوّر الإمام عليّ وجوهاً من معاناة الأمّة وعذاباتها بعد انتصار الفتنة في لوحات معبّرة تكاد تنطق بالحركة الحيّة.

من ذلك قوله عليه السّلام:

«...وَآيْمُ ٱللهِ لَتَجِدُنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَكُمْ أَرْبَابَ سُوءٍ بَعْدِي، كَالنَّابِ ٱلضَّرُوسِ[١] تَعْذِمُ بِفِيهَا[٢]، وَتَخْبِطُ بِيَدِهَا، وَتَزْبِنُ بِرِجْلِهَا[٣] وَتَمْنَعُ دَرَّهَا[٤].
«لاَيَزَالُونَ بِكُمْ حَتَّىٰ لاَيَتْرُكُوا مِنكُمْ إِلاَّ نَافِعاً لَهُمْ، أَوْ غَيْرَ ضَائِرٍ بِهِمْ. وَلاَيَزَالُ بَلاَؤُهُمْ عَنكُمْ حَتَّىٰ لاَيَكُونَ ٱنتِصَارُ أَحَدِكُمْ مِنْهُمْ إِلاَّ كَانْتِصَارِ ٱلْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَٱلصَّاحِبِ مِنْ مُسْتَصْحِبِهِ. تَرِدُ عَلَيْكُمْ فِتْنَتُهُمْ شَوْهَاءَ مَخْشِيَّةً[٥]، وَقِطَعاً جَاهِلِيَّةً، لَيْسَ فِيهَا مَنَارُ هُدىً وَلاَعَلَمٌ يُرَىٰ»[٦].

وهكذا يعاني النّاس من الفتنة بعد انتصارها ألواناً من الشّرّ:

١ ـ حكم الطّغيان الّذي يقضي على كلّ معارضة له بالرّأي والمذهب، وهو لايقضي عليه بهوادة ولين، وإنّما بالعنف والقسوة.

٢ ـ والإذلال الّذي يمحق كرامة الإنسان و يشوّه روحه، فيحوّله إلى عبد لايجرؤ على رفع صوته والتّعبير عن رأيه، وإنّما يخضع بالطّاعة العمياء الصّمّاء الّتي لاخيار فيها ولا تنبثق من قناعة وإنّما يفرضها الخوف من العذاب.

*

ومن ذلك قوله عليه السلام:

«وَٱللهِ لاَيَزَالُونَ حَتَّىٰ لاَيَدَعُوا لِله مُحَرَّماً إِلاَّٱسْتَحَلُّوهُ، وَلاَعَقْداً إِلاَّ حَلُّوهُ، وَحَتَّىٰ لاَيَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَوَبَرٍ[٧] إِلاَّ دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَا بِهِ سُوءُ رَعْيِهِمْ[٨]، وَحَتَّىٰ يَقُومَ ٱلْبَاكِيَانِ، يَبْكِيَانِ: بَاكٍ يَبْكِي لِدِينِهِ وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّىٰ تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ ٱلْعَبْدِ

١ . النّاب: النّاقة المسنة، والضّروس: النّاقة السّيّئة الخلق.
٢ . عذم الفرس: إذا أكل بجفاء، أو عضّ.
٣ . تزبن: تضرب برجلها من يقترب منها.
٤ . الدّرّ: اللّبن. يعني أنّها غير ذات فائدة مع كونها مصدراً للتّخريب والأضرار. فالفتنة شر كلّها، ولاخير فيها.
٥ . شوهاء: قبيحة المنظر، ومخشية: مخوفة مرعبة.
٦ . العلم: الدّليل الهادي في متاهات الصّحراء. نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٩٣.
٧ . بيت المدر: مابُني بالحجارة، و بيت الوبر: الخيمة. يعني أنّ شرّ الفتنة لايقتصر على سكّان المدن وإنّما يشمل الرّيف والبدو.
٨ . نبا به سوء رعيهم: شرّد النّاس، وأقلق حياتهم من (نبا به المنزل): إذا لم توافقه.

مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ وَإِذَا غَابَ آغْتَابَهُ، وَحَتَّىٰ يَكُونَ أَعْظَمَكُمْ فِيهَا عَنَاءً أَحْسَنُكُمْ بِاللهِ ظَنّاً، فَإِنْ أَتَاكُمُ آللهُ بِعَافِيَةٍ فَاقْبَلُوا، وَإِنِ آبْتُلِيتُمْ فَاصْبِرُوا، فَإِنَّ آلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ»[١].

في هذا النّصّ يكشف الإمام عن وجوه أخرى من المعاناة والعذاب:

١ ـ سقوط حرمة القانون عند الطّغمة الحاكمة الّتي يفترض فيها، وهي تحكم بآسم الدّين، أن تحافظ عليه من حيث التّطبيق.

٢ ـ انتشار الظّلم، وعدم اقتصاره على الحواضر والمدن، بل يشمل جميع مستويات الأمّة فيعاني منه سكّان المدن و بدو الصحراء.

٣ ـ الإذلال، وهدر كرامة الإنسان الّذي يتحوّل، لطول مايعاني من الإذلال، إلى مايشبه أخلاق الرّقيق.

إنّ هذا الواقع يجعل المعاناة شاملة في قضايا الدّين وقضايا الدّنيا، و يكون أشدّ النّاس بلاء ومعاناة أكثرهم وعياً، وأصلبهم عوداً في مواجهة إغراء الفتنة وإرهابها.

ولكن الإمام يوصي هذه الفئة المستنيرة الّتي لم تستهلكها الفتنة بالصّبر، لأنّ الفتنة في هذه المرحلة لا تقاوم، وكل جهد يبذل في مقاومتها جهد ضائع مهدور يزيد الشّرعيّة ضعفاً ووحدة وعزلة دون أنْ يؤثّر على الفتنة، وهي في أوج انتصارها شيئاً.

*

ومن ذلك قوله عليه السّلام:

«رَايَةُ ضَلَالٍ قَدْ قَامَتْ عَلَىٰ قُطْبِهَا[٢] وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا[٣] تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا[٤]، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا[٥]، قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ آلْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَى آلضِّلَّةِ، فَلَا يَبْقَىٰ يَوْمَئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا ثُفَالَةٌ كَثُفَالَةِ آلْقِدْرِ[٦] أَوْ

١. نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٩٨.

٢. استحكم أمرها كالرّحى حين تستقرّ على قطبها.

٣. الشّعب: الفروع. يعني أنّ الفتنة تغلغلت في جميع ثنايا المجتمع.

٤. تشمل النّاس بشرّها دون تمييز كما يكال الحب بالصّاع.

٥. تضرب بذراعها جميع الأمّة فلايمتنع منها أحدٌ، مأخود من (خبط الشّجرة) ضربها بالعصا ليسقط ثمرها أو يتناثر ورقها.

٦. الثّفل: نفاية الشّيء، ومالاخير فيه منه، وثفالة القدر مايبقى فيه من هذا القبيل.

نُفَاضَةُ كَنُفَاضَةِ ٱلْعِكْمِ[١] تَعْرُكُكُمْ عَرْكَ ٱلْأَدِيمِ[٢]، وَتَدُوسُكُمْ دَوْسَ ٱلْحَصِيدِ[٣] وَتَسْتَخْلِصُ ٱلْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمُ ٱسْتِخْلَاصَ ٱلطَّيْرِ ٱلْحَبَّةَ ٱلْبَطِينَةَ[٤] مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ ٱلْحَبِّ»[٥].

في هذا النّصّ يتابع الإمام الكشف عن وجوه المعاناة:

سيادة حكم الطّغيان بسبب أنّ الشّريعة مهملة من حيث التّطبيق لأنّ الرّاية راية ضلال، ولذا فَإنّ هذا الحكم يتصرّف بوحي الغريزة لاعلى ضوء القانون، ونتيجة ذلك أنّ الحكم يدوس الأمّة و يسحقها، و يذهب بكلّ صلابة وعنفوان فيها ليحوّلها إلى كيان مطواع لاإرادة له ولااختيار، كالجلد الّذي سحق وعرك حتى لان ففقد كلّ صلابة، وكالحصيد الّذي ديس حتّى تفتت.

ولكنّ الفتنة، مع ذلك، لا تفلح في القضاء على كلّ شيء، فرغم الظّلم المادّي والمعنوي، والتّشو يه الثّقافي تبقى نخبة النخبة محافظة على ذاتها، إنّها تكون قليلة العدد حقّاً، ولكنّها أصيلة، صافية، منيعة على الطّغيان، والتّشو يه والإغراء والإرهاب.

*

ومن ذلك قوله عليه السّلام:

«تَغِيضُ فِيهَا ٱلْحِكْمَةُ[٦]، وَتَنْطِقُ فِيهَا ٱلظَّلَمَةُ، وَتَدُقُّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا[٧] وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا[٨] يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا ٱلْوُحْدَانُ[٩]، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا ٱلرُّكْبَانُ، تَرِدُ بِمُرِّ ٱلْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ

١. النّفاضة مايسقط من الثّوب أو البساط بالنّفض، والعكم: العدل الّذي يجعل على الدّابة ويحمل فيه المتاع.

٢. العرك: الدّلك الشّديد، والأديم: الجلد.

٣. الحصيد: الغلّات المحصودة.

٤. البطينة: السّمينة.

٥. نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٠٨.

٦. تغيض: تختفي، يعني أنّ الحكمة في الفتنة تختفي في النّاس فلايتعاملون بما تقضي به من عدالة وأخلاق.

٧. المسحل: المبرد أو المطرقة.

٨. الرّضّ: التّهشيم. والكلكل: الصّدر.

٩. الوحدان: جمع واحد، يعني المنفردون.

آلدِّمَاءِ[١] وَتَثْلِمُ مَنَارَ آلدِّينِ[٢] وَتَنْقُضُ عَقْدَ آلْيَقِينِ. يَهْرُبُ مِنْهَا آلْكَيْاسُ[٣] وَيُدَبِّرُهَا آلْأَرْجَاسُ[٤] مِرْعَادٌ مِبْراق كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ، تَقْطَعُ فِيهَا آلْأَرْحَامُ، وَيُفارَقُ عَلَيْهَا آلْإِسْلامُ، بَرِيُّها سَقِيمٌ، وَظَاعِنُها مُقِيمٌ... بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ[٥]، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ آلأَيْمَانِ[٦]...»[٧].

يبرز الإمام في هذا الفصل ـ كما في النّصّ الثّاني من هذا الفصل ـ شمول الظلم لأهل البدو، وهذا يعني ـ بملاحظة التّركيب الإجتماعي، والوضع الثّقافي للمجتمع الإسلامي في ذلك الحين ـ أقصى درجات الشّمول للظّلم والطّغيان، فأهل البدو ـ بسبب طريقة حياتهم ـ بعيدون عن متناول السّلطة وأجهزتها ومن ثمّ فهم يتمتعون بفرص أكثر من أهل المدن للنجاة من كثير من شرور الطّغيان السّياسي. ولكن هذه الفتنة المنتصرة يبلغ من قوّتها وعنفها أنّ هؤلاء البدو ـ أهل الوبر ـ لايسلمون منها، بل تسومهم سوء العذاب.

كما أبرز الإمام في هذا النّصّ الوجوه الأخرى للمعاناة: الإذلال، وسياسة القمع، وتجاوز الشّريعة والقانون، وانحطاط العلاقات الإنسانية.

*

وقال عليه السّلام:

«...فَعِنْدَ ذٰلِكَ لاَيَبْقَىٰ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَوَبَرٍ إِلاَّ وَأَدْخَلَهُ آلظَّلَمَةُ تَرْحَةً[٨]، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً، فَيَوْمَئِذٍ لاَيَبْقَىٰ لَهُمْ فِي آلسَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلاَفِي آلأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ بِالأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ[٩] وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيَنْتَقِمُ آللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلاً بِمَأْكَلٍ، وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ آلْعَلْقَمِ،

١. عبيط الدّماء: الطّريّ منها.
٢. الثّلم: الكسر، يعني أنّها تنتهك الدّين وتقلص نفوذهُ وولايته بترك العمل به وظلم أهله والدّاعين أليه.
٣. الكيس: الحاذق العاقل.
٤. الأرجاس: الأشرار.
٥. قتيل مطلول: مهدور الدّم، لادية له ولاقصاص.
٦. الختل: الخداع، يعني يخدعون النّاس بحلف الأيمان وإظهار شعار الإسلام.
٧. نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٥١.
٨. ترحة: حزن وألم.
٩. أصفيت فلاناً كذا: أعطيته إيّاه خالصاً، يعني أعطيتم السّلطة السّياسيّة في الإسلام إلى غير أهلها.

وَمَشَارِبِ ٱلصَّبِرِ وَٱلْمَقِرِ[١]، وَلِبَاسِ شِعارِ ٱلْخَوْفِ وَدِثَارِ ٱلسَّيْفِ[٢]، وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا ٱلْخَطِيئَاتِ وَزَوامِلُ ٱلْآثَامِ[٣]»[٤].

في هذا النّصّ بيّن الإمام أيضاً طابع الشّمول لهذه الفتنة. وذكّر جمهور النّاس في كلّ عصر بالسّبب الموضوعي الّذي ولّدها، ومكن لها، وهو تجاوز الشّرعيّة في الحاكم والنظام، والإنسياق وراء المصالح الخاصّة ، والأنانيّات الفرديّة والقبلية، وعدم تحمّل مسؤوليّات الصّراع ضدّ الباطل وأهله.

*

ومن ذلك قوله عليه السّلام مخاطباً الخوارج، مخبراً لهم بما سيكون عليه حالهم في نظام الفتنة الآتي حيث لايجدون الإنصاف والعدل، والتّفهّم لأوضاعهم وآمالهم الّتي يجدونها في نظام العدل الّذي يقوده الإمام.

«أَمَا إِنَّكُمْ سَتَلْقُونَ بَعْدِي ذُلّاً شامِلاً، وَسَيْفاً قاطِعاً، وَأُثْرَةً[٥] يَتَّخِذُهَا ٱلظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً»[٦].

*

تنتصر الفتنة، وتسود مفاهيمها، وتفرض على المجتمع قيمها، وتمضي على ذلك السّنون، والفتنة تزداد قوّة ومناعة وتسلّطاً، ويمتدّ سلطانها لينفذ في كلّ زاوية وعلى كلّ صعيد في المجتمع، و يسود الإعتقاد بأنّ كلّ شيء قدانتهى، و بأنّ التّاريخ قداستقر على هذه الصّيغة إلى النّهاية، وتنشأ على هذا الإعتقاد أجيال بعد أجيال.

ولكنّ هذا الإعتقاد خاطئ، فحركة التاريخ لا تتوقف عند صيغة بعينها، بل هي دائبة التّقلب والتّغيّر، وسيكون لانتصار الفتنة واستقرار سلطانها نهاية قدلا تنتهي بها الفتنة، ولكنّها تواجه مقاومة جديدة.

١ . الصّبر: عصارة شجر مرّ، والمقر: السّم.

٢ . الشّعار من الملابس مايكون على الجلد، والدّثار مايكون على الثّياب.

٣ . الزّاملة النّاقة أو الدّابة الّتي يحمل عليها المتاع.

٤ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٥٨.

٥ . الأثرة: الإستبداد بالخيرات دون الآخرين.

٦ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٥٨.

تنشأ هذه المقاومة من حقّ استعاد بعضاً من حيويّته فهو لايطيق السّكوت، فيعبّر عن نفسه بالثّورة، لا لينتصر، فقد يكون انتصار الحق بعيد المنال في هذه المرحلة من التّاريخ، ولكن ليكسر من غلواء الفتنة، و يعطّل جانباً من عملها التّخريبي في عقيدة الأمّة وشخصيتها، وذلك حين يسلب الفتنة الشّعور بالإستقرار والأمان، فيحملها على اتخاذ موقف الدّفاع عن نفسها والتّخلّي عن بعض مناهجها التّخريبيّة، ويحملها على أنْ ترتدّ ولو قليلاً إلى الصّواب.

أو تنشأ هذه المقاومة من أزمات داخل الفتنة نفسها، تولّد فتناً تزعج أهل السّلطان القديم، وتأتي إلى سدّة السّلطان بقوم آخرين، و يكون بين أولئك وهؤلاء فرج لأهل الإيمان، ونهضة لأهل الحقّ في غفلة أهل السّلطان.

قال عليه السّلام:

«حَتّىٰ يَظُنَّ ٱلظَّانُّ أَنَّ ٱلدُّنْيا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ[١]، تَمْنَحُهُمْ دَرَّها[٢]، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَها، وَلاَيُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ ٱلْأُمَّةِ سَوْطُها وَلاَسَيْفُها، وَكَذَبَ ٱلظَّانُّ لِذَلِكَ، بَلْ هِيَ مَجَّةٌ[٣] مِنْ لَذِيذِ ٱلْعَيْشِ يَتَطَعَّمُونَها بُرْهَةً، ثُمَّ يَلْفِظُونَها جُمْلَةً»[٤].

وقال عليه السّلام في نص آخر يخاطب بني أميّة:

«فَمَا ٱحْلَوْلَتْ لَكُمُ ٱلدُّنْيا فِي لَذَّتِها، وَلاَتَمَكَّنْتُمْ مِنْ رَضاعِ أَخْلافِها[٥] إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَاصَادَفْتُمُوها جَائِلاً خِطامُهَا[٦]، قَلِقاً وَضِينُها[٧]، قَدْصَارَ حَرَامُهَا عِنْدَ أَقْوامٍ بِمَنْزِلَةِ ٱلسِّدْرِ ٱلْمَخْضُودِ[٨]، وَحَلالُها بَعِيداً غَيْرَ مَوْجُودٍ، وَصَادَفْتُمُوها وَٱللهِ، ظِلّاً مَمْدُوداً إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ.

١ . معقولة...: مقصورة عليهم، دائمة لهم، من عقل النّاقة إذا حبسها بالعقال في مكان بعينه.

٢ . الدّر: اللّبن، يعني خيرات الدّنيا والذّاتها.

٣ . مجّة: مصدر مرة، من مجّ الشّراب من فيه، يعني أنّها لا تدوم لهم كما يتوهّم النّاس وإنّما يمجّونها و يلفظونها رغماً عنهم.

٤ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٨٧.

٥ . الأخلاف جمع خلف: حملة ضرع النّاقة.

٦ . الخطام: مايوضع في أنف البعير ليقاد به، يعني أنّ تخاذل أهل الحقّ عن نصرة الحق مكن لأهل الباطل من الإنتصار.

٧ . الوضين: حزام عريض يشدّ به الرحل على النّاقة، وهو كناية عن تخاذل أهل الحقّ الّذي مكن لأهل الباطل من النّصر.

٨ . السّدر: شجر النّبق، والمخضود: المقطوع شوكه. يعني أنكم انتصرتم بأقوام يستحلّون حرام الله، ولايتورّعون من شيء.

فَالأَرْضُ لَكُمْ شَاغِرَةٌ[١]، وَأَيْدِيكُمْ فِيهَا مَبْسُوطَةٌ وَأَيْدِي ٱلْقَادَةِ عَنْكُمْ مَكْفُوفَةٌ، وَسُيُوفُكُمْ عَلَيْهِمْ مُسَلَّطَةٌ، وَسُيُوفُهُمْ عَنْكُمْ مَقْبُوضَةٌ. أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ دَمٍ ثَائِراً، وَلِكُلِّ حَقٍّ طَالِباً. وَإِنَّ ٱلثَّائِرَ فِي دِمَائِنَا كَٱلْحَاكِمِ فِي حَقِّ نَفْسِهِ، وَهُوَ ٱللهُ ٱلَّذِي لاَ يُعْجِزُهُ مَنْ طَلَبَ، وَلاَ يَفُوتُهُ مَنْ هَرَبَ. فَأُقْسِمُ بِاللهِ يَا بَنِي أُمَيَّةَ: عَمَّا قَلِيلٍ لَتَعْرِفُنَّهَا فِي أَيْدِي غَيْرِكُمْ، وَفِي دَارِ عَدُوِّكُمْ...»[٢].

وقال عليه السّلام:

«...فَأُقْسِمُ ثُمَّ أُقْسِمُ لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ ٱلنُّخَامَةُ[٣]، ثُمَّ لاَ تَذُوقُهَا وَلاَ تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً مَا كَرَّ ٱلْجَدِيدَانِ[٤]»[٥].

*

وهكذا يرى الإمام ببصيرته الّتي تضيء آفاق المستقبل الملفّح في ظلمات الزّمان إلاّ في حركة التاريخ الهادرة، والقوى السّياسيّة الّتي يحبل بها المجتمع في الحاضر وسيلدها في الآتي من الأيّام، لتحرم الفتنة من لذّات انتصارها، وتتراجع إلى مواقع الدّفاع عن نفسها، وتبدل القوى الحاكمة بقوى جديدة، عادلة أو ظالمة.

١ . شاغرة: خالية، يعني لم يقاومكم أحد.

٢ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٠٥.

٣ . نخم: أخرج النّخامة من صدره، وهي المواد المخاطية، كنّى بذلك عن سلطان بني أميّة.

٤ . الجديدان: اللّيل والنّهار. يعني أنّهم لا يعودون إلى السّلطة أبداً.

٥ . نهج البلاغة، الخطبة رقم: ١٥٨.

٥ـ الثّورة

الفتنة تنمو، و يتّسع سلطانها، و يزداد بطشها، و يزيد شيئاً فشيئاً عدد السّاخطين عليها: من أبنائها الّذين نبذتهم بعد أن استغنت عنهم، ومن الصّفوة الّذين قامت في أساسها ضدهم، ومن أولئك الّذين لم يكن يعنيهم الأمر في شيء، ولكنّهم اكتشفوا ـ بعد انتصار الفتنة الّتي لم يحاربوها أوّل الأمر ـ أنهم قد غدوا من ضحاياها... هؤلاء جميعاً الّذين تجملهم كلمة أمير المؤمنين في تصويره لمعاناة الناس من الفتنة بقوله:

«...وَحَتّىٰ يَقُومَ ٱلْباكِيانِ يَبْكِيانِ: بَاكٍ يَبْكي لِدِينِهِ، وَبَاكٍ يَبْكِي لِدُنْياهُ»[1].

و يرى هؤلاء جميعاً أنّ النّظام، نظام الفتنة، ظالم. وكلّ فريق يرى ظلم هذا النظام من منظوره الخاص:

بعضهم يرى ظلم النّظام من منظوره النّفعي الخاص، أو الفئوي، أو القبلي، دون أن يبالي بانتهاك الثّورة لحقوق أشخاص آخرين أو فئات أخرى، ودون أن يبالي بتجاوز النّظام للشّريعة وتعطيل دور الأمّة الرّسالي في العالم، وتحويلها إلى فئات محتربة متخاصمة فقدت وحدتها الدّاخلية.

و بعضهم الآخر يرى ظلم النّظام من منظور رسالي وشرعي يتجاوز مصالحه الشّخصية ومصالح فئته وقبيلته.

كلّ الفئات السّاخطة على النّظام ترى ظلم هذا النّظام... هذا الظّلم الّذي هو

١. نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٩٨.

حصيلة التعارض بين القانون كما يراه كلّ فريق من منظوره الخاص و بين سياسة الدّولة.

وتتأهب كلّ فئة ـ بوسائلها الخاصّة ـ للعمل من أجل تصحيح الوضع القائم برفع التعارض بين الواقع السّياسي للدّولة و بين القانون، بإرغام الدّولة على أن تعود في سياستها إلى القانون، أو بتغيير الفئة الحاكمة نفسها.

والوسيلة إلى إنجاز عملية التّصحيح هذه هي الثّورة.

إذن، عملية الإحتجاج بالعنف على واقع نظام الفتنة وممارساته قدتكون ثورة عادلة، وقدتكون أزمة في داخل الفتنة نفسها. نعني: فتنة جديدة تولّد من فشل الفتنة الحاكمة في إرضاء قوى سياسيّة في المجتمع تحمل نفس المفاهيم الّتي تحملها الفتنة الحاكمة[١].

إن الإحتجاج بالعنف على واقع نظام الفتنة له فائدة إيجابية كبرى وهامّة سواء أكان القائمون بالإحتجاج عادلين أو مفتونين.

هذه الفائدة هي إدخال الإضطرابات والقلق على هذا النّظام وحرمانه من فرص الإستقرار والشّعور بالأمن الّتي تتيح له المضي في تزو ير الشّريعة وإفساد القيم. وتتيح لقوى الخير والحقّ الصّامدة في الأمّة أنْ تتنفّس قليلاً، وتمارس دورها في توعية الأمّة بحرّيّة نسبيّة لم تكن لتتاح لها لو أنّ نظام الفتنة نعم بالسّلام والإستقرار.

*

وقد كان موقف الإمام إيجابياً من حركات الإحتجاج على نظام الفتنة الّذي سيقوم من بعده، لأنه إذا لم يكن من المتاح ـ نظراً لما تقضي به حركة التاريخ ـ انتصار الشّرعية الكاملة في المدى المنظور، فان من الخير ألّا تتاح لنظام الفتنة فرصة للتمكن والإستقرار، ومن الخير أن يبقى نظام الفتنة في أجواء الخوف والحذر، وحالة الدفاع.

١ . نحن نعبّر بمصطلح (ثورة) في التاريخ الإسلامي عن العمل السّياسي الّذي يتمتع بالشّرعية، وما عدا ذلك لانسمّيه ثورة، وإنّما نسمّيه تمرداً، أو خروجاً، أو فتنة.

وإنّما جعلنا عنوان هذا الفصل (الثورة) ـ مع أنّ البحث فيه يشمل الإحتجاج بالعنف بجميع ألوانه (الشّرعيّة وغير الشّرعيّة) لغرض بياني فقط. هو إيثار بساطة العنوان على تعقيده.

ومن هنا كان توجيهه بشأن الخوارج الّذين تمظهرت فيهم الفتنة بمظهر الرّفض المطلق للأنظمة القائمة، ومن ثمّ فهم مؤهلون لأن يشكلوا قوّة مزعجة لنظام الفتنة المنتصر.

لقد نهى الإمام عن قتال الخوارج من بعده، مع إنّه، هو، قاتلهم في خلافته، -لأنّهم- حين قاتلهم وقتلهم في النّهروان بعد أن رفضوا كلّ عروض السلام، و بعد أن رفضوا التّخلّي عن مواقفهم - كانوا يمثّلون قوّة هادمة لنظام عادل، أمّا في نطام الفتنة فإنّهم يمثّلون قوّة شالّة وشاغلة لهذا النّظام الجائر المنحرف عن أن يمارس طغيانه المادّي والسّياسي، و ينفذ خطط التّحريف العقيدي والشّرعي. قال عليه السلام:

«لاَ تُقَاتِلُوا ٱلْخَوارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ ٱلْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ كَمَنْ طَلَبَ ٱلْباطِلَ فَأَصَابَهُ»[١].

وقد كان عليه السّلام يرى الثّورة آتية.

إنّه لايصف هذه الثّورة بأنّها عادلة مستقيمة، أو ظالمة مفتونة، وإنّما يرى أنّ نظام الفتنة المنتصر لايتمتّع طويلاً بانتصاره واستقراره، بل ستسلب منه لذّة النّصر وحرّيّة الحركة الّتي يتيحها النّصر والإستقرار السّياسي والإجتماعي، ثورات دامية تتوالى فتقضي في النّهاية على فتنة بني أميّة، وتزيل ملكهم.

قال، وهو يحدّث جمهوره عن الفتنة وانتصارها، والمعاناة من و يلاتها وشرورها:

«...ثُمّ يُفَرِّجُهَا ٱللهُ عَنْكُمْ كَتَفْرِيجِ ٱلأَدِيمِ[٢]، بِمَنْ يَسُومُهُمْ خَسْفاً[٣]، وَيَسُوقُهُمْ عُنْفاً، وَيَسْقِيهِمْ بِكَأْسٍ مُصَبَّرَةٍ[٤]، لاَيُعْطِيهِمْ إِلاَّ ٱلسَّيْفَ، وَلاَيُحْلِسُهُمْ إِلاَّ ٱلْخَوْفَ[٥] فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَدُّ قُرَيْشٌ -بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا- لَوْ يَرَوْنَنِي مَقَاماً وَاحِداً، وَلَوْ قَدْرَ جَزْرِ جَزُورٍ، لأَقْبَلَ مِنْهُمْ مَا أَطْلُبُ ٱلْيَوْمَ بَعْضَهُ فَلاَ يُعْطُونِيهِ»[٦].

١. نهج البلاغة، رقم النّصّ - ٦١.

٢. الأديم الجلد، وتفريجه سلخه: يعني أنّ الله يسلخ سلطان بني أميّة عن الأمّة مع شدّة رسوخه ولصوقه.

٣. الخسف: الذّل. يعني أنّ الثّورة الآتية تعاملهم بالإذلال.

٤. مصبّرة مملوءة إلى أصبارها بمعنى حافتها، يعني لايرحمهم ولايخفف عنهم.

٥. حلس البعير: كساء يوضع على ظهره، يعني أنّ الثّورة الآتية تلبس بني أُميّة الخوف.

٦. نهج البلاغة - رقم النّصّ : ٩٣.

والإمام يرى أنّ من الهموم الكبرى لنظام الفتنة المنتصر تشتيت القوى السّياسيّة والعقيديّة المناهضة له، سواء أكانت هذه القوة أو تلك قدحافظت على نقائها الإسلامي أو تلوّثت بغبار الفتنة بشكل أو بآخر.

ولكنه يرى أيضاً أنّ محاولات نظام الفتنة لتشتيت القوى المضادّة له لن تستمر في النّجاح، فانّ حركة التاريخ تعمل على تجميع هذه القوى من جديد وفقاً لصيغ سياسيّة جديدة، و يكون ذلك إيذاناً بنهاية الإستقرار لنظام الفتنة الأموي.

قال عليه السلام:

«...وَآيْمُ آللهِ لَوْفَرَّقُوكُمْ تَحْتَ كُلِّ كَوْكَبٍ، لَجَمَعَكُمُ آللهُ لِشَرِّ يَوْمٍ لَهُمْ»[١].

وقال عليه السلام:

«آفْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ، فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ أَيْنَمَا مَالَ مَالَ مَعَهُ عَلَىٰ أَنَّ آللهَ تَعَالَىٰ سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَزَعُ آلْخَرِيفِ[٢]، يُؤَلِّفُ آللهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَاماً كَرُكَامِ آلسَّحَابِ[٣]، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَاباً يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ آلْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ[٤]، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ وَلَاحِدَابُ أَرْضٍ[٥]، يُزَعْزِعُهُمُ آللهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَتِهِ[٦] ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي آلْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمَكِّنُ لِقَومٍ فِي دِيارِ قَوْمٍ وَآيْمُ آللهِ لَيَذُوبَنَّ مَافِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ آلْعُلُوِّ وَآلتَّمْكِينِ كَمَا تَذُوبُ آلْأَلْيَةُ عَلَى آلنَّارِ»[٧].

*

١. نهج البلاغة ـ رقم النصّ: ١٠٦.

٢. القزع: القطع المتفرقة من السّحاب.

٣. ركام السّحاب: السّحاب المتراكم. والمستشار مكان تجمعهم وانطلاقهم ثائرين، وسيل الجنتين السّيل الّذي دمّر الله به قوم سبأ وحضارتهم عندما طغوا و بطروا.

٤. القارة: ما آطمأنّ من الأرض. والأكمة: ماارتفع من الأرض. يعني أنّ الكارثة ستكون شاملة عليهم لايفلت منها أحد منهم ولامؤسّسة من مؤسّسات دولتهم.

٥. السّنن: الجزي، والطود: الجبل العظيم، والحداب: المرتفعات. والمراد هنا هو المراد في رقم(٣).

٦. يزعزعهم: يفرقهم في بطون الأودية حيث يختفون، كناية عن أماكن آختفائهم، ثم يجمعهم.

٧. نهج البلاغة ـ رقم النصّ: ١٦٦.

ومن أروع رؤاه لحركة التاريخ في المستقبل رؤيته لحركة الخوارج التمرّديّة، وكيف أنّها ستنمو وتتشعب على رغم مايبدو في الحاضر من مظاهر اندثارها وانقطاع أصلها، وذلك أنّه لمّا قتل الخوارج قيل له: ياأميرالمؤمنين: هلك القوم بأجمعهم، فقال:

«كَلَّا وَٱللهِ. إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ ٱلرِّجَالِ وَقَرارَاتِ ٱلنِّسَاءِ[1] كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ[2] حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلَّابِينَ»[3].

*

وهكذا تأتي الثّورة في أعقاب انتصار نظام الفتنة فتحول بينه و بين الإستقرار، وتحول بين أدواته و بين أن تمكن لمفاهيمها في الأمّة، وتتيح بذلك فرصاً لقوى الخير الباقية أنْ تنعم بشيء من الأمان، وأن تقدر على شيء من الحركة يتيح لها إبقاء النّور الصّافي متألقاً في ظلمات الفتنة، في عقول وقلوب كثيرةٍ، بانتظار الأمل الكبير، والنّصر النّهائي الكبير.

١ . قرارات النّساء: أرحام النّساء.

٢ . نجم: ظهر. قرن: رئيس أو جماعة.

٣ . نهج البلاغة ـ رقم النّصّ: ٦٠.

٦ـ الأمل

الإنسان يعيش في الحاضر مشدوداً بين وترين: الماضي والمستقبل، فهو لا يني يحمل الماضي في وعيهِ، وفي ذاكرته، وفي تركيب جسده، مثقلاً بأحزانه وأفراحه، ومخاوفه وآماله، مندفعاً بها نحو المستقبل، يضيء عينيه نور الأمل الّذي يغمر قلبه بالحياة الأفضل. ولكنّه أمل معذب بالحيرة، والقلق، والمخاوف من خيبات الأمل.

وهذه الحقيقة بارزة في تكوين وحياة الإنسان الفرد بوضوح، وهي لا تقلّ وضوحاً في حياة الأمم والشّعوب والجماعات.

وقد وقف الإسلام في تعليمه التّربوي الإيماني للأفراد في وجه الميل إلى الإغراق في الأمل، لأنه حين يشتدّ و يغلب على مزاج الإنسان يجعله غير واقعي، ويحبسه في داخل ذاته، و ينمي فيه الشّعور بـ«الأنا» على نحو لا يعود الآخرون موضوعاً لاهتمامه وعنايته أو يجعله قليل الإهتمام بهم، وهذا أمر مرفوض في دين يجعل الإهتمام الشّخصي بالآخرين أحد المقوّمات الأساسيّة للشّخصيّة الإنسانية السّليمة، ولأنّ الإغراق في الأمل يحول بين الإنسان و بين كثير من فرص كثيرة للتّكامل الرّوحي والأخلاقي.

والنّصوص القرآنيّة في هذا الشّأن كثيرة، كذلك النّصوص النّبويّة الواردة في السّنّة. وقد حفلت مواعظ الإمام عليّ في نهج البلاغة بالتّحذير من الإسترسال مع الآمال[1].

١ ، راجع دارسة موسّعة ومعمّقة عن هذا الموضوع في فصل (الوعظ) من كتابنا، دراسات في نهج البلاغة ـ الطّبعة الثّالثة.

وهذا لايعني -بطبيعة الحال- أنّ تأميل الإنسان في مستقبله -بإْعتدال وواقعية- ممارسة غير أخلاقية في الإسلام، كيف وقدحذّر الله تعالى في القرآن الكريم من اليأس ونهى عنه في آيات تذكر برحمةالله ورَوح الله، ومن ذلك تعليم يعقوب سلام الله عليه لبنيه حين أمرهم بالبحث عن يوسف واخيه، وذلك كما ورد في قوله تعالى:

«يَابَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللهِ. إِنَّهُ لاَيَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْكافِرُونَ»[١].

فإنّ يعقوب طبق مبدأ مشروعيّة الأمل العام المطلق على حالة فردية هي حالته وحالة بنيه.

وإذن، فالأمل، في نطاق الواقع، حقيقة كيانيّة في الإنسان، قديكون فقدانها ظاهرة مرضيّة نفسيّة وليس علامة عافية.

هذا على الصّعيد الفردي.

وأمّا على الصّعيد الجماعي في الأمم والشّعوب والجماعات فان الأمل عامل هامّ جداً وأساسي في تنشيط حركة التّاريخ وتسريعها، وجعلها تتغلب بيسر على ما يعترضها من صعوبات ومعوّقات.

والأمل الموضوعي القائم على اعتبارات عملية تنبع من الجهد الإنساني، واعتبارات عقيديّة وروحيّة... هذا الأمل يشغل حيزاً هامّاً وأساسيّاً في تربية الله تعالى للبشريّة السّائرة في حياتها على خط الإيمان السّليم.

وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات محكمات تتضمن وعد الله تعالى بالنّصر والعزّة لأهل الإيمان وقادتهم من الأنبياء والتّابعين لهم بإحسان.

قال الله تعالى:

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهادُ»[٢].

١ . سورة يوسف (مكّيّة ـ ١٢) الآية: ٨٧.

٢ . سورة المؤمن (مكّيّة ـ ٤٠) الآية: ٥١.

وقال تعالى:

«وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّالِحُونَ»[١].

وقال تعالى:

«إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»[٢].

وقد وجّه الله تعالى في القرآن الكريم رسوله محمداً(ص) والمسلمين إلى أنّ الأمل بالنصر والحياة الأفضل يجب أن يبقى حيّاً نابضاً دافعاً إلى العمل حتّى في أحلك ساعات الخذلان والهزيمة وانعدام النّاصر... لقد كانت الآمال بالنصر تتحقّق في النّهاية على أروع صورها حين يخالج اليأس قلوب أهل الإيمان، وحين يصل الرّسل الكرام إلى حافة اليأس:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ. وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوا، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ. حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَيْئَسَ ٱلرُّسُلُ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا، فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ، وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ. لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي ٱلْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ. وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيءٍ، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»[٣].

*

إن الأمل الجماعي بمستقبل أكثر إشراقاً وأقلّ عذاباً، أو مستقبل مترع بالفرح خال من المنغصات... إنّ هذا الأمل يستند إلى «وعد إلهي»، فهو، إذن، ليس مغامرة في المستقبل، وإنما هو سير نحو المستقبل على بصيرة.

وهو أمل يرفض الواقع التّجريبي الحافل بالمعوّقات نحو مستقبل مثالي مشروط «بالعمل» المخلص في سبيل الله، وفي سبيل الله بناء الحياة، وعمارة الأرض، وإصلاح

١. سورة الأنبياء (مكّيّة ـ ٢١) الآية: ١٠٥.
٢. سورة الأعراف (مكّيّة ـ ٧) الآية: ١٢٨.
٣. سورة يوسف (مكّيّة ـ ١٢) الآيات: ١٠٩ ـ ١١١.

المجتمع. كما أنّ هذا المستقبل مشروط «بالصّبر» على الأذى في جنب الله، و«الصدق» في تناول الحياة والتعامل معها ومع المجتمع و«الرّضا» بقضاء الله تعالى.

والسّنّة حافلة بالنّصوص الّتي تغرس في قلب الإنسان روح الأمل، وتملأ وعيه ببشائر المستقبل الأفضل، استناداً إلى وعد الله تعالى.

*

والتّأمّل العميق الواعي في نصوص الكتاب الكريم والسّنّة الشّريفة الّتي تفصح عن العلاقة بين الله والإنسان، وتكشف عن طبيعة هذه العلاقة... كذلك التّأمّل في الفقه المبني على هذين الأصلين... إنّ هذا التّأمّل يكشف عن أنّ العلاقة بين الله والناس مبنيّة على ثلاث حقائق ربّانيّة يقوم عليها وجود المجتمع البشري، وديمومته، ونموّه وتقدّمه:

١ ـ الحقيقة الأولى هي الإنعام المطلق غير المشروط بشيء على صعيد الشّروط المادّيّة للحياة بما يكفل لها الدّيمومة والنموّ التّصاعدي نحو الأفضل، فقد خلق الله الإنسان، وزوّده بالمواهب العقليّة والنّفسيّة والرّوحيّة، الّتي تتيح له أن يتعامل مع الطّبيعة المسخّرة له، وتمكنه من اكتشاف خيراتها وكنوزها، ومعرفة قوانينها وتوجيه هذه الإكتشافات والمعارف لخدمة نفسه ونوعه.

٢ ـ الحقيقة الثّانية هي الرّحمة الّتي «كتبها الله على نفسه»[١] والّتي «وسعت كلّ شيء»[٢]، وإقالة العثرات ـ على صعيد الأمم والجماعات والمجتمعات، والأفراد ـ، والتّجاوز عن الخطايا والسّيئات، ومنع الفرص المتجدّدة لتصحيح السّلوك، وتقويم

١ . قال تعالى: «قُلْ لِمَنْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ؟ قُلْ لِلّٰهِ، كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ» سورة الأنعام (مكّيّة ـ ٦) الآية: ١٢ وقال تعالى:
«وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ، ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة الأنعام (مكّيّة ـ ٦) الآية: ٥٤.

٢ . قال تعالى «...ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ، وَلَايُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ» سورة الأنعام (مكّيّة ـ ٦) الآية: ١٤٧. وقال تعالى: «قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» سورة الأعراف (مكّيّة ـ ٧) الآية: ١٥٦. وقال تعالى «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ» سورة المؤمن (مكّيّة ـ ٤٠) الآية: ٧.

الإعوجاج، والتّوبة والإنابة إلى الله تعالى والعمل بقوانينه وشرائعه.

وهذه الحقيقة نابعة من معادلة تقابل بين حقيقتين كونيّتين:

أ ـ خيرية الله الشّاملة المطلقة.

ب ـ الحقيقة الموضوعيّة الثّابتة في الفكر الإسلامي، وهي أنّ الإنسان خُلِق ضعيفاً[١].

وما يخالف هذه الحقيقة من الآلام والكوارث فهو على قسمين:

ألاوّل ـ ناشئ عن عمل الطّبيعة وقوانينها، وهي قوانين تعمل، في غرضها الأقصى، لخير الجنس البشري بصورة شاملة وغير مقيّدة بزمان أو رقعة جعرافيّة، وهذا مايجعلها قوانين عادلة وإن أصابت بالآلام بعضاً من البشر في زمان بعينه أومكان بعينه.

وهذا بالنّسبة إلى الكوارث الطّبيعية الّتي تحصل بغير تدخل من الإنسان أو تقصير منه. أمّا مايحدث في الطّبيعة نتيجة لعمل الإنسان نفسه أو سلبيّته، أو عدم التزام بالقوانين (في عصرنا الحاضر: تلويث البيئة، مثلاً، أو روح الإستغلال والعدوان في المجتمعات الصّناعيّة ضدّ العالم الثّالث ، مثلاً)... هذا النّوع من الكوارث يدخل في القسم الثّاني التّالي.

الثّاني ـ ناشىء عن سوء اختيار الإنسان، واستعجاله الخير قبل توفّر شروطه ونضجها، ومن عدوان بعضه على بعض.

٣ ـ الحقيقة الثّالثة هي البشارة من الله تعالى بأن أمور الحياة والمجتمع تصير إلى أفضل وأحسن ممّا عليه في الحاضر. ولكن هذه البشارة لا تتحقّق بطريقة إعجازيّة محضة. إنّ تحقيق البشارة يتمّ وفاء بالوعد الإلهي، ومن ثمّ ففيها عنصر غيبي غير تجريبي، ولكن تحقيقها مشروط بالعمل البشري:

«إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً»[٢].

١. قال الله تعالى: «يُرِيدُ ٱللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً،» سورة النساء (مدنيّة ـ ٤) الآية: ٢٨.

٢. سورة الإسراء (مكّيّة ـ ١٧) الآية: ٩.

«وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ، فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ»[١].

«...وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً»[٢].

*

من هذا المنطلق الثّابت في الفكر الإسلامي، ومن البشائر المحدّدة في الكتاب الكريم والسّنّة النّبويّة بفرج شامل آت في «النهاية» يملأ عدلاً بعدما ملئت ظُلماً وجَوراً»... من هذا المنطلق، ومن هذه البشائر كان أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام يرى نور الأمل في المستقبل، وكان يبشّر بأنّ فرجاً آتياً لاريب فيه:

إنّ حركة التاريخ تقضي به، وإنّ وعد الله يقضي به، والله لايخلف المعياد.

وقد كانت رؤية الإمام لحركة التاريخ في المستقبل لا تقتصر على رؤية النّكبات والكوارث ـ كما توحي بذلك كثرة النّصوص الحاكية عن ذلك في نهج البلاغة ـ وإنّما تشمل البشائر أيضاً، وقدتقدّم في الحديث عن (المعاناة) وعن (الثورة) بعض النّصوص الدّالّة على ذلك.

وكانت رؤية الإمام دقيقة، محدّدة، مضيئة، واضحة المعالم، في نطاق الخطوط الكبرى والتّيّارات الأساسيّة لحركة التاريخ، وإن لم تشتمل على التّفاصيل، من ذلك هذا الشاهد على رؤيته لحركة الثّورة العادلة الّتي لا تنطفئ مهما تكالبت عليها الرّياح الهوج، فقدقال له بعض أصحابه، لما أظفره الله بأصحاب الجمل: «وددت أنّ أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى مانصرك الله به على أعدائك» فقال له الإمام(ع):

«أَهَوَىٰ أَخِيكَ مَعَنَا[٣]؟، فَقَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ شَهِدَنَا. وَلَقَدْ شَهِدَنَا فِي عَسْكَرِنَا هَذَا أَقْوَامٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ سَيَرْعَفُ بِهِمُ الزَّمَانُ[٤] وَيَقْوَىٰ بِهِمُ الْإِيمَانُ»[٥].

١ . سورة الزّمر (مكّيّة ـ ٣٩) الآية: ١٧ ـ ١٨.

٢ . سورة الأحزاب (مدنيّة ـ ٣٣) الآية: ٤٧.

٣ . الهوى: الميل والرّغبة، يعني هنا الموقف السّياسي.

٤ . يرعف بهم.. يوجدون في المجتمع من غير أن يتوقّع وجودهم لاختلافهم النّوعي الأساسي عن الأخلاقيّة والذّهنيّة السّائدة في المجتمع، فيفاجأ المجتمع بوجودهم. كما يفاجئ الرّعاف صاحبه.

٥ . نهج البلاغة ـ رقم النّص: ١٢.

هذا الأمل الكبير الآتي الّذي يبشّر به الإمام عليه السّلام يتمثّل في قيام ثورة عالميّة تصحّح وضع عالم الإسلام، ومن ثمّ وضع العالم كلّه، يقودها رجل من أهل البيت هو الإمام المهدي. وقدوردت في نهج البلاغة نصوص قليلة نسبيّاً تحدّد بعض ملامح هذا الأمل، فمن ذلك قوله عليه السّلام.

«...حَتّٰى يُطْلِعَ ٱللهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ، وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ[1]»[2]

والعقيدة بالمهدي عقيدة إسلاميّة ثابتة أجمع عليها المسلمون بأسرهم، ودلّ عليها القرآن الكريم في جملة آيات، والسّنّة الشّريفة في مئات الأحاديث المتواترة عن رسول الله(ص) وأئمّة أهل البيت. قال ابن أبي الحديد في التّعليق على النّصّ الآنف: «ثم يطلع الله لهم من يجمعهم و يضمهم، يعني من أهل البيت عليه السّلام. وهذا إشارة إلى المهديّ الّذي يظهر في آخر الوقت. وعند أصحابنا إنّه غير موجود الآن وسيوجد، وعند الإمامية إنّه موجود الآن»[3].

وقال ابن أبي الحديد في التّعليق على نصّ آخر مماثل للنّصّ الآنف: «فإنْ قيل: ومن هذا الرّجل الموعود الّذي قال عليه السّلام عنه (بأبي ٱبن خيرة الإماء)؟ قيل: أمّا الإماميّة فيزعمون أنّه إمامهم الثّاني عشر، وأنه ٱبن أمة اسمها نرجس، وأمّا أصحابنا فيزعمون أنّه فاطمي يولد في مستقبل الزّمان لأم ولد[4] وليس بموجود الآن»[5].

ومن النّصوص الّتي اشتمل عليها نهج البلاغة في هذا الشأن قول الإمام:

«أَلاَ وَفِي غَدٍ ـ وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ ـ يَأْخُذُ ٱلْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَىٰ مَسَاوِئَ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ ٱلْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا[6]، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ

١. يضم نشركم: يجمع شتاتكم و يوحد مواقفكم في حركة تاريخيّة واحدة.

٢. نهج البلاغة ـ رقم النّصّ: ١٠٠.

٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ـ ٩٤/٧.

٤. أمّ ولد: كناية عن الأمة المملوكة.

٥. المصدر السابق: ٥٩/٧.

٦. الفلذة: القطعة. والكبد في المعتقد الطّبّي القديم من أشرف أعضاء الإنسان وأكثرها أهمّيّة في بقائه وصحته، فهي تخرج الأرض: أفضل كنوزها وثرواتها.

ٱلسِّيرَة، وَيُحيِي مَيِّتَ ٱلْكِتابِ وَٱلسُّنَّةِ»[١].

هذا الأمل المضيء في الظلمات ليس أملاً قريباً إذا نظرنا إليه بمنظار آمال الأفراد ـ كل واحد بخصوصه ـ، فقديمضي الموت بالأفراد دون أن تكتحل عيونهم بفجر هذا الأمل... إنّه بالنّسبة إليهم ـ كأفراد ـ بعيد... بعيد. كذلك هو أمل بعيد بالنّسبة إلى كلّ مجتمع بمفرده وخصوصه، فقدتمضي القرون على مجتمع دون أنْ يحقّق في نظامه، ومؤسّساته هذا الأمل العظيم.. ولكنّ هذا الأمل على مستوى النّوع البشري كلّه أمل قريب، لأنّ الأحداث الّتي تغيّر مسار الجنس البشري كلّه لا تقاس بأعمار الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات ولابالحركة التاريخيّة في هذا النّطاق أو ذاك أو ذيّاك ، وإنّما تقاس بما تناسب مع حجم النّوع الإنساني كلّه، ومع حركة التّاريخ العالمي كلّها... إنّ ألف سنة، مثلاً، في عمر فرد زمن كبير طويل... كذلك الحال بالنّسبة إلى عمر حركة تاريخيّة في مجتمع من المجتمعات، ولكن ألف سنة في عمر البشرية كلّها زمن قصير بالنّسبة إلى فترات التّحوّل التّاريخيّة الكبرى الّتي أدخلت تغييراً أساسيّاً على المسار التّاريخي للجنس البشري كلّه، فنقلته من مستوى معين إلى مستوى أعلى منه مرتبة ونوعيّة. إنّ فترات التّحوّل التّاريخيّة الكبرى ـ كما نعلم ـ تستغرق أُلوف السّنين، أو ـ بالأحرى ـ عشرات الأُلوف من السّنين... إنّها حركة التّاريخ الكبرى[٢].

وفي انتظار أن تنجز حركة التّاريخ الكبرى عملها في نقل الإنسانيّة إلى مستوى أعلى لم تفلح في بلوغه من قبل.. في انتظار ذلك تستمر حركة التاريخ في دوائرها الصّغرى في العمل على تغيير حال البشر: أفراداً، وجماعات، ومجتمعات، ومجموعات إقليميّة

١ . نهج البلاغة ـ رقم النّصّ: ١٣٨.

٢ . لعلّ ابن ابي الحديد قدطافت بذهنه هذه الفكرة حين قال معلّقاً على احد نصوص نهج البلاغة بهذا الشّأن: «ثم وعدهم بقرب الفرج، فقال: إنّ تكامل صنائع الله عندكم، ورؤية ماتأملونه أمر قد قرب وقته، وكأنكم به قد حضر وكان، وهذا (على نمط المواعيد الإلٰهية بقيام السّاعة، فإن الكتب المنزلة كلّها صرّحت بقربها، وإن كانت بعيدة عنّا، لأنّ البعيد في معلوم الله قريب، وقد قال سبحانه (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَراهُ قَرِيباً)» شرح نهج البلاغة٧/٩٥.

إنّ حركة التّاريخ في دوائرها الصّغرى تغيّر الإنسان نحو الأفضل على الصّعيد المادّي كما يثبت ذلك الواقع التّجريبي، ولكنّها لا تغيّره نحو الأفضل دائماً على الصّعيد المعنوي والأخلاقي، بل قد تعود به إلى الوراء كما يثبت الواقع التّجريبي أيضاً، و بالنّسبة إلى كثير من مظاهر حضارة عصرنا بشكل خاص.

والمسؤول عن التّخلف المعنوي للبشر ليس القدر، إنّه إرادة البشر أنفسهم، فإنّ العالم الأخلاقي لدى الفرد والمجتمع ليس عالماً معطى وجاهزاً يأخذه الناس كما يستعملون الوصفات الطّبيّة أو المعادلات الرّياضيّة، إنما يتم بناؤه بالمعاناة اليوميّة للناس مع شهواتهم ورغائبهم الشّرّيرة، ومجاهدتهم لأنفسهم من أجل التغلب عليها. إنّ العالم الأخلاقي ليس سهل البناء كالعالم المادي التّجريبي، لأنّه تجاوز الإنسان لنفسه باستمرار نحو إنسانيّة أغنى وأعلى، ومن هنا فإنّ العالم الأخلاقي يبنى التّعامل مع المستحيل وكأنّه ممكن، إنّه في التكوين دائماً، لأنّ الإنسان كلّما بلغ ذروة جديدة في تكامله المعنوي لاحت لعينيه ذروة أسمى وأعلى.

وإذن، فالبشر، بانتظار أن يتحقّق هذا الأمل العظيم، لايجوز أن يجمدوا وإنّما عليهم أن يتحركوا في أطر دوائر التاريخ الصّغرى نحو بلوغ ذرى إنسانيّة جديدة أعلى مما بلغوه في كفاحهم الدّائب نحو مزيد من الكمال والنّور.

وإذن، فالمسلمون، باعتبار أنّ هذا الأمل العظيم سيتحقّق بإذن الله في نطاقهم بما هم جماعة بشريّة عقيديّة ومن خلال الإسلام نفسه بما هو دينهم،... المسلمون ينتظرون هذا الأمل العظيم قبل غيرهم من الجماعات العقيديّة في المجتمع البشري.

وقد ارتكز في أذهان الكثيرين ممّن عالجوا موضوع المهديّ والمهدويّة أنّ هذا المعتقد... هذا الأمل العظيم الثّابت بمقتضى وعد الله في الكتاب والسّنّة، والثّابت بمقتضى حركة التاريخ الكبرى... أنّ هذا ا لمعتقد عامل سلبي في حركة التّقدّم والنّموّ يعوّقها، و يبعث على السكون، و يقعد بالناس عن الحركة والسّعي نحو التّكامل المادي والمعنوي في انتظار أمل آتٍ ينقذ البشر بالمعجزة، ينقذ البشر بغير جهد البشر.

وربّما تكون بعض المظاهر في تاريخ عالم الإسلام تعزز هذا الإتهام ولكنّ الحقيقة هي أنّ هذا اللون من الإنتظار السّلبي المريض دخل على ذهنيّة الإنسان نتيجة

لانتكاس حضاري تسلّل إليه من بعض الثّقافات الأجنبيّة عن الإنسان، فشلّ قدرته على العمل، لأنّه شلّ إرادته وفعاليته وحوّله إلى حياة التّأمّل والقناعة والإستسلام.

أمّا الحقيقة فهي على خلاف ذلك، إنّ الإنتظار ـ نتيجة لهذا المعتقد ـ هو انتظار إيجابي فعّال، هو تهيّوء واستعداد، هو كدح دائم ومستمر يجب أن يطبع حركة تارخ الإنسان المسلم نحو توفير أفضل الشّروط الّتي تهيّء لهذا الأمل العظيم أحسن ظروف النّجاح والتّحقّق.

لقد رأينا أنّ حركة التّاريخ في دوائرها الصّغرى لا تتوقّف، ونوع هذه الحركة ـ تقدّميّة صاعدة أو رجعيّة هابطة (على صعيد المعنويّات والأخلاق) ـ يتوقف على إرادة البشر أنفسهم، فهم الّذين يبنون عالمهم الأخلاقي الأمثل وهو لا يبنى إلّا بالعمل الإيجابي الّذي يحرّكه الطموح نحو إنسانيّة أفضل.

*

سلام الله على محمّد وآله الطاهرين، وصحبه الّذين اتبعوه بإحسان إلى يوم الدّين. وسلام الله على أشهر المؤمنين الإمام عليّ أمير المؤمنين.
والحمد لله ربّ العالمين.

(RECAP

4979

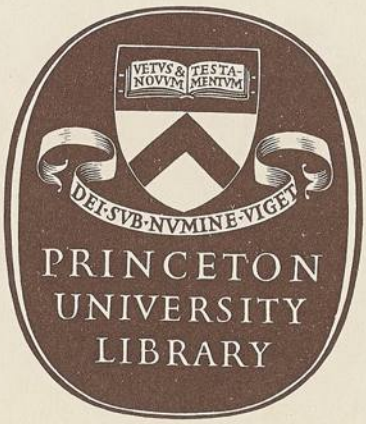
VETVS &
NOVVM
TESTA-
MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 088444383

۳۰۰ ریال

از انتشارات
بنیاد
۲۴